الملك سرجون الأكادي

وليدٌ غيرُ شرعيٍّ يقودُ أمةً للحريةِ

عبد الكريم العلوجي

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

الملك سرجون الأكادي

اسم الكتاب: الملك سرجون الأكادي

إعداد: عبد الكريم العلوجي

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٤٢٦٢ /٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 1 - 529 - 376 - 977 - 978

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكري كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق: مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى - ت: ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠١٠

سوريا- دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩٢٣٦٧١/٢٣٩١٦١٢٢
لبنان - تلفاكس: ٠٥/٤٣٤١٨٦ تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات
darelkitab@yhoo.com darkitab.nassif@hotmail.com
عنوان الموقع: www-darketab-com - عنوان البريد الألكتروني التابع للموقع: info@darketab-com

وليدٌ غيرُ شرعى يقودُ أمةً للحرية

الملك
سـرجـون الأكـادي

◆

د/ عبدالكريم العلوجي

الطبعة الأولى

الناشر

دار الكتاب العربي

٢٠١٠

أنا الملك سرجون



أنا سرجون الملك العظيم،

ملك بلاد أكد. كانت أمي كاهنة عظمى .

وأنا لا أعرف أبي،

كان شقيق أبي يحب التلال.

ومدينتي أزوبيرانو،

التى تقع على ضفاف الفرات.

لقد حملتني أمي وولدتني سرّاً،

ووضعتني فى سلة من البردي ختمت غطاءها بالقير.

ومن ثم رمتني فى النهر الذي لا يغمرني

فحملني النهر وأخذني إلى الغراف أكي،

فأخذني الغراف أكي ابناً له.

وجعلني الغراف أكي بستانيّاً عنده.

وعندما كنت بستانيّاً منحتني عشتار حبها،

فاضطلعت بمهمة الملوكية أربعاً و(خمسين) سنة.

مقدمة

فى تاريخ الشعوب .. صفحات نضال لا تُنْسَى .. وفى حياة الأمم قصص بطولة تتناقلها الأفواه جيلاً بعد جيل .. فهى قصص فى كتب التاريخ حية أبداً لا تموت.

ونحن نعود إلى هذه الصفحات، وتلك القصص، عندما نشعر بأننا فى حاجة إلى زاد يقوى نفوسنا، وإلى عبر من تاريخ كفاحنا تشد أزرنا وتدعم صمودنا.

ظهر فى منتصف القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، فاتح من الجنس العربى فى "أكد" أسس أسرة أجادة امسه "شروكين" أى "الملك الصادق" أو "الملك الشرعى" أو شىء من هذا القبيل، واعتادت كتب التاريخ على أن تحور هذا الاسم إلى "سرجون" وسوف نجرى فيما يلى على استخدام هذا الاسم الأخير لشيوعه على الرغم من تحريفه.

كان "سرجون" (٢٣٧٠ - ٢٣١٦ ق.م) بحق واحداً من ألمع شخصيات التاريخ القديم، فعهده كان بداية لحكم أقوام من الجزيرة العربية فى العراق بعد أن كانت الهيمنة السياسية بيد السومريين فقد استطاع هذا الملك أن يخلد اسمه عن طريق انتصاراته الرائعة وأعماله البناءة.

وقصة سرجون قصة شائقة كأنها فصل من ألف ليلة وليلة.

بدأ سرجون حياته لا يعرف له أبا، وهذا كل ما نعرفه عن قصة مولد هذا الرجل، من النقوش التى وصلتنا من مدة تاريخية متأخرة، حيث تعود نسختان منه (النهاية مهشمة فى النسختين) إلى العصر الآشورى الحديث (فى حدود ٧٥٠ ق.م) فضلا عن كسرة من رقيم تحتوى على جزء من النص تعود إلى العصر البابلى الحديث (فى حدود ٦٠٠ ق.م) وعلى الرغم من بعد الزمن بين عصر

سرجون والعصر الذى كتبت فيه هذه الألواح، فإننا لا نشك إطلاقاً فى أنها مستنسخة من ألواح أقدم كانت تتضمن النص الكامل لقصة مولد هذه الشخصية الفريدة، وفى هذه الوثيقة يحكى الملك تاريخ حياته المبكرة على ما ذكرنا:

ولم يقصد سرجون الأكدى إظهار التواضع بهذه الرواية بقدر ما تعمد تأكيد عصاميته ورعاية الربة له ووصوله العرش بفضل تأييدها، ومن المستبعد أن يكون الرجل قد سلم بولادته سفاحاً، وإنما قد يفسر عدم معرفته لأبيه بأن أمه كانت ممن وهبن عفافهن لربها أو لمعبده وكبير كهنته من حيث الواقع.

ويرى الدكتور "فاضل عبد الواحد على" أن أم سرجون كانت كاهنة عظمى (فى السومر ية Nin - Dingir والأكدية Entu)وأنها كانت مضطرة لأن تتخلص من وليدها غير الشرعى فرمته فى النهر، فأم سرجون بصفتها كاهنة عظمى، كانت من الوجهة الدينية زوجة للإله، حتى إن اسمه (Nin - Dingir) يعنى.. السيدة الإلهية.. ولهذا لم يكن لها حق الزواج وبالتالى الإنجاب، كما أن القوانين أوجبت عليها التعفف ومنعتها من التردد إلى الأماكن المشبوهة، وبعكسه فهى تعرض نفسها لعقوبة الحرق، ومن جهة أخرى فقد فرض المشرع عقوبة الجلد وحلاقة نصف الرأس على كل من يأتى بتهمة باطلة ضد هذه الكاهنة.. ولهذا اضطرت أم سرجون إلى أن تتخلص من ولدها غير الشرعى بالطريقة التى وصفها لنا النص، وإلا عرضت نفسها إلى مشاكل اجتماعية وقضائية كثيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه بخصوص الكهانة العظمى فى وادى الرافدين أن معظمهن قد جرى اختيارهن من الأميرات (بنات الملك) ولدينا قائمة تحتوى على اسم اثنتى عشرة كاهنة ممن كرسن للخدمة فى معبد إله القمر ننار (سن) فى أور. ومن محض المصادفة أن تكون أولى تلك الكهانات الأميرة "إنحيدوا" ابنة الملك سرجون الأكدى نفسه الذى أراد لها، على ما يبدو، أن تحترف الكهانة على غرار جدتها (أمه).

أما العلامة "جيمس فريزر" فيرى أنه كانت من عادات الشعوب القديمة، أن تطرح الطفل فى الماء بقصد اختبار بنوته الشرعية لأبيه، فقد كان الأطفال يطرحون فى الماء حيث يتركون لمصيرهم فإما أن يطفوا ، أو يستقروا فى قاع

الماء، والطفل الذى يطفو يعد طفلاً شرعيّاً، أما الطفل الذى يستقر فى الماء فإن المجتمع يرفضه بوصفه ابناً غير شرعى.

ويبدو أن سرجون بعد أن شب عن طوقه فى مدارج نجاحه الوظيفى إلى مرتبة ساقى القصر الملكى بكيش ثم وثب على عرشها، ويبدو أنه تزعم تمرداً اجتماعيّاً و"أعطى الحرية إلى شعب كيش".

اتخذ سرجون عاصمة جديدة قريبة من كيش عرفها التاريخ باسم اجادة (السومرى) واسم أكد (السامى) أو عمل على تجديدها، ربما باعتبارها من المراكز الرئيسية لعبادة الربة اشتار، أو (عشتار) التى اعتبرها راعيته منذ صغره، وكان معبدها فيها يسمى "يولماش" ونقل إليها بلاطه ليتميز عهده عن عهود من سبقوه شكلاً وموضوعاً، ومهد لآماله الداخلية بتلقيب نفسه بلقب ملك (أرض) سومر وأكد" (Sharru mat shumeri u Akkad) بعد أن قصرت همة معاصره "زاجيرى" السومرى على لقب ملك سومر وحدها، ثم مهد لأطماعه الخارجية بأن ادعى لنفسه لقب "شاركبرات أربعيم" أى ملك الجهات (أو الأركان أو المناطق) الأربع، وهو لقب اعتاد أسلافه أن يصفوا به سلطان أربابهم الكبار، فانتحله لنفسه وابتغى أن يقنع به نفسه ويقنع شعبه بأنه نائب الأرباب على جهات الأرض كلها.

لقد استطاع سرجون أن يوحد أرض العراق، وأن يجمع بين سومر وأكد، وقد حدث ذلك عن طريق خطة مرسومة، وبدأ بما هو أقرب إليه، فدعم سيطرته على أصحاب الرؤوس السود، على حد تعبير نصوصه، ثم اتجه إلى شمال العراق حيث نقل سيطرة السومريين، وواصل فتوحه هناك حتى بلغت جيوشه جبال زاجوراس التى تحف ببلاد النهرين وكسرت حدة الجوتين الجبليين الأشداء، بأسلحتها البرونزية، ثم عاد سرجون وألقى بثقل جيوشه على المناطق الجنوبية السومرية بعد أن سبقته شهرته وسمعة انتصاراته إليها فخضعت من شوكتها، وشدد على زعيمها الطموح "زاجيرى" الذى طال عهده، فهدم بجيشه أسوار مدينته وقسا فى معاملته واقتاده مكبلاً بالأغلال أمام إنليل إله سومر الأكبر ليفوز بالموافقة على خلع الملك القديم والحصول على لقب الإيش كو الأكبر

وبذلك أصبح سيداً على المنطقة الشمالية من سومر، وقد سحق فى حملة أخرى قوات أور وهدم أسوار هذه المدينة ثم سقطت أراضى لاجاش كلها فى يده ولما وصل إلى شاطئ الخليج العربى غسل أسلحته فى مياه البحر وفقا لتقليد دينى استمر معمولا به حتى آخر أيام الإمبراطورية البابلية وفى طريق عودته أكمل فتح سومر بالاستيلاء على أوما وهدم أسوارها.

وما لبث سرجون الأكدى أن وحد فعليا لأول مرة السلطة السياسية على ما بين النهرين فى يد واحدة، ووجد هذا الحدث انعكاساً فوريّاً على اللقب الملكى، وتكنّى سرجون بالتسمية الفاخرة "حاكم جهات الدنيا الأربع" التى لم تكن تطلق فى السابق إلا على بعض الآلهة، مع العلم أن "النومات" - المدينة الدولة - حافظت فى عهد سرجون أيضا على بنيتها الداخلية السابقة، ولكن عدداً من "الاينسى" - قائد الشعب - و"اللوكالات" - الحاكم - تحولوا عمليّاً إلى موظفين مسئولين أمام الملك شخصيّاً.

وبذلك كان سرجون المنشئ الأول للإمبراطورية فى بلاد ما بين النهرين ومعه أقيم نظام ملكى حقيقى ومع ذلك لم يزل الأمراء من أبناء البلاد . وفى سومر عرف الباتسيون (الملوك) انفسهم أتباعاً له ودفعوا له مكوس الحبوب والبقر والخيول والغنم والخنازير والذهب والفضة والملح والسمك المجفف.

وتوفرت لدولته الموحدة منذ ذلك الحين إمكانيات بشرية وموارد مادية ضخمة لم تتهيأ لدويلات المدن السومرية أو السامية القديمة قبل عهده، كما توفرت لها السيطرة على شرايين التجارة الرئيسية فى معظم بلاد النهرين.

ويذكر سرجون الأكدى، بأنه ملك العدل الذى ينطق بالحق، إشارة إلى اهتمامه بنشر العدل فى المجتمع.

وبقى لسرجون أمله الآخر، وهو السيطرة على ما يستطيع السيطرة عليه فيما وراء حدود بلاده، فوجه جيوشه إلى التخوم الغربية لدولته، وبدأ بالمنطقة المحيطة بدويلة مارى "وجعل فمها واحداً" أى وحد كلمتها أو وحد حكمها تحت سلطانه، ثم وجه جيوشه إلى الحدود الغربية لدولة عيلام، حيث حالفها النصر، فترتب

على ذلك أن وقفت عيلام كما وقفت مارى موقف الطاعة منه على حد رواية نصوصه، وأصبح لدولته بعض الإشراف على المناطق التجارية المتصلة بالخليج العربى والقريبة منه، مثل جزيرة دلمون (جزيرة البحرين) وماجان التى يحتمل أنها كانت تشغل ما تشغله عمان الحالية، وملوخا التى يحتمل وقوعها بين المنطقتين السابقتين.

وكانت ثلاثتها من البلاد البحرية والساحلية ذات الخبرة بالملاحة وصناعة السفن، فسارت سفنها على مياه أكد، على حد قوله، أو بمعنى آخر سارت السفن المصنوعة من أخشاب وبأيدى رجالها فى الفرات حتى جاوزت عاصمة أكد.

ويرى العالم الأثرى الأمريكى "جيمس هنرى برستد" أن هناك قولاً يقول بأنه أرسل سفنا لإخضاع قبرص وربما حدث صدام بين أسطوله وبين السفن المصرية التى كانت تجوب مياه ذلك البحر، وترسو من آن لآخر فى موانئ المدن الفينيقية، وليس مستحيلاً أن تقود الصدفة فى يوم من الأيام إلى اكتشاف بعض الرُّقُم التى كان يتبادلها ملك بلاد الفرات فى ذلك الوقت مع ملك وادى النيل الذى كان يعيش فى قصره الفخم فى منف.

وأضافت نصوص سرجون - إن حقّاً وإن إدعاءً - أن سلطانه امتد حتى غابة الأرز وجبل الفضة، وقد يعنى هذا بلوغه منطقة أمانوس المنتجة للأخشاب والفضة (إن لم يعن منطقتى لبنان وطوروس) وذكرت أنه خاض أربعاً وثلاثين معركة وانتصر فيها، ثم نسبت إليه نصوص خلفائه أنه غزا جانيش فى كبادوكيا بآسيا الصغرى انتصارا لجالية أكدية كانت تتعامل فيها فى الصوف والفضة وتعرضت لاضطهاد أحد الحكام المحليين فيها "نورواجان" ملك بورساهاندا.

فأخذ سرجون بثأرها، وهاجمتها جيوشه، وقيل إن رجاله أرسلوا منها فصائل جديدة من التين والكروم والأزهار إلى بساتين عاصمته.

وتذكرنا نجدة سرجون من أكد لمواطنيه فى آسيا الصغرى بنجده المعتصم فى بغداد المجاورة لها للمرأة التى استنجدت به فى عمورية بآسيا الصغرى - مع الفارق الزمنى الكبير بينهما.

وقد تركت فتوحات سرجون العظيمة ذكرى لم يقو الزمان على محوها.

فقد ذكر الأستاذ "برى" : أن الملك سرجون وذريته من بعده أول جماعة مقاتلة حاكمة عرفها التاريخ.

ذاعت شهرة سرجون إلى العالم القديم، وذكرت نصوصه أن أهل بلاطه سكنوا فيما لا يقل عن خمسة أميال مربعة حول قصره وكان بلاطه فخما وهو يصف أحيانا فى تفصيل عدد الأمراء الموجودين فى حضرته كما يذكر أحيانا أخرى أن حراس قصره بلغوا ٥٤٠٠ رجل كانوا ياكلون يوميا من أسمطته أمامه.

وفى عهد سرجون الذى حتمت جميع فتوحاته أسبابا اقتصادية جرت بلاد أكد نهائيا إلى حركة التجارة الدولية للمدن السومرية وأصبحت أكاديا مدينة بحرية تتصل فيها سفن الخليج العربى بالقوافل العائدة من الداخل ومع التجارة استقر فى أكد الآلهة واللغة وملاحم سومر الدينية التى تعين أن تنتقل من أكاديا إلى بابل وفى الوقت نفسه انتصر القانون السومرى الذى تغلغل مع التجارة فى كل مكان.

واختلط الشعبان السامى والسومرى والفن السومرى الذى أدرك أَوُجَّهُ منذ خمسة قرون والذى قد بدأ يجمد واستعاد بالمساهمة السامية حياة جديدة أعادت له معنى الحركة والتصوير.

وليس من شك فى أن عهد سرجون الأكدى يعتبر نقطة تحول رئيسية فى تاريخ ما بين النهرين لأكثر من سبب واحد فهو كما رأينا كان أول من عمل على توحيد أغلبها تحت زعامة سياسية واحدة بينما لم تزد آمال سابقية الأقربين على توحيد أرض سومر وحدها وهو أول من ثبت دعائم أسرة عربية حاكمة قوية استمرت تعتلى العرش نحوا من قرن ونصف قرن ويغلب على الظن أنه حدثت فى عهده محاولة من أقدم المحاولات لتقريب أسماء الشهور فى المدن العراقية من بعضها البعض تمهيدا لتوحيد التقاويم فيها وإن لم يقدر لهذه المحاولة استمرار طويل ولا يقل عن ذلك كله أهمية أنه وبعض خلفائه الأقربين كانوا أول من حققوا

لبلاد النهرين نفوذا خارجيا سيطرت به على بعض ما يجاوز حدودها من مناطق وجماعات.

وحسب ذلك إثباتا وتأكيدا لعظمة هذا العصر الرائد وعلو شأنه ورفع مقامه فى تاريخ البشرية جمعاء وما شئنا هذا التأليف من أصل ومنقول إلا للإعراب عن تقديرنا له وعميق احترامنا لجلائل مآتيه.

ومع ذلك كله انتهت حياة سرجون السياسية على غير ما توقعه لنفسه فشبت ضده ثورات عدة وأيدت هذه الثورات جماهير سهل سوبارتو وبلغ من عنف الثوار أن حاصروا عاصمته ولكنه قاومهم بجيشه وشتت شملهم ثم انتقم من مدنهم وعندما ابتغت نصوص خلفائه أن تجد تفسيرا للمتاعب التى واجهها فى خواتيم عمره ردتها إلى انتقام إلهى وذكرت أنه كان قد نكل بمدينة بابل مدينة الرب مردوك فى ثورة غضبه وأزال أساساتها الموسومة باسمه ثم أعاد بناءها على هواه، فغضب مردوك عليه وابتلى قومه بالمجاعة وفرق شملهم من حوله وقضى عليه بعدم الراحة فى قبره.

ولا يعنينا من هذا التفسير الدينى إلا اعتباره صورة من تخيلات الشعوب القديمة عن أسباب زوال الدول، وبخاصة أن عبادة مردوك لم يكن لها شأن كبير فى أيامه، وأن نصوص سرجون صورته حريصا على التقرب من أربابه واعتبرته رئيس كهنة عشتار، والكاهن المنتخب للإله آنو ملك الأرض، والإنسى العظيم لإنليل، وذكرت أنه ركع ذات مرة فى صلاته أمام المعبود داجان، كما نصب ابنته كاهنة لإله القمر ننار فى أور.

بيد أن الدولة الكبرى، التى أسسها حكام السلالة الأكدية، لم تعش سوى أمد قصير جداً بحكم تقلقلها وتفتتها الداخلين، فقد انهارت فى مستهل القرن الثانى والعشرين ق.م تمزقها التناقضات الداخلية، فأصبح ما بين النهرين مجددا على امتداد عقود كثيرة مسرحاً لصراع ضار على السلطة بين حكام أقوى "نومات" سومر وأكد.

ومن الجدير بالذكر أنه حينما لمعت فى أفق تاريخ ما بين النهرين نجوم

ساطعة لدول قوية جديدة، استفاد حكامها الرهيبيون استفادة كاملة فى ممارستهم من التقاليد السياسية السومرية والمنجزات السومرية، لولا الطريق الطويل والوعر الذى اجتازه فى "معارج الحضارة.. لوكالات واينسى.. النومات" السومرية الصغيرة والمتواضعة لما كانت العظمة الباهرة لإمبراطورية سرجون الأكدى، ولدولة حمورابى البابليه والإمبراطورية الآشورية الجديدة لآشور ناصر بال الثانى.

إن انتصارات السومريين العسكرية، والفن والمهارة اللذيّن نهضا بهما إلى ذلك المستوى الرفيع، وتنظيمهم الاجتماعى ومفاهيمهم عن الخلق وحتى عن الدين مارست تأثيرا جبارا فى كل العملية اللاحقة من تطور الثقافة البشرية.

يكتب "ليونارد وولى" : "إن حضارتهم، التى ومضت فى عالم لا يزال غارقا فى الهمجية البدائية، كانت أول حضارة فعلاً".

د. عبد الكريم العلوجى

1

الفصل الأول

السومريون والأكديون

الفصل الأول

السومريون والأكديون

□□

السومريون :

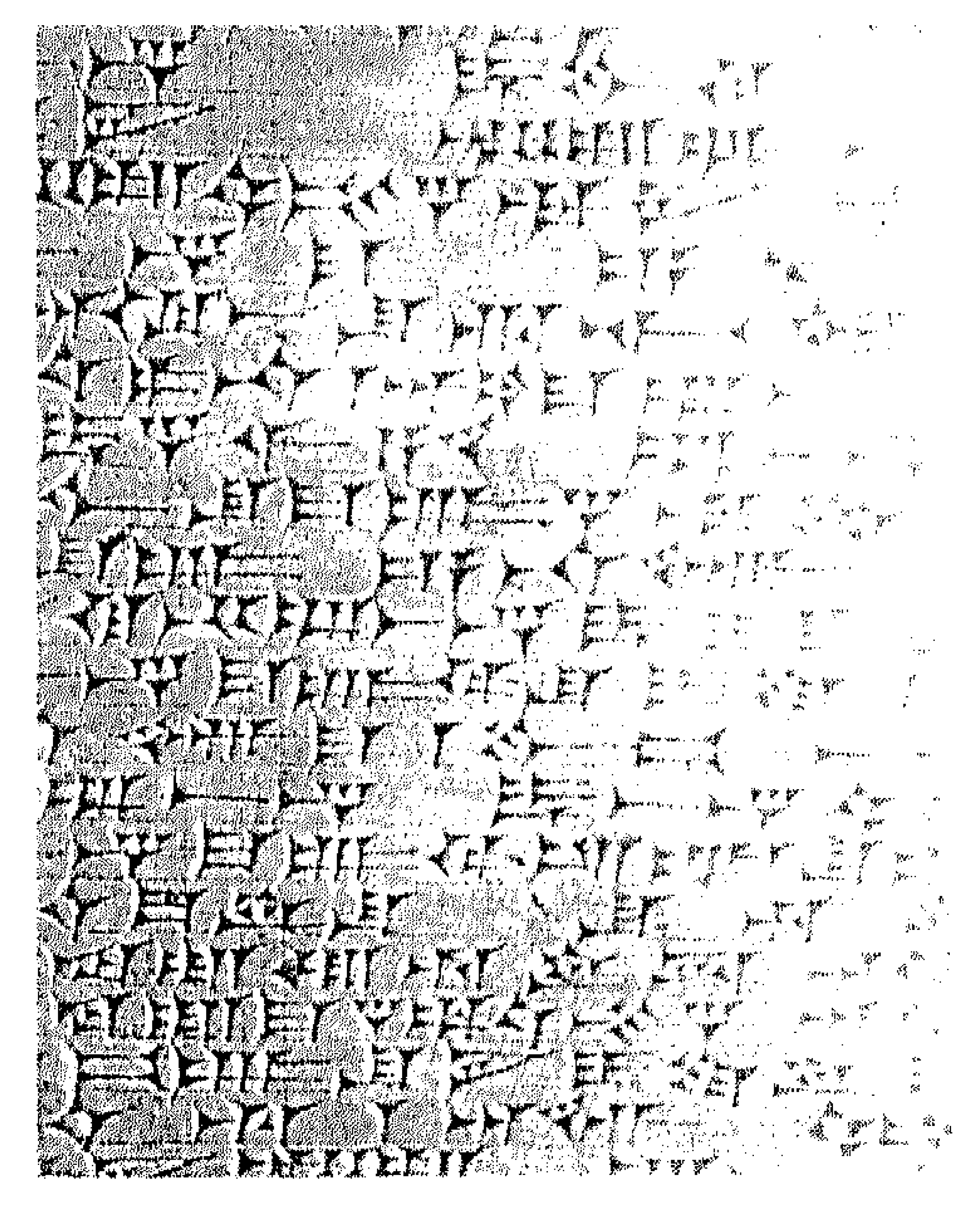
يُعَدُّ السومريون فى تاريخ بلاد وادي الرافدين من أقدم الشعوب العريقة التى استطاعت وضع لبنات الحضارة الأولى فى القسم الجنوبي من العراق القديم الذى عرف ببلاد سومر (يكتب بالعلامات المسمارية الثلاث Ki. EN. Gi) ولا يزال شأن السومريين ودورهم فى التاريخ القديم يعظم باستمرار كلما استجدت مكتشفات أثرية واستظهرت نصوص سومرية جديدة لتسلط الأضواء مرة بعد أخرى على جوانب مشرقة من منجزاتهم الحضارية ودورهم فى إغناء الشعوب بالمعرفة فى مختلف جوانب الحياة اليومية، وإذا قدر للآشوريين والبابليين وغيرهم من الشعوب القديمة الأخرى أن يبقى ذكرهم موجودا فى بطون الأسفار فإن اسم السومريين انمحى من ذاكرة التاريخ وعفا عليه الدهر وبقى هكذا فى طيات النسيان ما يقرب من ألفين وخمسمائة عام بعد سقوط بابل فى سنة ٥٣٩ قبل الميلاد.

ويقودنا بالضرورة الى منتصف القرن الماضي الذى شهد جهودا مكثفة ومثمرة لحل رموز الكتابة المسمارية إذ توصل عدد من العلماء فى أول الأمر الى قراءة النصوص المسمارية المدونة باللغة الآشورية، وقد أجرى لأربعة منهم ما يشبه الاختبار عندما أعطي كل واحد منهم نص للملك الآشوري (تجلاتبلسر الأول ق.م)، فكانت تراجمهم للنص متقاربة فأقرت المحافل العلمية ميلاد علم جديد عرف بالآشوريات (Assyiology).

ولكن سرعان ما لاحظ العلماء المختصون بالموضوع أن هناك مجاميع أخرى

من رقم الطين مكتوبة بالخط المسماري لكنها مدونة بلغة تختلف تماما عن اللغة الآشورية التى كان بعض العلماء قد توصل إلى حل رموزها وهنا برزت فرضية لابد منها وهى أن هناك أقواما آخرين سكنوا بلاد وادى الرافدين إضافة الى الآشوريين وأن هذه اللغة المجهولة تعود إلى أحد أولئك الأقوام، وقدمت فى حينه عدة فرضيات بخصوص هوية القوم الذين تعود إليهم هذه اللغة، فمنهم من عزاها إلى السيثيين وهى الأقوام التى كانت تستوطن المناطق الشمالية من البحر الأسود، وهناك من قال بأنها تعود إلى الأكديين.

وأخيرا فى عام ١٨٦٩ أفترض أحد العلماء المعنيين بالكتابات المسمارية أنه ينبغى نسبة تلك النصوص المسمارية الجديدة إلى قوم يعرفون بالسومريين، وكان سنده فى ذلك لقب استخدمه ملوك وادي الرافدين وهو "ملك سومر وأكد"(Lugal Ki - en - gi - uri) والذى ترجمه الأكديون إلى لغتهم (Shar mat shumeri u Akkad)، إذ افترض هذا العالم واسمه أوبرت (Oppert) فى عام ١٨٦٩ أن المقصود بكلمة "أكد" فى لقب "ملك سومر وأكد" تلك الأقوام التى كانت تتكلم لغة جزرية (سامية) سواء أكانوا من الآشوريين أم البابليين أم الأكديين، فى حين تدل كلمة سومر فى اللقب ذاته على أولئك القوم الذين تعود اليهم النصوص المدونة باللغة غير الجزرية (غير السامية).



وهكذا ولد اسم السومريين من جديد بعد أن طواه النسيان أزمانا طويلة، وبعد سنوات قليلة من هذا التاريخ أميط اللثام عن الوجه المشرق للحضارة السومرية بفضل المكتشفات الأثرية وخاصة فى اثنتين من كبريات المدن المندثرة فى جنوبي القطر، أولاهما (تلو) التى ثبت من البحوث الحديثة أنها كانت مدينة كرسو

(Girsu) السومرية، وثانيهما مدينة نفر (Nibru) التى كانت واحدة من أشهر المراكز الثقافية والدينية فى تاريخ الحضارة السومرية، ويكفي أن نسوق مثالا واحدا على أهمية تلك الحفريات فى البحث عن الأصول السومرية، أنه تم الكشف فى مدينة نفر خلال المواسم الأربعة الأولى من التنقيب (١٨٨١ –١٩٠٠) عما لا يقل عن ٣٠ الف رقيم طيني مدونة بشتى صنوف المعرفة وهى تعود إلى أزمان تمتد من منتصف الألف الثالث وحتى القرون المتأخرة من الألف الأول قبل الميلاد، ثم توالت التنقيبات فى مدن سومرية أخرى فى جنوبي القطر مثل شروباك (تعرف حاليا باسم فارة) وأدب (بسمايا) وكيش (تل الأحيمر) والوركاء وأور... مما عَرَّف الباحثين بالمنجزات الحضارية العظيمة للسومريين فى مختلف المجالات كالعلوم والمعارف والفنون والعمارة.

ترى من هم أولئك السومريون؟ هل أنهم كانوا من سكان البلاد الأصليين الذين رأينا أسلافهم يقيمون أقدم القرى الزراعية فى شمال القطر والتى تمثلت فى أدوار عصور ما قبل التاريخ، مثل جرمو وحسونة وحلف وسامراء، وأنهم نزحوا الى جنوب القطر بعد أن توفرت لهم أسباب العيش هناك؟ أو أنهم جاءوا من بلد آخر؟.

من المعروف أن القسم الجنوبي من العراق كان فى بداية العصور التاريخية موطنا للسومريين الذين سكنوا المنطقة الممتدة من حدود مدينة نفر الى أقصى الأراضى الجنوبية من وادي الرافدين وقد عرفت هذه المنطقة فى العصور التاريخية ببلاد سومر، وكان يجاورهم إلى الشمال من هذه المنطقة مباشرة الأكديون الذين هم من القبائل الجزرية التى نزحت من جزيرة العرب واستوطنت العراق فى وقت مبكر جدا، والحقيقة هى أن مقياس التمييز بين السومريين والأكديين وغيرهم من الأقوام الأخرى التى كانت تقطن القسم الجنوبي من وادى الرافدين لا يمكن أن يكون عرقيا بل لغويا، ذلك لأن الدراسات الأنثروبولوجية لبقايا الهياكل العظمية التى عثر عليها فى المقابر السومرية تشير إلى عدم وجود ما يمكن تسميته بالعرق السومري وإنما هناك خليط يتمثل ببشر ذوى رؤوس طويلة وهو ما يعرف بعرق البحر المتوسط، وبشر ذوى رؤوس مدورة وهو السائد

فى أوربا الوسطى وبلاد أرمينية، ولقد أثبتت المكتشفات الأثرية فى المدن السومرية المختلفة أن هذه الأقوام من سومريين وأكديين مارست جميعا أنظمة سياسية وأعرافا وعادات اجتماعية متشابهة وكان لها أيضا نفس المعتقدات والطقوس الدينية والاتجاهات الفنية، وبتعبير آخر فإنهم جميعا كانوا جزءا من حضارة واحدة نشأت وازدهرت فى القسم الجنوبي من وادي الرافدين والتى تعرف اليوم بالحضارة السومرية.

ولهذا السبب فنحن نقصد بكلمة "سومريين" القوم الذين كانوا يتكلمون اللغة السومرية ونقصد بـ "أكدي" تلك القبائل التى كانت تتكلم اللغة الجزرية (نسبة إلى جزيرة العرب)، والتى كان موطنها الأصلي جزيرة العرب.

من المعروف أن اللغة يمكن أن تكون فى كثير من الأحيان مؤشراً مفيداً عند البحث فى أصل الأقوام، فنذكر على سبيل المثال أن عائلة اللغات الجزرية كان موطنها الأصلى فى جزيرة العرب، ولذلك فإن الأقوام التى تتحدث بلغات أو لهجات جزرية لابد وأنها كانت موجودة بالأصل فى منطقة الجزيرة، وبالمثل فإن الأغريق والحثيين وأقوام هندو - آرية عديدة ينسب بعضهم إلى البعض الآخر من خلال (عائلة) اللغات الهندية - الأوربية التى كانوا يتكلمونها ومن المحتمل أنهم جاءوا من موطن مشترك لهم فى جنوب شرقي أوربا على الرغم من أنهم انتشروا فى منطقة جغرافية واسعة.

ولكن لسوء الحظ كان هذا العامل اللغوي غير ذى جدوي عند البحث فى أصل السومريين، فالمعروف أن اللغة السومرية تعتبر لغة منفردة لا يمكن أرجاعها إلى عائلة لغوية حية أو مندثرة، وهى أيضاً ملصقة أي أن الجملة الفعلية فيها تتكون من عدة عناصر بعضها ملصق بالبعض الآخر، فهناك أداة الجملة الفعلية التى تكون عادة فى المقدمة ثم جذر الفعل الذى يسبقه أو يلحقه ضمير الفاعل وهناك أيضاً أدوات أخرى للدلالة على زمان ومكان حدوث الفعل، وبتعبير آخر فإن الجملة الفعلية عبارة عن كلمة مركبة من عدة مقاطع، أما الاسم فتلصق به أجزاء عديدة مثل ضمائر الملكية وأدوات الإضافة وحروف الجر والأداة الدالة على الفاعل عندما يكون الفعل متعديا، مما يتسبب فى ظهور تغييرات صوتية

نتيجة لهذا الإلصاق، وعلى الرغم من أن الإلصاق صفة لغوية معروفة فى عدد من اللغات القديمة كالعيلامية مثلا، والحديثة كالتركية والمجرية وبعض اللغات القوقازية كالجورجية، فإن اللغة السومرية ليس لها ما يشابهها من حيث المفردات والقواعد والنحو فى أية لغة أخرى.

لذلك ولأسباب أخرى يقى أصل السومريين مشكلة مثيرة للجدل لم تستطع حلها الدراسات اللغوية أو الأنثروبولوجية أو الآثارية، ولذلك أيضاً اختلف العلماء فى أصلهم، فهناك من الباحثين من قال على أساس العناصر الحضارية الجديدة التى تقترن عادة بوجود السومريين والتى ظهرت فى عصر الوركاء (كالأختام الأسطوانية، والنحت، ودولاب الفخار، والكتابة) أن السومريين ربما جاءوا إلى جنوب وادي الرافدين فى العصر السابق للوركاء أى فى عصر العبيد، ويفترض بعض الذين يقولون بمجيء السومريين من بلد آخر أنهم ربما جاءوا عن طريق البحر وأنهم سكنوا أول الأمر فى "دلمون" (البحرين) التى تحتل حيزا مهما فى التراث السومري وأنهم من بعد ذلك نزحوا شمالا باتجاه القسم الجنوبي من وادي الرافدين الذي عرف فيما بعد بلاد سومر، ومن الباحثين من قال إن السومريين ربما نزحوا بالأصل من مناطق حوض وادي السند الذي ازدهرت فيه حضارة "هريا وموهنجدارو" وأنهم جاءوا عبر إيران والخليج العربى إلى القسم الجنوبي من العراق ويعتمد هؤلاء فى فرضيتهم على قطع فنية عثر عليها فى مواقع من جنوب العراق يعود تاريخها إلى حدود ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وتدل صناعتها ومادتها على أنها جاءت من حوض وادى السند، ومن الطبيعى أن يقول هؤلاء بأن علاقة سومر بوادي السند ينبغى أن تعود إلى عصر أقدم من ذلك التاريخ، ربما على عصر الوركاء الذي يتفق عليه بأنه البداية المشرقة للحضارة السومرية، وقد اتخذ بعض الباحثين من الزقورة - باعتبارها ظاهرة معمارية سومرية معروفة - دليلا على طبيعة البيئة التى جاء منها السومريون وهى بيئة يفترض أن تكون جبلية ومرتفعة كالزقورة، ويرشح هؤلاء أن تكون المناطق الجبلية الشرقية لإيران موطنا لهم قبل أن ينحدروا إلى جنوبي وادي الرافدين.

إن هذه الآراء وغيرها مما قيل بخصوص أصل السومريين بقيت فى نطاق التخمين والافتراض ولم يحظ أى منها فى يوم من الأيام بقبول الأغلبية من علماء الآثار، وفى اعتقادنا أنه ليس هناك ما يبرر الافتراض القائل بهجرة السومريين من بلد آخر إلى جنوب وادي الرافدين، صحيح أن هناك خصائص أو عناصر مميزة للحضارة السومرية لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تلك العناصر جاء بها السومريون معهم من خارج القطر والشىء المنطقى هو أن نفترض بأن هذه العناصر المميزة للحضارة السومرية التى نشاهدها فى عصر الوركاء (٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ق.م) عبارة عن نتيجة وامتداد طبيعيين لمدنيات عصور ما قبل التاريخ الأخرى التى سبقت هذا العصر مثل حسونة وسامراء وحلف فى شمال القطر والعبيد فى الجنوب وبتعبير آخر أننا نرى فى السومريين امتدادا لأقوام عصور ما قبل التاريخ فى وادى الرافدين وأنهم انحدروا من شمال القطر إلى الجنوب واستوطنوا فى منطقة كانت على الأرجح تعرف باسم سومر والتى عرف السومريون باسمها فى العصور التاريخية اللاحقة.

السلالات السومرية:

يعتبر اختراع الكتابة فى حدود ٣٠٠٠ قبل الميلاد بداية لما يعرف بالعصور التاريخية، حيث ابتدأ الإنسان، وبالتدريج، باستخدام الكتابة لتدوين شئون حياته اليومية أى جوانب من تاريخه، فى حين لم تكن تتوفر لديه مثل هذه الوسيلة فى العصور السابقة (عصور ما قبل التاريخ) .

وتعرف الحقبة الزمنية الممتدة من ٢٨٥٠ وحتى ٢٤٠٠ قبل الميلاد بعصور فجر السلالات التى تتميز بظهور أولى السلالات السومرية التى شكلت أنظمة سياسية تعرف بين المختصين بدويلات المدن السومرية (City - States) ومن أهم معلوماتنا عن هذه الحقبة من الزمن هى الكتابات التى تركها لنا أمراء هذه السلالات، إضافة إلى جداول أو إثبات الملوك السومريين وعدد من النصوص الأدبية التى تتحدث عن مآثر بعض ملوك وأمراء هذا العصر.

تذكر جداول الملوك السومرية أن "الملوكية" نزلت لأول مرة من السماء فى مدينة أريدو (بالقرب من أور) ثم جاء الطوفان العظيم الذى اكتسح الأرض ومن

عليها باستثناء رجل الطوفان زيوسدرا (فى النص السومري) وأتنابشتم (فى النص البابلي).

وجدير بالذكر أن إثبات الملوك هذه أعطت رقما خياليا للملوك الثمانية الذين قالت عنهم إنهم حكموا قبل الطوفان إذ خصص لهم ٢٤١٢٠٠ سنة، وأغلب الظن أن مثل هذا الرقم الخيالي أنما يعكس فكرة شائعة عند أكثر الأمم القديمة وهى أن الإنسان كان "في قديم الزمان" يتمتع بعمر طويل وصفات جسدية خارقة، ومن غير المستبعد أيضاً أن جامع الإثبات السومرية لم يكن فى حوزته غير أسماء ثمانية ملوك من قبل الطوفان فاضطر إلى تطويل سنوات حكم كل منهم ليغطي الحقبة الزمنية التى تصورها واسعة جدا والتى تفصل بين ظهور أول سلالة حاكمة وبين حدوث الطوفان، وجدير بالملاحظة أيضاً أن ما تذكره جداول الملوك السومرية من أن مصدر الحكم والملوكية كان أصلا فى السماء يدل ضمنا على أن الآلهة بموجب معتقدات السومريين كانت هى التى تحكم البشر وأنها تفوض أو تنسب من بينهم من يمارس هذه السلطة على الأرض وهم الحكام والملوك الدنيويون.

وتذكر أثبات الملوك السومرية أنه بعد أن انتهى الطوفان نزلت الملوكية ثانية فى مدينة كيش (تل الأحيمر) بالقرب من بابل ، ولقد كان لمدينة كيش دور سياسي بارز فى عصر فجر السلالات إذ يرجع أن ملوك هذه السلالة نجحوا فى تحقيق الوحدة الداخلية للقطر فى هذا العصر المبكر من تاريخ البلاد (٢٨٠٠ ق.م) وبالإضافة إلى ذلك فإن عددا من أسماء الملوك الذين حكموا فى هذه السلالة كانوا يحملون أسماء جزرية مثل (كلبم - كلب، قلومهم - حمل - زقاقيم - عقرب) . مما يدل على أن زمن استيطان القبائل الجزرية فى بلاد وادي الرافدين يرجع إلى أزمان قديمة تسبق قيام السلالة الأكدية على يد سرجون بقرون عديدة، وبقيت مدينة كيش تتمتع بشهرة واسعة فى العصور التاريخية اللاحقة حتى إن بعض الملوك السومريين لقبوا أنفسهم بلقب "ملك كيش" على الرغم من أنهم لم يكونوا من ملوك هذه السلالة، وتذكر قائمة الملوك السومرية ملاحظة طريفة عن الملك الثالث عشر فى سلالة كيش وهو أيتنا مفادها أنه كان

راعيا وأنه صعد إلى السماء! ووطد جميع البلاد، وجدير بالذكر أن هناك أسطورة بابلية عن هذا الملك السومري تروي كيف أنه صعد إلى السماء على ظهر نسر من أجل أن يحصل على نبات النسل لأنه كان عقيما.

ومن السلالات السومرية الشهيرة فى هذا العصر سلالة الوركاء الأولى التى أشتهرت بملكها الخامس كلكامش (فى حدود ٢٧٠٠ ق.م) الذي خلدت مآثره فى عدة قصص بطولية سومرية وفى ملحمة بابلية طويلة تتألف من اثنى عشر رقيما، وتعتبر ملحمة كلكامش بحق من أشهر التآليف الأدبية فى تاريخ الحضارات القديمة حتى إن شهرتها وصلت أرجاء واسعة من العالم القديم، وتنتهى هذه الملحمة الشعرية، التى تحتوي على تفاصيل شيقة عن مغامرات البطل كلكامش ورفيقه (انكيدو) إلى أن الإنسان إذا تعذر خلوده جسديا بسبب الموت الذى لا مفر له منه، فإنه بالإمكان أن يخلد اسمه وتبقى ذكراه عن طريق أعماله ومآثره.

وهناك سلالة سومرية أخرى حكمت فى حدود ٢٦٥٠ ق.م وهي سلالة أور الأولى التي لم تقتصر أخبارها على أسماء الملوك المدونة فى الأثبات السومرية فحسب بل وصلتنا كتابات أثرية من بعض ملوكها، وقد كشفت التنقيبات فى مدينة أور ابتداء من سنة ١٩٢٧ وما بعدها عن مقابر غنية عرفت بين المختصين بالمقابر الملكية فى أور والتى تحتوي ضمن أشياء كثيرة أخرى على آثار ذهبية وفضية تتمثل فى الأقداح والخناجر والخوذ والقلائد والدبابيس وتماثيل بعضها مصنوع من الذهب الخالص وبعضها من الفضة والأحجار الكريمة كما عثر على قيثارات أشهرها تلك التى كان لها بالأصل أحد عشر وترا وعلى شعار مدينة أور الذى يصور مشهدا لمعركة يشترك فيها المشاة والعربات، وآخر يصور الاحتفال بتحقيق النصر على الأعداء من خلال مشاهد توزيع الشراب وعزف الموسيقى.

وشهد الجزء الأخير من عصر فجر السلالات (في حدود ٢٥٥٠ ق.م) قيام سلالتين متنافستين هما لكش وأوما، وقد وصلتنا كتابات تاريخية عديدة من أمراء سلالة لكش تبين الصراع الطويل الذى جرى بين هاتين السلالتين حول الحدود ومياه الإرواء والأراضي الزراعية، وكانت نهاية ذلك الصراع أن استطاع

أحد ملوك سلالة أوما وأسمه لوكال زاكيزى القضاء على سلالة لكش في زمن آخر ملوكها أورو أنيمكينا (الذى كان يقرأ اسمه إلى وقت قريب أورو كاجينا) ويظهر من سير الأحداث أن لوكال زاكيزي استطاع أن يمد نفوذه إلى خارج بلاد سومر فهو يذكر في كتاباته أنه وصل "من البحر السفلي إلى البحر العلوي" أي من الخليج العربي جنوبا إلى البحر المتوسط شمالا، كما أنه لقب نفسه بلقب "ملك سومر" دلالة على إنجازه الوحدة السياسية للبلاد، ولم يلبث أن جاء عصر لوكال زاكيزي بدوره إلى نهايته بعد حكم دام تسعة وعشرين عاما (٢٤٠٠ لاق.م) على يد قائد الجزريين المعروف سرجون الأكدي .

الأكاديون :

الأكاديون أو الأكديون هم من أقدم الاقوام السامية التي استقرت في الرافدين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد ، وفدوا على شكل قبائل رحل بدو من الجزيرة العربية إلى العراق وسوريا وجنوب شرقي تركيا وشمال غربي إيران (الأحواز) ويعتقد أنهم من العرب القدماء.

عاش الأكاديون منذ القدم في الجزيرة العربية ثم هاجروا شمالا وعاشوا مع السومريين.وآلت إليهم السلطة في نحو (٢٣٥٠ ق.م) بقيادة زعيمهم سرجون العظيم واستطاع سرجون العظيم احتلال بلاد سومر وفرض سيادته على جميع مدنها وجعل مدينة أكد عاصمته. ثم بسط نفوذه على بلاد بابل وشمال بلاد مابين النهرين وعيلام وسوريا وأجزاء من الأناضول وامتد إلى الخليج العربي، حتى دانت له كل المنطقة. وبذلك أسس أول إمبراطورية معروفة في التاريخ بعد الطوفان.

شهد العراق في عصرهم انتعاشاً اقتصادياً كبيراً بسبب توسع العلاقات التجارية خاصة مع منطقة الخليج العربي. كما انتظمت طرق القوافل وكان أهمها طريق مدينة أكاد العاصمة بوسط العراق الذي يصلها بمناجم النحاس في بلاد الأناضول، وكان النحاس له أهميته في صناعة الأدوات والمعدات الحربية.

الدولة الأكدية (٢٣٥٠ إلى ٢١٣٠ ق.م):

أسس القائد الأكدي سرجون الأول الدولة الأكادية على أنقاض مملكة سومر، ويرجع أصل الأكاديين إلى العرب القدماء المهاجرين من جزيرة العرب

وامتدت دولة الأكاديين لتشمل كل منطقة الهلال الخصيب تقريبا وبلاد العيلاميين وسوريا وبعض الأناضول. وتقبل الأشوريون الحضارة الأكادية لقربها منهم من ناحية الأصول العربية. وقد اشتهر الأكاديون بصناعة البرونز. وفي سنة ٢١٣٠ قبل الميلاد سقطت الدولة الأكادية إثر غارات الغوتيين والقبائل الجبلية .

قصة سرجون:

ويعرف كذلك باسم شاروكين. ملك فاتح (٢٣٣٤ - ٢٢٧٩ ق.م)، مؤسّس السُّلالة الأكاديّة. تقول الأسطورة التي وضعت في وقت لاحق إنّ ولادته جرت سرّاً وأنّه وضع في سلّة مدهونة بالقار على نهر الفرات وانتشله متولّي شؤون الرّيّ الإله أكي ملك كيش الذي انتشله من بين القصب وربّاه كابن له. فلم يعرف أباه. ولمّا شبّ استخدمه أكي كبستاني وساقٍ. وفي هذه الأثناء أحبّته الإلهة عشتار.

وتقول رواية اخرى إنّه كان في نشأته بستانيّاً ثم عمل بصفة ساقٍ لدى ملك كيش "أورزبابا".

انتصر سرجون على لوكال زاكيري المذكور، واقتاده مكبّلاً بالأغلال أمام انليل إله سومر لكي يوافق هذا الإله على خلع الملك القديم ومنح سرجون لقب إيشاكو.

و من ثَمّ سحق قوات أور وهدم أسوارها واستولى على لكش، ووصل إلى الخليج العربي. وأكمل في طريق عودته فتح بلاد سومر فاستولى على

أوما ودمّر أسوارها. وأصبح سيّد المنطقة من البحر الأعلى (الخليج العربي) إذ امتدّت سلطته غرباً على مدينة ماري وايبلا وغابة الأرز وجبال الفضّة (طوروس).

بنى سرجون مدينة أغادةه، أو أعاد بناءها، وجعل منها عاصمة له، إلا أنّ موقع هذه المدينة لم يجر تحديده بعد.

حدثت في آخر أيّامه فتنة عامّة وقد عاونت "سوبارتو" الثّوّار فهزمت. وشاركت بابل في الثّورة وهُزمت كذلك. وتجدر الملاحظة هنا أنَّ اسم بابل ذكر في هذه المناسبة لأوّل مرة في التّاريخ ،حكم بعد وفاة سرجون أبناء رموش ومنيشتوسو تباعاً.

قصة موسى:

موسى اسم مصري (موشي). ينسب كتاب العهد القديم موسى إلى سبط لاوي. ويقول الكتاب المذكور إنّ أمّ موسى ولدته بعد صدور أمر الفرعون بقتل جميع مواليد اليهود الذّكور. وقد أخفته مدّة ثلاثة أشهر ثمّ وضعته في سفط من البردي ووضعت السّفط بين الحَلْفَاء على حافّة النّهر حيث عثرت عليه ابنة الفرعون، واهتمّت بتربيته وتبنّته. وكانت أخته قد وقفت من بعيد لتعلم ما يحدث لأخيها. ولما نزلت ابنة الفرعون إلى النّيل لتغتسل وكانت وصيفاتها يتمشين على شاطىء النّهر (النّيل) رأت السّلّة بين القصب فأرسلت خادمتها وأخذتها وفتحتها وأخذت الولد، فإذا هو صبي يبكي.

أشفقت عليه ابنة فرعون وقالت: هذا من أولاد العبرانيّين. حينئذٍ تدخّلت أخته وقالت لابنة فرعون: أأذهب وأدعو لك مرضعاً من العبرانيّات وترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة الفرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أمّ الولد. فقالت لها ابنة فرعون: خذيه وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك، فأخذت الولد وأرضعته. ولّما كبر الولد جاءت به ابنة فرعون، فأصبح لها ابناً وسمّته موسى وقالت: لأني انتشلته من الماء. ولما كبر موسى، حدث يوماً أن شاهد رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانيّاً فعمد موسى إلى قتل المصري. وانتشر الخبر فهرب موسى إلى أرض

مديان في صحراء سيناء وأقام في خيام يثرون كاهن مديان وتزوّج ابنته صفورة. تمكّن موسى بمساعدة أخيه هارون من التّغلّب على ممانعة الفرعون بمغادرة العبرانيّين بعد أن سلّط على مصر "الضّربات العشر"، وغادر العبرانيّون مصر.

قاد موسى شعبه في المرحلة الأولى إلى سيناء حيث حصل هنالك إلى الشّريعة. وحاول من ثَمَّ دخول بلاد كنعان من جنوبها فردّه اهالي المنطقة. وتمرّد العبرانيون فقضى الله عليهم بالتّيه في الصّحراء مدّة أربعين عاماً. وتغلّبوا على المؤابيّين واحتلّوا منطقة شرقي الأردن حتى أريحا.

وعيّن موسى يشوع بن نون خليفة له وصعد إلى جبل نابو (الإله نابو السّومري) حيث تأمّل أرض كنعان، ومات في ذلك المكان.

المقارنة:

لو وضعنا النّصين واحدهما إزاء الآخر لوجدنا نقاط التّلاقي والمشابهة أكثر من نقاط الخلاف والاختلاف.

انطلاقاً من فكرة زعيم الضّرورة والرّمز أحبّ اليهود أسوة بالشّعوب التي كانت تفتخر بزعمائها، استنباط فكرة هذا الزّعيم الأوحد فاخترعوا او بالأحرى جعلوا من زعيمهم موسى كباقي زعماء القبائل التي إلى جوارهم سيّما بعد اطلاعهم على تراثهم السّياسيّ والاقتصاديّ فنسجوا حول موسى الأقاصيص التي استمدّوها من تراث الشّعوب وبالأخصّ قصة سرجون الأكادي.

وعليه في كلا الرّوايتين نجد قواسم مشتركة عديدة :

أولاً: إن دور الأب هامشي في قصة موسى وسرجون الأكادي لم يعرف والده.

ثانياً: ولادة الاثنين موسى وسرجون بالسّرّ يكتنفها الضّباب لإعطاء هالة لشخصيهما.

ثالثاً: كلا الطّفلين يرضعان في سلّة من البردي مطليّة بالحمر والزّفت ويرمى بهما في النّهر.

رابعاً: في رواية موسى، ذي الجمال الباهر، على عكس سرجون، نلاحظ

حضور أمّه واخته من بعيد، واهتمام وصيفات ابنة فرعون به. أما قرب سرجون فلا نجد أحداً من أقربائه: أمّه المستبدلة تركته ، وأخوته شاردون في البراري بعيدون عنه. ولذلك نشأ ذا طبع قاسٍ محبّاً للحرب.

خامساً: موسى انتشلته ابنة الفرعون وأعطته إلى إحدى العبرانيّات (أمّه) التي أرضعته ، ولمّا كبر تبنّته ابنة فرعون وسمّته موسى.

سادساً: هذا الاهتمام بموسى لا نجده عند سرجون الأكادي الطّفل المهمل نوعاً ما والذي انتشله متولّي شؤون الرّيّ، الإله آكي AKKI، واستخدمه في عمل الأرض والرّيّ بعيداً عن المجتمع.

سابعاً: وعلى عكس موسى الذي حظي بعطف امرأة، ابنة فرعون، فإنّ سرجون لم يحظَ بذلك العطف، إلا عندما شبّ وأحبّته الآلهة عشتار.

من يقرأ الفصل الثّاني من سفر الخروج من كتاب التّوراة، واللّوح الذي سطّرت فيه سيرة سرجون الأكادي يلاحظ الشّبه العميق في ولادة ونشأة سرجون الكبير مؤسّس مدينة أكاد، ونشأة موسى ومعلم الشّعب العبراني.

إنّ الشّبه هذا يتخطّى الألفاظ والصّور إلى الأسلوب حيث الجمل القصيرة والفكرة المختصرة. وما على القارىء إلا أن يعرف قصّة الرّجلين كاملة حتى يستطيع أن يكتشف أوجه الشّبه بينهما.

إنّنا نسرد هنا قصّتي الرّجلين ليتسنّى لنا مقارنتهما وذلك كما وردتا في مصدرهما: قصّة سرجون كما كتبها هو بنفسه أو كتبت على لسانه ومن حيث المكانة التّاريخيّة، وقصّة موسى في سفر الخروج برواية التّوراة.

هذا الشّبه في طفولة ونشأة هذين الرَّجلين الشّهيرين مردّه في رأينا، إلى أنّ كاتب حياة موسى أراد أن ينسج على مثال، هو سرجون الأكادي .

سرجون الأكدي .. يوحد البلاد :

استطاع سرجون الأكدي فرض سيطرته على البلاد وتوحيد دويلات المدن ومن ثم إقامة إمبراطورية واسعة الأرجاء عرفت بالإمبراطورية الأكدية نسبة إلى

مدينة أكد التى اتخذها عاصمة له والتى لا يزال موقعها غير معروف إلى الآن، والأكديون الذين تزعمهم سرجون في إقامة الإمبراطورية الجديدة هم من قبائل الجزيرة العربية التى استوطنت في بلاد بابل في عصر مبكر جدا، ربما منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وقد عاش هؤلاء جنبا إلى جنب مع السومريين وتفاعلوا معهم قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على دفة الحكم.

وخلافا للسومريين الذين لا يزال أصلهم وأصل لغتهم مجهولين لحد الآن، فإن الأكديين يمثلون واحدة من أقدم هجرات قبائل الجزيرة إلى وادي الرافدين، كما أن لغتهم تعود في أصولها إلى عائلة لغات الجزيرة الأم التى تفرعت إلى فروع منها الأكدية والبابلية والآشورية والعربية والعبرية والآرامية وهى التى كانت تسمي باللغات السامية.

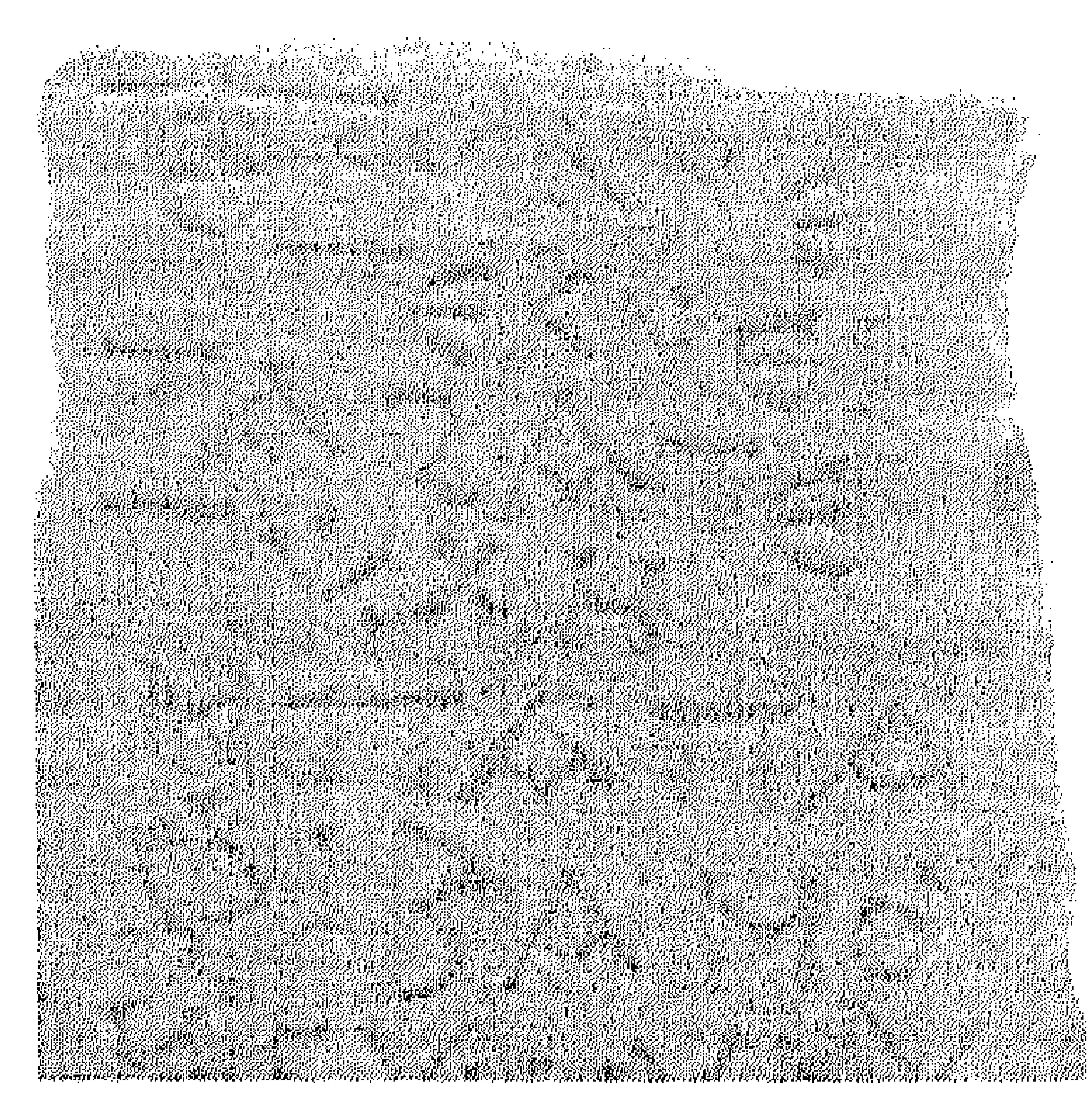
وبمناسبة ذكر مصطلح "الساميين" لابد لنا من الإشارة هنا إلى أن هناك اتفاقا في الرأي بين معظم الآثاريين وفى مقدمتهم العراقيون على ضرورة إعادة النظر في هذا المصطلح الذي لا يستند في الواقع إلى أساس تأريخي مقبول، وبضرورة إيجاد مصطلح بديل له مثل "قبائل الجزيرة" أو "الجزريين" للإشارة إلى تلك القبائل التى كان موطنها الأصلي جزيرة العرب والتى كانت تتكلم لغات أو لهجات تعود في أصلها إلى لغة واحدة هى لغة الجزيرة والتى كانت أيضاً تتشابه، إلى جانب ذلك، بجملة من السمات التاريخية والحياة المعاشية والأعراف والتقاليد والقوانين والمعتقدات الدينية.

أما المناطق التى كانت تستوطنها القبائل المتكلمة باللغات الجزرية فإنها كانت تشمل، في العصور التأريخية القديمة، جزيرة العرب وأطرافها الشمالية كالصحراء السورية وما يعرف بالهلال الخصيب، وقد اضطرت هذه القبائل، ولأسباب مختلفة وفى أزمان مختلفة أيضاً، إلى هجرة موطن استيطانها والنزوح إلى المناطق المتحضرة من بلاد وادي الرافدين والأرضي السورية والفلسطينية.

ومما تجدر ملاحظته عندما نتكلم عن قبائل الجزيرة لا نعني بطبيعة الحال أنها كانت تستوطن المناطق الصحراوية الجرداء، بل على العكس من ذلك فإن تلك القبائل كانت تنتقل في بوادي الهلال الخصيب وفى حوافِّ الجزيرة العربية طلبا

للمراعي، ولنا أن نتصور بأن حركتها في التنقل كانت بطيئة قبل ظهور الجمل في المنطقة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وكانت القبائل البدوية على اتصال دائم بالقرى الزراعية والمدن المتحضرة حيث كانوا يتزودون منها بين حين وآخر بالحبوب والتمور والأدوات والسلاح، ويحصل أحيانا أن يستوطن عدد من الأفراد أو عائلة أو حتى قبيلة بأجمعها في قرية أو مدينة فتمتهن الزراعة وتربية الأغنام والماشية، وهناك شواهد تأريخية كثيرة على أن القبائل البدوية هذه كانت تشكل أحياناً خطرا على السلطة في المدن وكثيرا ما نسمع أن قبيلة معينة أو حلفا من قبائل عديدة هاجمت المراكز المتحضرة ونجحت في الاستيلاء عليها وفى استيطانها.

وبقدر ما يتعلق الأمر ببوادي الرافدين فإن هناك من الأدلة المكتوبة ما يشير إلى أن قبائل الجزيرة كانت موجودة في العراق في عصر مبكر جدا، فهناك أسماء أعلام ترد في وثائق عصر فجر السلالات تدل بصورة واضحة على أن أصحابها كانوا جزريين أى من غير السومريين، كما يستدل من التوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التى وجدت فيها النصوص التى تذكر أسماء الأعلام هذه على أن الأكديين كانوا منتشرين في رقعة جغرافية واسعة نسبيا، وأنهم كانوا قليلين بالنسبة للسومريين في الجنوب، لكنهم كانوا يتمتعون بالقوة والنفوذ في المنطقة التى كانت ضمن حدود مملكة كيش (تل الأحيمر)، ومما يدل على تزايد نفوذ الجزريين في هذه المملكة أن اثنى عشر ملكا (من مجموع ملوكها البالغ عددهم اثنين وعشرين) كانوا يحملون أسماء جزرية، ويتضح من النصوص المسمارية أيضاً أن هؤلاء الجزريين كانوا يؤلفون الجزء الأكبر من سكان شمالي القطر، ومعلوم أن الأقسام الوسطى من وادي الرافدين، ابتداء من مدينة نفر في



الجنوب وحتى خط هيت – سامراء شمالا أصبحت تسمى "بلاد أكد" نسبة إلى مدينة أكد التي اتخذها سرجون عاصمة له.

كان هؤلاء الأكديون يتكلمون اللغة الأكدية التى هي فرع من فروع لغة الجزيرة الأم، كما أنهم استخدموا في كتابتها الخط المسماري الذى استنبطه السومريون من قبل، ثم إن وجود الأكديين جنبا إلى جنب مع السومريين أدى بطبيعة الحال، إلى تأثرهم بالحضارة السومرية، ففى نطاق اللغة استعار الأكديون كثيرا من المفردات والمصطلحات السومرية أن هناك كثيرا من المفردات في اللغة السومرية ذات أصل أكدي، وعلى غرار السومريين استوطن الأكديون القرى والمدن ومارسوا الزراعة وشتى صنوف الحرف كما أنهم مارسوا المعتقدات والطقوس الدينية التى مارسها السومريون.

وهناك حقيقة واضحة لدى الباحثين في تأريخ حضارة وادي الرافدين وهي أننا إذا ما أستثنينا الجانب اللغوي فإن السومريين والأكديين انصهروا في بوتقة حضارة أصلية واحدة حتى أنه عاد من الصعب على المرء أن يميز بين ما هو سومري الأصل وبين ما هو أكدي.

سرجون الأكدي (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م) :

يستنتج من النصوص المسمارية أن سرجون الأكدي بدأ حياته في مدينة كيش وأنه كان من مقربي الملك أور – زبابا في هذه المدينة، ولكن تبقى الظروف غامضة عن كيفية استطاعته الاستيلاء على الحكم، وعلى أية حال ينبغى أن نلاحظ أن سلالة كيش الأولى استمرت في الحكم بعد أور – زبابا حيث خلفه خمسة ملوك، ولذلك يبدو أن سرجون الأكدي في هذه الفترة المبكرة من حياته السياسية كان مجرد مناوئ للسلطة الحاكمة في كيش وأنه لم يقدم بعد على الانقضاض عليها وأسقاطها.

سرجون أعظم القادة السياسيين :

يعد سرجون بحق واحداً من أعاظم القادة السياسيين والعسكريين في التأريخ القديم، وقد استطاع في غضون فترة قصيرة بسط نفوذه على كل بلاد سومر

حتى إن أحد النصوص المسمارية يلمح إلى ذلك بقول مأثور "إنه (أى سرجون) غسل سلاحه في مياه البحر السفلي" أى مياه الخليج العربي، ويذكر نص آخر عن أعمال سرجون العسكرية وعن انتصاراته أنه خاض ثلاثا وأربعين معركة وكانت نتيجة ذلك أن صارت "سفن ملوخا وسفن دلمون ترسو في المرفأ أمام مدينة أكد"، وبتعبير آخر أنه استطاع إحكام سيطرته على الخليج العربي وأصبح بمقدوره الحصول على منتجات البلدان الواقعة عليه، وجدير بالذكر أن كتابات سرجون كانت تشير إلى هذه المناطق الخليجية وكأنها جزء من الأمبراطورية الأكدية كما يتضح ذلك من الإشارات الواردة في قصة مولده.

اتخذ سرجون عاصمة جديدة له عرفت بمدينة أكد، وهى العاصمة الوحيدة بين عواصم العراق القديم التى لا يزال موقعها غير معروف إلى الآن، وقد بنى في هذه العاصمة الجديدة، حسبما تذكر كتاباته، معبدا للإلهة عشتار التى ادعى بأنها هى التى منحته الحكم، كما أنه أقام معبدا لـ "زبابا" إله الحرب لمدينة كبش.

وبعد النصر الساحق الذي حققه على المدن السومرية وأنتهى بتوحيدها اتجه سرجون بفتوحاته اتجاهين أولهما غربي والآخر شرقي، ففى الغرب تذكر النصوص المسمارية من عصره أنه ضم مدينة أتو (هيت) وماري (تل الحريري) وجبال الأرز (جبال أمانوس) وجبال الفضة (جبال طوروس) ويارموتي (ميناء إلى الجنوب من جبيل) ومدينة أبلا (تل مرديخ في شمالي سوريا)، ومن هذا يتضح أن سرجون استطاع مد حدود الدولة إلى مناطق الفرات وشمال سوريا، ويذكر نص مسماري عثر عليه في تل العمارنة عاصمة أخناتون، أن سرجون الأكدي وصل إلى مدينة "بورش خندا" في آسيا الصغرى منتصرا لجماعة من التجار أصابهم الظلم على يد أحد الحكام هناك فأسرع سرجون لنجدتهم.

أما المناطق الشمالية من القطر والتى عُرفت فيما بعد ببلاد آشور فقد شملتها فتوحات سرجون فهناك أدلة على أن مدينتى نينوي وآشور كانتا جزءا من إمبراطورية الأكديين، وقد شملت فتوحات سرجون الأخرى المناطق الجبلية الشرقية والشمالية الشرقية، وتذكر كتابات سرجون أنه لاقى جيوش أربعة حكام بقياد ملك "أوان" الواقعة في جنوب غربي إيران وأنه استطاع دحرهم وقتل

قائدهم، كما أنه استولى على بلاد عيلام وعين عليها حاكما تابعا له، وكان من نتائج سيطرته على بلاد عيلام والأقاليم الأخرى من إيران أن تدفقت ثروات كبيرة على بلاد أكد، إن هذا الامتداد الواسع للإمبراطورية الأكدية وفي اتجاهات متعددة كان قد عبر عنه سرجون نفسه في أحد نصوصه عندما قال : "والآن أيا كان الملك الذي يدعي أنه نظير لي فليصل إلى حيث وصلت أنا!".

أما خلفاء سرجون الأكدي فيعتبر الملك - نرام ـــ سين بحق من أعظمهم وأكثرهم شهرة، وقد بقى حكمه الطويل (٢٢٩١-٢٢٥٥ق.م) مزدهرا حتى نهايته، أما أخبار حكمه فقد جاءت مدونة على وثائق مسمارية بعضها من عصره وأخرى كتبت في أزمان لاحقة إضافة إلى المنحوتات الحجرية التى تصور مشاهد من انتصاراته على أعدائه.

أقدم خارطة للعالم من عهد الملك سرجون الأكدي:

وضعت على لوح من الآجر لتصوير منطقة الفتوح التى أنجزها سرجون ملك أكاد (٢٣٠٠ ق. م.) والعالم بنظر علماء ذلك العهد عبارة عن دائرة تشتمل على بلاد آشور ثم الجبال في الشمال والأهوار في الجنوب ويحيط بهذه الدائرة البحر وعلى أطرافه جزر رسمت على شكل مثلثات دونت عليها المسافات واللوح الأصلى محفوظ في خزانة المتحف البريطاني .

الأكاديون: وقد أثبتت النصوص التي ظهرت في (إبلا) أن المكان الذي اسمه حماة كان موجودا في فترة (٢٤٠٠-٢٣٥٠) ق م ، وأظهرت مكتشفات قلعة حماة بقايا أثرية هامة يعود تاريخها إلى الفترة الممتدة بين (٢٤٠٠ - ١٦٠٠) ق م . وهي مرحلة الانتقال بين البرونز القديم والبرونز الوسيط ٠حيث أظهرت هذه البقايا وجود مخطط لمدينة مكتظة نسبيا، وكتلا تعود لمنازل منتشرة على جانبي الأزقة والشوارع ، ويبدو أن هذا الوضع قد استمر خلال كافة الأطوار الثمانية التي انقطعت بسبب حدوث كارثة أدت إلى دمار شامل للمدينة يتزامن مع دمار (إبلا) القديمة الذي ألحقه بها ملك الأكاديين ، وقد سموا كذلك نسبة لمنشئ هذه السلالة (أكاد).

تابعت المدينة حياتها تحت حكم السلالات الأكادية (بابل الأولى) إلى أن تعرضت لكارثة أخرى، حين جرى فتحها من قبل الآموريين (العموريين) ولم تكد الأمور تستتب لهؤلاء حتى أعادوا بناءها وجعلوها مركزا لهم كانت حضارة شمال سورية في الألف الثالثة ق .م تضم مرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى: تشمل سويات عديدة مختلفة من التنقيبات الأثرية منها سوية (إبلا) وسوية (حماة)، وقد ازدهرت حضارة شمال سورية خلال المرحلة الأولى هذه وانتشرت حتى الضفة الشرقية من نهر الفرات.

أما المرحلة الثانية : فتشمل سويات مواقع عديدة منها سوية (إبلا) وسوية حماة.

أما سوية حماة فيجمع فخارها المرحلتين الأولى والثانية

وهاتان السويتان تتمثلان بظهور الفخار الملون مع غياب وجود فخار المرحلة الأولى ولكل من المرحلتين فخارها الذي عثر عليه خارج منطقته ومن هنا يمكن ربط حضارة الشرق فيما بينها عبر سوياتها في فترة عصر البرونز القديم الرابع ويستند في الربط الزمني المرحلي لحضارة الشرق فيما بينها على تشابه النماذج الفخارية والبرونزية والأختام وطبقات الأختام التي تؤكد على التحديد الزمني لكل مرحلة.

وقد دلت الوقائع التاريخية وتحليلاتها المنهجية على ربط حضارة شمال سورية بعصر الأكاديين وبسلالة أور الثالثة علما بأن بداية حضارة شمال سورية قد سبقت عهد سرجون الأكدي وقد تلاشت المرحلة الأولى منها بدمار (حماة) و(إبلا) التي بدأت قبل سرجون واستمرت حتى نهاية حكم (نارام سين) الأكادي، ومع بداية سلالة أور الثالثة. ومن الممكن تأريخ هذه المرحلة من (٢٤٠٠-٢٢٥٠) ق.م وأعقبت هذه الفترة المرحلة الثانية حيث اتخذت الأواني الفخارية ميزات (الكؤوس الملونة).

السيادة الآشورية:

عندما تولى تجلا تبليزر الثالث العرش، وكانت بلاد آشور فى وضع عسكرى واقتصادى صعب، بل متأزم جداً، فكانت قد فقدت سيطرتها على كثير من حدودها الغربية وكانت بلاد بابل فى فوضَى واضطراب فى حين كانت الأقاليم الجبلية إلى شرقى وشمالى بلاد آشور تحت سيطرة أورارتو بصورة عامة.

وشهدت السنوات الأربعين التالية استفاقة بلاد آشور وعودة سيطرتها على جميع حدودها القديمة وتثبيت نفسها قوة عسكرية واقتصادية بارزة فى الشرق الأدنى، ولم تكن هذه التغييرات الكبيرة نتيجة تغييرات جذرية فى الموقف الخارجى، ففى الواقع كان الضغط فى الشمال قد زاد فى هذه الفترة، بل يعزى إلى درجة كبيرة إلى الإصلاحات الإدارية التى قام بها تجلا تبليزر فى إعادة تنظيم نظام إدارة حكومته ومقاطعاته، فقد قلص حجم المقاطعات فى بعض الأحيان فى سبيل التوصل إلى إدارة حازمة وكذلك لمنع حصول حكام المقطعات على قوة كبيرة قد تكون خطرة.

وقُسمت المقاطعات التى أعيد تنظيمها بدورها إلى وحدات أصغر تحت سيطرة موظفين أقل درجة كانوا بصورة عامة مسئولين أمام الحكام ولكن كان لهم الحق فى أن يشتكوا إلى الملك مباشرة ويمثلوا أمامه وكان ذلك ضماناً جيداً ومراقبة دائمة على كفاءة وموالاة حكام المقاطعات كما نظم أسلوب محطات البريد (الذى ينسب استخدامه لأول مرة إلى الإيرانيين بصورة عامة) على طول الإمبراطورية فساعد ذلك على سرعة المراسلات بين الملك وحكامه، كما طلب

الحكام أيضاً أن يقدموا تقارير منتظمة عن شئون مقاطعاتهم، واتبع تجلا تبليزر وخلفاؤه بالنسبة للدول الحاجزة الواقعة ما وراء المقاطعات الآشورية أسلوب تعيين ممثل آشورى فى بلاط تلك الدول للإشراف على مصالح الآشوريين بينما أمكن السيطرة عليها بصورة غير مباشرة من خلال العائلة المالكة المحلية.

وتمتعت مثل هذه الأسر المحلية الحاكمة بضمان إسناد الإمبراطورية فى حالة الثورات الداخلية أو هجوم الأعداء شريطة دفعهم الجزية للمسئولين عن دفعها وقبول توجيه المقيم الآشورى فى شئون الساسة الخارجية والتجارية، ويمكن ملاحظة أمثلة ذلك فى العهد القديم عندما استنجد أهاز ملك يهوذا مثلا تجلا تبليزر حينما هدده حلف سوريا وإسرائيل وقد حصل على النجدة المطلوبة (سفر الملوك أصحاح ٧: ١٦-٩) .

وكان اهتمام تجلا تبليزر العسكرى الثانى هو تثبيت حدوده الجنوبية حيث كانت القبائل الأرمية على طول نهر دجلة تثير الاضطراب منذ السنوات الأولى من عهد آشور - دان الثالث (٧٧١- ٧٥٤ق م) فهوجمت أراضى قبيلة بوقودو Puqudu (فى العهد القديم Pekod) شرقى وشمالى بغداد الحالية وأعيد الاستيطان فيها وجعلت جزءاً من مقاطعة أربخا، التى أصحبت حدودها الحالية آنذاك على شكل بيضوى طويل على طول الجانب الشرقى من دجلة ومفتاحاً لسيطرة الآشوريين على بلاد بابل، وقد جعلت مناطق القبائل الواقعة إلى الجنوب الشرقى من ذلك بين بلاد بابل نفسها وعيلام مقاطعة مستقله تحت الإدارية الآشورية، وقد مثل هذه الإجراءات موقف الملك المحلى داخل بلاد بابل نفسها، وهو نابو - ناصر الذى لم يتدخل تجلا تبليزر فى سلطته غربى نهر دجلة، وحافظ نابو - ناصر على الأمن الداخلى والسياسة المؤيدة للآشوريين داخل بلاد بابل حتى موته عام ٧٣٤ق م فأرتاح تجلا تبليزر من قلق الاضطرابات فى جنوب وكان بمقدوره أن يلتفت إلى أورارتو، عدو بلاد آشور الرئيسى، ويمكن إعادة تثبيت الخطوط العامة للحوادث التى وقعت فى السنوات التالية من حوليات تجلا تبيلزر المهشمة قليلاً.

على حين تزودنا الرسائل التى أرسلت إلى الملك من قادته وحكامه أو ضباط

استخباراته على الحدود الأورارتية ببعض التفاصيل الواضحة هنا وهناك، وأن تسلسل الأحداث فى بعض الأحيان غير مؤكد بسبب صعوبة تجميع كسر الحَوْليَّات بشكل دقيق وبدأ الضغط المضاد على أورارتو بحملة إلى أراضى نامرى نفسها، وهو أقليم يقع شمالى زاموا (محافظة السلمانية حالياً) شمالى عيلام القديمة، ولم يقابل الجيش الآشورى قوات أورارتية (مما يشير إلى أن كفاءة نظام استخبارات ومواصلات الأورارتيين كانت أقل بكثير من نظيرتها الآشورية (وكان بإمكان الجيش أن يستوعب بسهوله التصدى الذى أبداه بعض القادة المحليين، وقد ترك الحكام المحليون الذين اتفقوا مع تجلا تبليزر فى أماكنهم تابعين وخاضعين لدفع الجزية، فى حين وضعت حدود أخرى تحت إدارة الموظفين الآشوريين المباشرة وأعيد أسكانها بقبائل من شرقى بلاد بابل، وعلى كل حال فإن الغزوة أنذرت ساردر Sardur فى أورارتو الذى استمر بتنظيم حلف قوى ضد آشور فى الغرب، وقد أثبت كفاءة نظام استخبارات ومواصلات الآشوريين جدارة أكثر من الأورارتيين عما فى السنة السابقة وزحف تجلا تبليزر بجيشه، الذى كان مجهزاً آنذاك بالعدد والتجهيزات نتيجة الأعداد الكثيرة من الخيل والبغال والجمال والماشية التى غنمها فى حملته إلى بلاد نامرى والتى حصل خلالها أيضاً على ما لا يقل عن خمسة عشر طناً من النحاس، ضد قوات الغرب.

ويبدو أن الجيش الآشورى قد عمل الكمائن لقوات الحلف التى واجهت هزيمة شنيعة ووقع كثير من الأسرى، استناداً إلى حوليات ما يقرب من ثلاثة وسبعين ألف جندى، على الرغم من أن ساردر نفسه تمكن من الهرب ليلاً من خيمته تاركاً وراءه جميع ممتلكاته حتى مجوهراته وختمه الشخصى وهرب عبر الفرات إلى بلاده.

تقوية موقف الآشوريين فى الغرب :

وسارعت تلك الدول التى لم تتورط بالحلف لدفع الجزية إلى تجلا تبليزر، وقضى تجلا تبليزر السنوات التالية فى تقوية موقف الآشوريين فى الغرب حيث أجريت تغييرات إدارية كبيرة وقلب عدد من الممالك التى كانت سابقاً تدين بالتبعية وثبت عدم إمكانية الاعتماد عليها إلى مقاطعات آشورية تحت الحكم

المباشر، وظلت هناك بعض الجيوب المضطربة المنعزلة وقد أشير فى الحوليات وفى المراسلات الملكية إلى أن السنوات الثلاث التالية شهدت عدداً من النشاطات العدائية ضد الآشوريين فى سوريا، وكانت هذه النشاطات تتراوح بين العمليات العسكرية الصريحة وبين الشغب المحلى ضد بعض الإجراءات الاقتصادية غير الشعبية، وتمدنا رسالة أرسلت إلى تجلا تبليزر من قبل الموظف الآشورى الذى أعاد النظام فى الموانئ البحرية فى صور وصيداً يمثل على النوع الثانى، فقد كانت السلطات الآشورية قد فرضت ضريبة على الأخشاب التى تجلب إلى الميناء من لبنان فقام المواطنون الغاضبون ببعض الاضطرابات وقتلوا جابى الضرائب الآشورى وكان رد فعل الحاكم العسكرى الآشورى فعالاً حيث جلب إلى المدن المعنية فرقاً من قوات الإيتو وهى قوات شرسة استخدمت لأداء واجبات الشرطة بين السكان المدنيين المثيرين للاضطرابات وكان وجود هذه القوات كما يذكر الكاتب إلى جانب الملك قد وضعت الناس فى حالة رعب، وبعد أن أفزع تجار الخشب مافيه الكفاية وجههم الموظف الآشورى للاستمرار بقطع الخشب كالسابق غير أنه حظر عليهم تصديره إلى المدن المصرية والفلسطينية ولعل هذه الحادثة أشير لها فى سفر أشعيا الأصحاح ٢٣:٥ وكان كلا من ملك يهوذا عزرا وملك إسرائيل مناحيم المعاصرين متورطين فى الاضطرابات فى هذا الوقت، ويصف سفر الملوك الثانى الأصحاح ١٥:١٩:٢٢ كيف أن مناحيم فرض ضريبة على رؤوس الأموال ليدفع الغرامة، وهى ألف طالن من الفضة فرضت من قبل تجلا تبليزر الثالث (بول Pul).

ويبدو أن تجلا تبليزر الثالث قد بقى نفسه فى سوريا فى السنوات التالية واتخذها قاعدة له فى حين كانت فرق من جيشه مشغولة فى الشمال والشمال الشرقى فى أعقاب النصر الآشورى على ساردر، كما هوجمت ثانية أراضى نائيرى جنوب غربى بحيرة وأن شمال المقاطعة القديم Tushkhan ومنطقة القبائل فى أعالى الزاب الأعلى، خضعت هذه المرة للسياسة التى أتبعها تجلاتبليزر الثالث على نطاق واسع وهى ترحيل السكان المحليين وإعادة إسكان البلاد بالأسرى من مناطق أخرى من الإمبراطورية وقد وضع الإقليم بكامله تحت

سلطة حكام آشوريين.

ويبدو أن انسحاب قسم من الجيش الآشورى قد أعطى حكام سوريا وفلسطين الثانويين فكرة خاطئة عن قوة الآشوريين، فى حين خلفت الإجراءات الاقتصادية من النوع الذى يعكسه حظر تصدير الخشب إلى الجنوب من لبنان بعض الصعوبات.

وفى عام ٧٣٤ ق م كانت هناك بعض الاضطرابات فى جنوب فلسطين واستنداً إلى ما جاء فى سفر الأيام الثانى الإصحاح ٢١:١٦:٢٨، هاجم حلف من أدوم Adom المدن الفلسطينية يهوذا تحت حكم أهازا Ahaz بينما أقيم فى شمال ذلك حلف معاد للآشوريين ضم سوريا وإسرائيل، وإستناداً إلى القصة الثانية فى العهد القديم (سفر الملوك الثانى الإصحاح٥: ١٦-٩ وكذلك الفقرة التى أشير إليها فى سفر الأيام الثانى) حافظ أهازا على سياسة موالية للآشوريين طوال الوقت وطلب العون من تجلا تبليزر وبتقديم ذلك تمكن الملك الآشورى بسهوله من التخلص من المعارضة فى المدن الفلسطينية والسورية والتدخل فى شئون إسرائيل وتنصيب هوشح بدلاً من الملك بيكا Pekah، ويتذمر سفر الأيام أنه كان على أهازا أن يدفع ضريبة إلى تجلا تبليزر على الرغم من موالاته، وهى إشارة تؤيد الحوليات جزءاً منها، ويبدو أنه إذا كانت الأحداث فى سفر الأيام موثوقة فإن الضريبة المفروضة هى التى كانت تعرف عادة كيتو Kittu, وهى الضريبة التى تفرض مقابل تقديم المساعدة العسكرية إلى تابع فى حالة الاضطرابات.

وفى عام ٧٣٤ ق م حدثت اضطرابات فى منطقة جديدة وذلك عند وفاة نابو - ناصر ملك بلاد بابل الموالى للآشوريين، فقد كانت القبائل الكلدانية قد سيطرت تماماً على جميع بلاد البحر (وهى الجزء الجنوبى من بلاد بابل) لما يقرب من قرن كامل وكانت تعمل على توسيع سيطرتها تدريجيا إلى الشمال باتجاة الفرات ودجلة، وفى أثناء الارتباك الذى حدث عند وفاة نابو - ناصر ثار أوكن - زير Ukin-Zer رئيس قبيلة بيت أموكانى الكلدانية Bit-Amukkani ضد الخليفة الشرعى الموالى للآشوريين المدعو نابو - نادن - زير -Nadu

Nadin-Zer (٧٣٤-٧٣٢ ق.م) وتمكن أخيراً من السيطرة على العرش.

وظلت القبائل غير الكلدانية القاطنة شرقى دجلة فى شمال بلاد بابل الموالية لآشور، كما كان كذلك المواطنون البابليون (بصورة عامة) على الرغم من أن الغاصب قد استولى على العاصمة نفسها، وهناك رسالة تحدثنا عن المفاوضات التى تمت بين الموظفين الآشوريين والسكان المحصنين فى الداخل، وتذكرنا بالمقابلة التى تمت بين موظف الرابشاقة ووزراء حزقيا عند حصار القدس عام ٧٠١ ق م (سفر الملوك الثانى الإصحاح ١٨:١٧:٣٦).

هناك بعض الدلائل تشير إلى أن الدبلوماسية الآشورية قد نجحت فى بذر الخلاف بين شيوخ القبائل الكلدانية - وبذلك أمكن جَعْل جزء من قوتهم محايدة بما فى ذلك قوات مردوخ - أبلا - أدينا، وهو قائد طموح وقدير قاد بنفسه بعد ذلك ثورة وجاء ذكره فى العهد القديم تحت اسم مردوخ - بلادن (أشعيا - الإصحاح ١:٤٣).

وقد كشفت مخططات تجلا تبليزر الإستراتيجية قيمتها عند التصرف مع واكن - زير فقد وجه الهجوم من مقاطعة ارابخا وتجنب الجيش الآشورى كثافة المدن على الرقبة المشكلة بالتقاء نهر دجلة والفرات ودخل بلاد بابل عبر دجلة من نقطة تقع إلى الجنوب من ذلك، ووضعت القبائل الموالية لحماية الطرق فى حين تحرك الجيش نحو الغرب إلى المدن البابلية وأخذت بابل من العصاة الذين هربوا إلى سابيا Sapia، وهى المدينة الرئيسية لقبيلة بيت - أموكانى فى وسط منطقة الأهوار أسفل الفرات، وتابع الجيش الآشورى ملاحقة أو كن -زير وحاصره فى مدينته ودمر منقطة بيت - اموكانى والقبائل الكلدانية المتمردة الأخرى وهى بيت - شلانى Bit-Shilani وبيت - سالى Bit-Saalli على حين تركت منطقة مردوخ -أبلا - أدينا والشيوخ الذين اتفقوا مع آشور.

وقد استغرقت العملية جميعها ثلاث سنوات.

ووضعت بلاد بابل عندئذ تحت إدارة إداريين آشوريين.

وفى عام ٧٢٩ ق م قام تجلا تبليزر نفسه بأخذ يدى الإله، فى احتفال عيد

رأس السنة الجديدة فى بابل وبذلك قلد رسمياً ملكاً على بلاد بابل من قبل الإله القومى مردوخ، ولم يسبق لأى من الملوك الآشوريين مدة تزيد على أربعة قرون ونصف أن تولى ملك بابل.

توفى تجلا تبليزر عام ٧٢٦ ق م تاركاً بلاد آشور مسيطرة على إمبراطوية واسعة تمتد من الخليج العربى إلى حدود مصر وتضم أجزاءً كبيرة من أناضوليا وكليكيا.

وقد شكلت العمليات العسكرية الآشورية الممتدة جنوباً حتى غزة واضطراب التجارة المصرية نتيجة حظر الآشوريين لتصدير الخشب إلى مصر من لبنان تهديداً لمصر.

وفى عهد شيلمنصر الخامس القيصر خليفة تجلا تبليزر الذى لم تصلنا عنه وثائق كثيرة، بدأ المصريون باتصالات دبلوماسية هجومية مضادة محاولين إفساد الممالك الصغيرة فى فلسطين وجنوب سوريا، وقد تورط هوشع ملك إسرائيل فى ذلك وجلب على نفسه هجوم شيلمنصر (سفر الملوك الثانى الإصحاح ١٧: ٣-٥).

وقد أعقب الاستيلاء على العاصمة الإسرائيلية السامرة بعد حصار دام ثلاث سنوات، السياسة التقليدية بترحيل السكان (سفر الملوك الثانى الإصحاح ١٧:٦) التى نقلت خلالها قبائل إسرائيل العشرة المفقودة "والتى ظهرت حول مصيرها قصص خيالية عقيمة وذلك إلى مقاطعة كوزانو Guzanu (كوزان) ومنطقة أخرى جنوب شرقى بحيرة أرميا.

سرجون يستولى على السامرة :

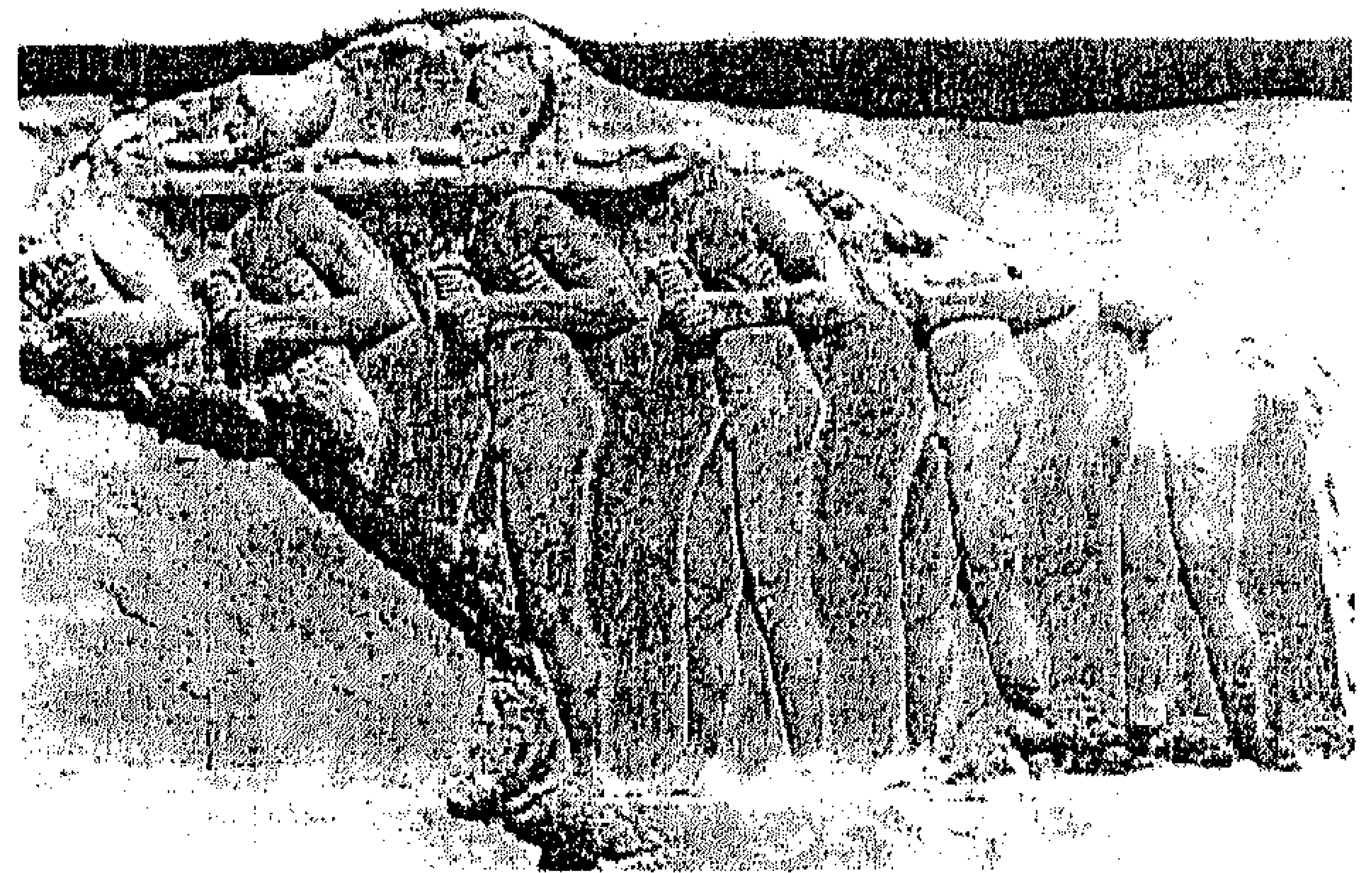
وادعى سرجون خليفة شيلمنصر بأنه قام بالاستيلاء الفعلى على السامرة الذى ينسب فى العهد القديم إلى شيلمنصر، ومن المحتمل أن سرجون كان القائد الذى وجه العملية نيابة عن شيلمنصر.

وفى بداية حكم سرجون (٧٢١-٧٠٥ ق م) حدثت اضطرابات جديدة فى بلاد بابل، فقد عمل مردوخ -أبلا- أدينا شيخ قبيلة بيت - باكينى، وهو دبلوماسى قدير كما أشير إلى ذلك سفر الملوك الثانى الأصحاح العشرون فقرة

١٢ وما بعدها (الخاص بفترة لاحقة) على تقوية مركزه وجعله قوياً جداً فنصب نفسه شيخاً على الكلدانيين وضمن تأييد القبائل الآرامية فى بلاد بابل ونظم حلفاً مع عيلام المنافسة القديمة لبلاد بابل فى جنوبى إيران، وبعد اعتلاء سرجون العرش مباشرة دخل مردوخ أبلا -أدينا بابل وادعى ملكية البلاد وذلك بأخذ يدى بعل، فى عيد رأس السنة الجديدة عام٧٢١ق.

ويبدو أن الجيش الآشورى قد حاول أن يعيد المناورة شرقى نهر دجلة التى أمكن بواسطتها هزم أوكن – زير ولكن جابهه هذه المرة الجيش العيلامى فى الدير، وتلى ذلك اشتباك لم يتمكن بسببه الجيش الآشورى من أن يغير إلى مركز بلاد بابل على الرغم من عدم اندحاره، وكان عليه أن يعود إلى بلاد آشور، واضطر سرجون بالنظر لانشغاله فى مناطق أخرى أن يترك مردوخ – أبلا – أدينا كملك لمدة عشر سنوات دون أى تفكير، وفى هذا الوقت قاسى اقتصاد المدن البابلية الكبيرة أضراراً بالغه وتدخلت الأقوام القبلية بالتجارة ومارست ابتزاز الأموال من المدن بمختلف الأشكال وكانت سيطرة الكلدانيين غير شعبية فى المدن البابلية الكبيرة التى ظلت حتى السنوات الأخيرة من نهاية الحكم الآشورى نفسه تستنجد دائماً بالملك الآشورى لتقديم المساعدة ضد أعمال التخريب التى تمارسها القبائل الكلدانية.

وكان السبب المباشر الذى اضطر سرجون أن يترك مشاكل بلاد بابل دون حل هو الثورة التى اندلعت فى سوريا وكان ذلك ملائماً جداً لمردوخ- أبلا- أدينا، غير أنه لا يمكن فى الوقت الحاضر إثبات أنه كان وراء ذلك، كما كان فى مسألة مشابهة ورد ذكرها فى



سفر الملوك الثانى (الأصحاح ١٧:١٢:٢٠).

وقد تزعمت الثورة حماه وهى الإمارة المستقلة الوحيدة التى ظلت فى سوريا، وواجه سرجون المتمردين وهزمهم فى قرقر وذلك عام ٧٢١ق م، وكنتيجة لذلك جعل حماه مقاطعة آشوريه وفى دولة تابعة صغيرة تقع إلى جنوب، وأشار النبى ورجل السياسة أشعيا إلى الدرس الذى يمكن أن يؤخذ من هذه الأحداث معتبراً آشور الأداة السابقة للإله:

ويل لآشور – قضيب غضبى وبالعصا فى يدهم هى سخطى.على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطى أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهباً ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة.

(أشعيا – الأصحاح العاشر :٥-٦)

وتورطت غزة أيضاً بإسناد من الجنرال المصرى الذى سمى فى العهد القديم باسم " سو" (سفر الملوك الثانى الأصحاح ١٧:٤) ولكن عند الاشتباك فى رفح Raphih هرب الجنرال المصرى (استناداً إلى الأخبار الآشورية) بشكل مخز تاركاً ملك غزة لأسر محتوم وربما للتعذيب والموت ولعل وجود هذه السابقة فى الذهن جعل الرابشاقة يعلق ساخراً على قيمة التحالف المصري :

فالآن هو ذا قد أتكلت على عكاز هذه القضبة المرضوضة على مصر التى إذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفة وثقبتها هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه.

(سفر الملوك الثانى الأصحاح الثامن عشر :٢١)

ولم يكن لسرجون اضطرابات أخرى فى فلسطين باستثناء محاولة فاشلة من مدينة أشدد على الساحل الجنوبى من فلسطين لتنظيم حلف مضاد للآشوريين بإسناد مصرى غامض وذلك عام ٧١٢ق م،وبالاتفاق مع يهوذا وادوم Edom مآب، ويشير سفر أشعيا (إصحاح١: ٢٠-٦) إلى استيلاء الحاكم الآشورى على مدينة أشدد ويذكر سكان القدس بعبث توقع دعم مصر العسكرى ضد

آشور.

سرجون يضغط :

وكما كانت الحال مع تجلا تبليزر فقد كانت مشكلة سرجون الرئيسية هى الضغط من الشمال " فاورارتو " التى بدأ تاريخها وحضارتها يعرف بالتدريج نتيجة التنقيبات التركية والروسية التى أثبتت أنها كانت من إحدى القوى الكبرى فى الشرق القديم كانت نفسها واقعة تحت ضغط قوى من القبائل الإيرانية المهاجرة التى كانت تتحرك نحو الجنوب والغرب من سهول روسيا، وكانت جماعة من هؤلاء المهاجرين قد استقرت فى عهد سرجون وشكلت مملكة ذات أهمية تعرف باسم زيكرتو Zikrtu شرقى بحيرة أرميا وكان الميديون الذين كانوا حتى ذلك الوقت غير منظمين وعلى النظام القبلى تحت سلطة عدد من الشيوخ شبه المستقلين يؤلفون الجزء الرئيس منهم وقد حاول روساس الأول Rusasl (٧٣٣ـ٧١٤ ق م) الابن النشط وخليفة ساردر الذى دحره تجلا بيليزر الثالث، أن يحقق بعض النجاح فى الاتفاق مع ثلاثة من الشيوخ الميديين ويضمن إسنادهم العسكرى له ضد آشور،كما يجب أن يفترض تعاونهم فى المحافظة على بقاء الطرق التجارية من أقصى الشرق مفتوحة (مقابل الإعانات المعتادة فى مثل هذه الحالات) التى كانت أساسية لرفاهية أورارتو، وفى حدود هذا الوقت كان الطريق الرئيسى من إيران يأتى من الضفة الغربية لبحيرة أورميا شرقى بحيرة وان إلى أرضروم (حيث عثر على أدوات برونزية أورارتية من القرن الثامن) وإلى تربيزوند Trebizond على البحر الأسود، والتى كانت حسب الأخبار المتوارثة قد أسست عام ٧٥٧ ق م ومن المؤكد أن أورارتو كانت تستفيد من التجارة مع إيران وربما مع الهند.

ويستدل على ذلك من رأى المتخصصين بالتكنولوجيا ومن المواد التى ذكرت عندما نهب الآشوريون بعض المدن الأورارتية عام ٧١٤ق م، ويحتمل أن أورارتو كان لها علاقات تجارية مع أراضى ما وراء اليونان من خلال الوسطاء طالما ادعى بأن هناك برونزيات أورارتية عثر عليها علماء فى القبور الأتروسكية Etruxan، ويذهب أحد العلماء أبعد من ذلك ويقترح معتمداً على الطراز الفنية بأن قوافل

محملة بالحرير كانت تصل أورارتو سالكة الطريق الطويل من الصين ولعل بعض التجارة التى سلكت الطريق الشمالى عبر أرضروم وتريبزوند أروارتو كانت تمر فى الفترات السابقة عبر بلاد آشور إلى موانئ البحر المتوسط، ولعل الرغبة فى قطع الطرق التجارية الأورارتية وتحويل هذه التجارة، وما رافق ذلك من رخاء اقتصادى إلى الطرق القديمة وهو سبب من الأسباب التى دفعت سرجون للقيام بحملاته التالية إلى المنطقة.

وإلى الجنوب من بحيرة أورميا بين بلاد آشور ومقاطعات ميديا العظيمة تقع أراضى المانيين Mannaeans (المنى فى العهد القديم سفر أرميا، الأصحاح: ٢٧:٥١) وهم من التابعين إلى الآشوريين وبعد اعتلاء سرجون العرش بفترة قصيرة حدثت اضطرابات فى القسم الشرقى من هذه المنطقة أثيرت من قبل ملك زيكرتو Zikirtu الذى كان وراء أيضاً ظل روساس وقد تمكن سرجون من قمع العصاة ولكن الاضطرابات تكررت بعد سنتين عندما قام روساس بأعمال عسكرية علنية، وكان رد فعل سرجون ثانية حازماً وبعد أن تخلص من العصاة عين أولوسونو Ullusunu ملكاً على المانيين.

وبعد سنتين هوجم أولوسنو بسبب مؤامرة داخلية وعمليات عسكرية خارجية من قبل أورارتو، ومرة أخرى كان سرجون فى مستوى المسئولية فقدم إلى أولوسونو كل المساعدات الممكنة وقام بحملة تأديبية على الحدود الجنوبية لأورارتو، بالإضافة إلى هذه التدخلات المتكررة من جانب أورارتو فى شئون التابعين الآشوريين من الموالين لها حدثت مناوشات صغيرة على شكل مصادمات حدود، وللقضاء على المشكلة فقد وضعت الخطط للقيام بهجوم واسع على أورارتو، وبدأت تقارير الاستخبارات تنهال على الملك الآشورى من الموظفين الآشوريين والجواسيس الأجانب وقد اقترح أحد الكتاب أن يقوم الملك بهجوم مباشر على أورارتو وبدا أنه واثق من أن العاصمة تورشبا Turushpa ستقع بيد الآشوريين، وذكرت رسالة أخرى عن عصيان داخل أورارتو وتفصح الرأى بأن القبائل المعنية ستقف إلى جانب الآشوريين فى حالة الهجوم، وكان الهجوم متوقعاً لا محالة، حيث يقول أحد الرواة غير الموالين من أورارتو " عندما تاتى قواتاً الملك

الآشورى للمرة الثالثة ".

قوات سرجون تتظاهر:

وقامت قوات سرجون بالتظاهرة الرئيسية المرسومة ضد أورارتو صيف عام ٧١٤ق م وأن خطة الحملة والحوادث معروفه لدينا بشيء من التفصيل من تقرير مشهور حول الموضوع كتب على شكل رسالة إلى الإلة آشور ومن هناك زحف سرجون شمالاً إلى منطقة قاعدة تابعة إلى الوسونو المانى التابع الموالى للآشوريين واعتزم أن يستخدمها قاعدة ضد زكرتو Zikrtu وأورارتو.

ثم قاد سرجون قواته شرقاً إلى حدود زكرتو حيث فتح ودمر المدن الرئيسية المحصنة وقد فعل ذلك دون مقاومة حيث ذهب ميتاتى Mettati حاكم زكرتو ليلحق بالجيش الأورارتى ويدافع عن الممرات.

واتجه سرجون بعد ذلك غرباً ثانية وعلم أن الجيش الأورارتى الرئيسى كان يدافع مع حلفائه عن ممر منخفض فى الجبال ويبدو أن قوات سرجون كانت فى هذه المرحلة كما كانت الحال فى عهد الإسكندر الكبير فى الهند مُتْعَبَة من مشاق الحملة فى بلاد قاسية وكانت قد أوشكت على التمرد والعصيان، ونظراً لعدم تمكنه من الاعتماد على انضباط جيشه الرئيسى، فقد قاد سرجون هجوماً مع حرسه الخاص وقواته الخاصة على أحد أجنحة القوة المعادية وشتتها وبهذا العمل المشجع هجم الجيش الآشورى على الحلف الأورارتى وشتت خطوطهم ونشر الرعب بينهم وقاد الجنرال الأورارتى قواته مسرعاً ولكن بانتظام متراجعاً غير أن بقية الفرق كانت حينئذ بدون قائد ومرتعبة كالغوغاء فانهزمت بدون نظام إلى الجبال حيث لقى الكثير منهم حتفهم بسبب ظروف المناخ القاسية وكان اندحار وهزيمة الجيش الأورارتى الرئيسى صدمة كبيرة لمعنويات الأورارتيين فتمكن سرجون من أن يتغلغل فى عمق الحدود الأورارتية مع مقاومة لا تكاد تذكر، وترك روساس عاصمته تروشبا Turushpa (التى لم يخاطر سرجون بمهاجمتها كما يبدو) وأخذ طريقه إلى الجبال حيث مات أخيراً من الحزن استناداً إلى ما جاء فى أخبار سرجون.

ولازم الفراش كامرأة فى المخاض ورفض أن يمس فمه الطعام أو شراب وجلب على نفسه مرضاً لا علاج له.

وبعد أن انهارت كما يبدو الإدارة المركزية فى أورارتو كان بإمكان سرجون أن يزحف شمال بحيرة وان سالباً وناهباً فى طريقه دون أى مقاومة، وفى العودة من شمال نحو بلاد آشور، لم يقدم أورزانو Urzanu، وهو حاكم موساسير Musasir إحدى دويلات المدن الأورارتية المنعزلة، واعترافه الرسمى بسيادة سرجون.

وعلى الرغم من موقع المدينة البعيد وصعوبة التقدم إليها من خلال الغابات والجبال فقد وجد سرجون من الضرورى أن يجعل من مدينة موسامير مثلاً رغم القدسية التى كانت تتمتع بها هذه المدينة فسمح لقواته الرئيسية أن تستمر فى طريقها إلى بلاد آشور وقاد سرجون فرقة قوامها ألفاً من المشاة ضد المدينة وأصدر أمر عامّاً إلى موظفيه فى المنطقة الشمالية لمنع هروب أمير موساسير ويظهر سبب هذه التعليمات وضرورة إنجاز هذه الخطوة ضد موساسير واضحاً من الحوادث التالية فقد كانت المدينة مركزاً مهمّاً لعبادة الإلة خالدي Haldi إله أورارتو القومى. وعندما وصل سرجون وجد احتفالاً للتتويج حيث كان خالدى يقوم بتنصيب خليفة لملكة أورارتو الشاغرة (ولعله أمير موساسير) وقد أخذ سرجون الإله نفسه وزوجته أسرى ورحل المواطنين وأخذ كنوزاً كثيرة من الأحجار الكريمة والمعادن والأوانى البرونزية إلى بلاد آشور.

ومع أن العاصمة الأورارتية لم تفتح ورغم قيام روساس، استناداً إلى أحد النصوص الأورارتية الذى يعطى الجانب الثانى من الصورة، بهجوم مضاد ناجح لاستعادة موساسير (وذلك قبل استسلامه للمرض العضال الذى نسبه إليه سرجون) فقد كانت حملة سرجون فعالة حيث لم يحدث اضطرابات أخرى مثارة من قبل أورارتو خلال السنوات العشرين التالية أو يزيد باستثناء مؤامرة فى إقليم تابال Tapal (فى سفر حزقيال تبل Tupal الإصحاح ٣٨ : ٢، ٣... إلخ).

وكان سرجون آنئذ حرّاً ليتصرف مع بلاد بابل، فقد جعل الحكم القبلى واضطراب التجارة لمدة عشر سنوات على جعل سكان المدن الكبيرة مستعدين

للتدخل الآشورى، على حين كانت الشئون الداخلية فى عيلام قد شلت قوة الملك العيلامى عن القيام بأى رد فعل.

وأتبع سرجون الإستراتيجية المضادة بمهاجمة شرقى دجلة، فاضطر ذلك الجيش الكلدانى إلى الانسحاب إلى الجنوب حيث استغلت المدن البابلية الفرصة وفتحت أبوابها للترحيب بسرجون، وأخذ سرجون يدى الإله فى عيد رأس السنة الجديدة فى بابل غير أنه تبنى اللقب القديم " نائب الإله " وليس " ملك " بلاد بابل.

فاكتسحت منطقة مردوخ - أبلا - أدينا وفتحت حصونه الرئيسية..أما هو نفسه فأعيد تنصيبه رئيساً لقبيلة بيت - ياكينى بعد أن قدم الخضوع لسرجون.

وفى هذه الاثناء أشارت تقارير الاستخبارات التى وصلت سرجون أن أركيستس Argistis خليفة روساس كان يخطط هجوماً على بلاد آشور على الرغم من أن الجيش الذى كان يعده قد يكون لغرض آخر.

وعلى كل حال فإن الحوادث اضطرته لاستخدامه لغرض آخر، ففى عام ٧٠٧ ق م دخل أورارتو من الشمال حشد كبير من القبائل البربرية تدعى كيمرايا Gimmirraya (فى العهد القديم سفر حزقيال الإصحاح ٣٨ : ٦ ... كومر Gomer وفى المصادر الكلاسيكية الكمرين) ودحرت أركيستيس فى محاولة لوقفهم وعبرت غرباً إلى كيليكيا وعندئذ دخلت حدوداً تسيطر عليها بلاد آشور ومن المناسب أن نلخص هنا بإيجاز مجرى الحوادث فى هذه المنطقة خلال عهد سرجون.

ففى السنوات الأولى من حكم سرجون بدأت مصالح مشكو Mushku (فى العهد القديم ميشيخ Meshech وفى المصادر الكلاسيكية Phrygia) وهى دولة قوية فى جنوب شرقى آسيا الصغرى تصطدم مع مصالح بلاد آشور، وفى عام ٧١٨ ق م يبدو أن مشكو كانت وراء تمرد كركميش (وكان من نتائج ذلك أن جعلت الأخيرة مقاطعة آشورية)، وفى عام ٧١٦ ق م قام سرجون بعمليات عسكرية ضد مشكو بدعوى تجاوزها على حدود مقاطعة قو Qu وبعد نجاح سرجون ضد

أورارتو وخذلانها فى الشرق اتجهت أورارتو لتشكيل شبكة من الأحلاف فى الغرب ونجحت بخلق أهداف مشتركة مع مشكو وإفساد التحالف التابع الرئيس لسرجون من بين أمراء تبال Tabal وقد تمكن سرجون من هذا التمرد غير أن استعداد مشكو لتقديم التأييد المعنوى على الأقل إلى تابعى آشور من غير الموالين مضافاً أليه ضغط أورارتو قد أثبت بأنه مازال يؤلف قوة مقلقة بالنسبة لبعض الذين يدينون بالتبعية لآشور، وفى عام ٧١٢ ق.م كان هناك تمرداً آخر فوضعت المناطق المعارضة تحت الإدارة الآشورية المباشرة وحصنت تابال لتكون سكيناً طويلة تفصل بين مشكو وأورارتو.

وفى عام ٧٠٩ق م هوجمت مشكو من قبل (قو Qu) لعل ذلك بسبب السياسة الواقعية أو لأن آشور قد أظهرت أن جميع الطرق التجارية من سوريا إلى آسيا الصغرى كانت بيدها، أو لعل ذلك بسبب تذمر الأولى من غزو الكمريين Gimmerian فتغيرت سياسة مشكو الخارجية فجأة إلى جانب بلاد آشور وأرسل ملكها ميتا Mita (ميداس فى كتابات الكلاسيكيين) هدية وطلب عقد معاهدة صداقة مع آشور.

وسُر سرجون لذلك وهناك رسالة مرسلة منه إلى مبعوثه المسئول عن المحادثات، وكان على الأغلب ابنه سنحاريب، ويطلب فيها منه أن يخبر ميتا بسروره لذلك.

زحف سرجون إلى تابال :

وهكذا كان الوضع عندما ظُهرت حشود الكمريين فى الشمال الغربى بعد محاولات أركيستيس الفاشلة لايقافها، وتشير الرسائل الأثرية أن كالح (التى كانت ما تزال مركزاً إدارياً مهماً رغم أن سرجون كان قد أنشأ فى العهد الأخير من حكمه عاصمة جديدة إلى الشمال من ذلك فى دور - شروكين) قد شهدت تدميراً قوياً خلال العقد الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد .

ويمكن أن يعتبر ذلك دليلاً على هجوم الكمريين المفاجئ على واحدة أو أكثر من المدن الآشورية الكبرى على الرغم من عدم وجود أى شىء آخر يؤيد هذه

النظرية وزحف سرجون إلى تابال عام ٧٠٦ق م والتقى بالحشود الكمرية فى المعركة وقد أخذت بعض الدلائل الغامضة فى إحدى الرسائل على أنها تشير إلى أن سرجون كان قد وقع فى المعركة ، غير أن هذا الاستنتاج قابل للمناقشة ومهما كانت أسباب وفاة سرجون فإنه ولا شك توفى فى عام ٧٠٥ق م.

وتحركت فى نفس الوقت الحشود البربرية بعيداً إلى داخل آسيا الصغرى، وكان لخليفة سرجون ابنه سنحاريب (٧٠٤ -٦٨١ق م) ممارسة سابقة كإدارى وجندى على الحدود الشمالية، وهناك عدد من التقارير المرسلة منه إلى أبيه تشرح بالتفصيل التطورات فى تلك المنطقة.

لذا فإن حقيقة عدم قيام سنحاريب باتخاذ إجراءات أخرى على الحدود الشمالية بعد توليه العرش يمكن تفسيرها بأنها لا تدل على فشل الابن فى تفهم المشكلة بل إنها نتيجة لنجاح الأب فى معالجتها.

واستفاد سنحاريب من الوضع الجيد الذى خلفه له سرجون فكأن عمله الأول، وهو أكثر إنجازاته الخالدة، إعادته بناء المدينة القديمة نينوى واتخاذها عاصمة له والتى ظلت كذلك حتى سقوط الدولة الآشورية.

واتخذت دور شروكين (خرصباد الحالية) التى كان سرجون قد خططها وبناها عاصمة له وانتقل إليها فى السنوات الأخيرة من حكمه كحصن فقط بعد وفاته.

واضطرب سلام الإمبراطورية بعد سنتين، وذلك نتيجة حدوث عصيان فى بلاد بابل، ولأسباب غير معروفه تماماً فإن سنحاريب لم يأخذ يَدَىْ بعل فى بابل للدلالة على توليه الملوكية أو

كنائب للإله واعتبر مردوخ - أبلا- أدينا الذى ظل مخلصاً لسيده سرجون بعد أن أعيد تنصيبه عام ٧١٠ق م أن الفرصة مؤاتية لمحاولة ثانية لأخذ ملوكية بلاد بابل.

وكانت وراءه القبائل الكلدانية والآرامية كما أعطى الضمانات ثانية على تأييد عيلام له، وكان متحمساً لإقامة حلف واضح ضد آشور ولابد من وضع تاريخ إرسال مبعوثى مردوخ - أبلا- أديا إلى حزقيا (أشعيا، الإصحاح ٣٩) فى السنوات التى سبقت ثورة عام ٧٠٣ق.م.

وفى عيد رأس السنة الجديدة لعام ٧٠٣ق م عين أحد البابليين المحليين وربما نصب كألعوبة آشورية، وملكاً على بابل.

وقد تحرك مردوخ - أبلا - أدينا فوراً بقواته إلى العاصمة وخلع الملك الرسمى واستمر فى إعداد منطقة المدن الشمالية ضد الهجوم الآشورى الذى لابد سيتبع ذلك، وكانت قوات مردوخ - أبلا - أدينا العسكرية الرئيسية قوات عيلامية انتخب منها مجموعة وضعها فى كوثا.. كخط أمامى لإيقاف تقدم سنحاريب أما القسم الرئيس فقد عسكر فى كيش وقد تفوق سنحاريب على العيلاميين وذلك بإرسال مجموعة أمامية لتقطع كيش عن كوثا فى حين أخذ جيشه الرئيسى كوثا عنوة ثم التقى الجيش الآشورى الرئيسى وقضى على القوات المتحالفة فى كيش وأصبحت مدن شمال بلاد بابل فى أيدى الآشوريين ثانية.

وقد استقبلت بابل سنحاريب كما استقبلت والده من قبل بحفاوة وكانت علاقات الصداقة متبادلة حيث اقتصر السلب على قصر مردوخ - أبلا - أدينا.

ثم تقدم الجيش الآشورى لإخضاع وإزالة التحصينات لجميع منطقة الكلدانيين التى كانت آنذاك تؤلف جميع جنوب بلاد بابل وتركت المنطقة الكلدانية تحت إدارة موظفين آشوريين فى حين وضعت منطقة شمال بلاد بابل تحت حكم ملك بابل المحلى، وهو بيل ابنى Bel ibni أحد الأمراء الأجانب الكثيرين الذين عاشوا فى البلاط الآشورى رهائن وكان قد ثقف وأُعد لهذا

الغرض.

وفى عام ٧٠١ ق م حدث تمرد فى فلسطين وربما كان مردوخ – أبلا – أدينا ينوى أن يتفق ذلك وعصيانه فى بابل، وقد تورط فى هذا التمرد حزقيا ملك يهوذا (سفر الملوك الثانى ١٨ : ١٣ وما بعده) على الرغم من نصيحة أكبر مستشاريه: النبى أشعيا.

وكان حزقيا فى هذا الوقت أقوى الملوك الثانويين فى فلسطين وكان قد بسط نفوذه على بعض المدن الفلسطينية استناداً إلى ما جاء فى سفر الملوك الثانى الإصحاح ١٨ : ٨ كما كان يسعى للالتحاق مع مصر (سفر أشعيا الإصحاح ٣٠: ١– ٥) وأزيح الحكام الموالون فى المدن الفلسطينية وكان من بينهم بادى حاكم أكرون Ekron الذى سجن فى القدس، فاجتاحت قوة آشورية قوية فلسطين ودحرت القوات المصرية فى التيغة Eltekeh واستولت على المدن المتمردة (باستثناء مدينة القدس) وكافأت التابعين الموالين فى المدن الفلسطينية بإقطاعهم مناطق كانت تابعة ليهوذا سابقاً.

ولعله بسبب بعض التطورات فى بلاد بابل التى جعلت من الضرورى عودة القوات الآشورية إلى الوطن، أن سنحاريب لم يلح فى حصار القدس وسلمت مدينة حزقيا بعد أن أعلن خضوعه ودفع تعويضاً باهظاً.

أما فى بلاد بابل، فما لبث أن انسحب الجيش الآشورى الرئيسى حتى عاد مردوخ - أبلا - أدينا إلى قبيلته وبدأ تآمره بالاشتراك مع عيلام والقبائل الكلدانية والآرامية .

ونظراً لعدم وجود قوات عسكرية كافية تحت سيطرة بيل - انبى فلم يكن بمقدوره أن يحافظ على حكم البلاد بصورة فعالة وفى عام ٧٠٠ ق م كان لزاماً على الجيش الآشورى أن يقوم بغزوة إلى منطقة الكلدانيين وبحملة تأديبية على الحدود العيلامية وقد أزيح بل – انبى – وعين آشور– نادن – شم Ashuer-Nadin-Shum الابن الأصغر لسنحاريب بدلاً منه.

حكم آشـور - نادن - شم فى بلاد بابل لمدة ست سنوات مـات مـردوخ - أيلا - أدينا بعد اعتلائه العرش بفترة قصيرة غير أن عيلام ظلت تهديداً مستمرّاً لهدوء بلاد البحر.

وقامت باحتضان الفروع غير الموالية من قبيلة بيت - ياكينى، وللقضاء على هذا الخطر المزعج قررت السلطات الآشورية أخيراً أن تقوم بهجوم بحرى مباشر على المنطقة العيلامية المعنية.

2

الفصل الثاني

سرجون العظيم رجل التحرير والتوحيد

الفصل الثاني

سرجون العظيم رجل التحرير والتوحيد

□□

لقد شق على مؤرخي الحقبة الاستعمارية أن يروا في العرب منذ آلاف السنين رجالاً جسدوا مضامين التحرير والوحدة والعدالة، فعمدوا إلى تشويه الوجه الناصع لأمثال هؤلاء بعد أن هربوا التاريخ الحضري العربي ليلصقوه بغيرهم من القبائل الهمجية، فانتزعوا السومريين من الشرق، والفينيقيين من الغرب، والمصريين من الجنوب، من هويتهم العربية ليجعلوا منهم جزراً بشرية لا علاقة لها بما حولها، بل ولا بأية بقعة أخرى على هذا الكوكب.

لقد أصر أولئك المؤرخون على اعتبار السومريين شعباً لا علاقة له بالمنطقة العربية، أنزل من "حضارته" وكأنما من السماء، ثم لما برز العرب العموريون فجأة على مسرح أحداث المنطقة كلها، ومن بينها "سومر"، لم يترددوا في اعتبارهم غزاة مغتصبين للحضارة، لقد اعتدنا أن نرى العرب غزاة من البدو في تاريخ أولئك المؤرخين.

فهم مرة يجتاحون مناطق الهلال الخصيب بأسرها ويأخذون منها حضارة شعوبها ويفرضون عليها لغتهم كما يردد "نقلة" التاريخ من العرب عن كتب بعض المؤرخين والمستشرقين المغرضين، ومرة يجتاحون عيلام عسكرياً ويفرضون عليها حضارتهم وثقافتهم (صموئيل كريمر)، ومرة ثالثة يجتاحون بلاد سومر، ويأخذون منهم حضارتهم بكليتها (توينبي وغيره).

يقول الدكتور (نبيه عاقل) في كتابه "تاريخ العرب القديم وعصر الرسول" (دون أن يشير إلى المصدر الذي استقى منه هذه الأقوال مما يجعلنا نفترض أنه يؤيدها ويتبناها لنفسه) في حديثه عن الهجرات السامية: "ولما حل الساميون في وادي الرافدين الذي كان يسكنه السومريون المتحضرون، كانوا في حالة بداوة وجهل، ولكنهم ما لبثوا أن تعلموا من السومريين في بناء المنازل ووسائل الري والكتابة وغير ذلك، ومن اختلاط السومريين غير الساميين بالموجة السامية الجديدة نتج البابليون الذين قدموا للحضارة الإنسانية الكثير من ميراثها الثقافي.

وحوالي منتصف الألف الثالثة ق.م (٢٥٠٠ ق.م) حدثت هجرة سامية أخرى حملت العموريين إلى الهلال الخصيب، كما حل الكنعانيون والفينيقيون غربي الشام وفلسطين.

وبين سنتي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م هاجر العبرانيون إلى جنوب بلاد الشام أي فلسطين، والآراميون (السريان) إلى الشمال وحلوا في منطقة سهل البقاع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي.

وقد أدت هذه الهجرات إلى نتيجتين: أولاً: تخلي هؤلاء المهاجرين البدو عن بداوتهم واستقرارهم، ثانياً: اصطدام مؤسساتهم الحضارية ونظمهم الاجتماعية بنظم الأمم الجديدة التي عاشوا إلى جوارها، وقد نتج عن هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة مزدهرة متقدمة على حضارة الصحراء التي اندفع منها الساميون، ولابد لنا هنا من أن نذكر أن الدراسة العميقة لهذه الهجرات تبين لنا بوضوح قوة اللغة السامية وقدرتها على البقاء إذ إنه في كل مرة تصطدم فيها هذه اللغة بلغة أخرى كانت تثبت أنها أقدر على البقاء منها وأنها أكثر ملاءمة لحاجات الحياة".

هكذا يكتب تاريخنا في الخارج، وينقل ويدرس إلى أجيالنا في الجامعات: العرب الساميون أمة من البدو المتخلفين، والحضاريون في المنطقة غير ساميين،

وحَسْب البدوي أن يرى الحضارة حتى يستقر ويتعلم وينتصر. والبدو دائماً هم المنتصرون في عملية "تصادم مؤسساتهم الحضارية ونظمهم الاجتماعية بنظم الأمم الجديدة التي عاشوا إلى جوارها" لقد نسى المؤلف أن سبعمائة عام من الحكم والوجود العربي الحضاري المكثف في إسبانيا جعل اللغة العربية تنتصر، ولولا رسوخ الوجود العربي منذ الألف الثالث قبل الميلاد، على الأقل، في الوطن العربي الممتد من المحيط إلى الخليج لما تمكنت اللغة العربية من الصمود على امتداد هذه الرقعة خلال هذه الآلاف الطويلة من السنين رغم كل ظروف الاحتلال والتتريك والفرنجة الطويلة التي مرت بها.

أما أن يجعل من دُعوا بـ"العبرانيين"، الذين لا يشكلون إلا إحدى العشائر الضعيفة بين الآراميين، أصحاب "موجة" تشغل "جنوب بلاد الشام أي فلسطين"، وجعل الآراميين ينحصرون في منطقة ضيقة هي سهل البقاع، فهذا أمر آخر سوف نبحثه مفصلاً مع الحديث عن الآراميين.

يقول أرنولد توينبي في كتابه "تاريخ البشرية": "وعلى كل فإن حملة نارام سين السرجوني إلى جبال زاغوس لا ريبة في أمرها.. وإذا كان عمله دفاعيّاً فهو لم يكن يدافع عن (أكاد) فحسب، بل كان يدافع عن (سومر) وعن المدنية السومرية، فقد أسرت هذه المدينة الأكاديين الذين قهروها، وقبسوها بكليتها تقريباً، بما في ذلك كتابتها، وحتى ديانتها، فأكثر الآلهة الأكادية كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية، واللغة الأكادية دونت في حروف سومرية، مع أن هذه كانت آلة غير ملائمة للتعبير عن لغة من الأسرة السامية، من حيث إن جِذْر الكلمة السامية ليس سلكاً ينتظم مقاطع، بل مجموعة من ثلاثة حروف صامتة".

إن في قول توينبي هذا نموذجاً حقيقيّاً لما يكتبه جهابذة تاريخ العصر الاستعماري، ففيه:

١- إصرار على أن السومريين ليسوا عرباً.

٢- وأن السومريين شعب حضاري مستقل عن المنطقة.

٣- وأن العرب (الأكاديين) غزاة من الساميين المتخلفين.

وهذا ما كان قد أكده حرفيّاً في الصفحة ذاتها بقوله "وقد كان الأكاديون متطفلين شبه برابرة، وكان سرجون وأحفاده، مثل لوجال زغيري سلف سرجون، رجال حرب".

٤- وأن هؤلاء الساميين (ويعني العرب) البرابرة "قهروا المدينة السومرية وقبسوها بكليتها تقريباً بما في ذلك كتابتها وحتى ديانتها".

٥- وأن أولئك "الغزاة البرابرة" لم يدمروا "سومر" بل دافعوا عنها كما دافعوا عن "أكاد" بلادهم..!.

هل كان مؤرخ مثل توينبي غافلاً عن الحقائق حينما كتبها في مثل هذه الشعوذة الصبيانية؟

فقد بينا كيف أن الكتابة السومرية الرمزية لا تعني لغة شعبية محكية، وإنما هي "شيفرة" خاصة بأوساط معينة دينية وسلطوية تسربت منها كلمات أو رموز كثيرة، ولاسيما ما كان منها متعلقاً بأسماء الآلهة، والمناطق، والمعابد، ومراتب القائمين عليها، وغلال المحاصيل التابعة لها، وألقاب الملوك والحكام المقترنة بأسماء الأرباح ومقاماتها.

وحينما يقول توينبي إن أكثر الآلهة الأكادية كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية، فإنه كان أحرى به لو يقول العكس تماماً: إذ أن الآلهة السومرية هي جميعها آلهة عربية سورية عمورية مغلفة بغلالة رقيقة من الرموز السومرية الدينية، وبالنتيجة - فإن الآلهة السومرية هي نفسها آلهة الأكاديين، وكذلك الأمر نفسه فيما يتعلق باللغة.

أما أن يكون الأكاديون "متطفلين شبه برابرة"، وأن يكون سرجون وأحفاده "رجال حرب فقط" فهذا أمر آخر سوف ننظر إليه.

سرجون مجتمع المدينة ـ الدولة شبه الاشتراكية:

إن الفكرة الأساسية التي أوجدها واعتنقها العرب منذ مراحل تطورهم الأولى هي أن الإنسان وُجِدَ ليعمل، فالرب إنليل، أكثر الأرباب شعبية، هو الذي شق قشرة الأرض بفأس وخلق منها كل شيء، وهو الذي سلم تلك الفأس للـ "إنسي" وجعله يقدسها ويستخدمها في عبادته، وإذا علمنا أن كلمة "إنسي" تعني وكيل السيد أو الحاكم أو المالك، وأن الفعل "عبد" بجميع اللهجات العربية القديمة تعني "عمل" و"اشتغل" و"عابد" أو "عوبد" (باللهجة العربية العمورية) تعني عامل "فإننا ندرك أن الـ"إنسي" التي صارت تطلق على الناس العاملين عموماً، ومنها جاءت "الإنس" بمعنى الناس، هم وكلاء السيد في أرضه الذين يشتغلون فيها، وأن كلمة "مَعْبَد" لم تكن تعني مكان الصلاة وتقديم الذبائح وحسب، بل إنها كانت تعني كلمة "مشغل" الحديثة تماماً، ومن هنا كان على المؤرخين أن يفهموا معنى نشوء العبادة وتطورها لدى أولئك العرب الأقدمين.

إن هذا الاعتقاد لدى أجدادنا العرب الأقدمين كان له نتائج خطيرة في تركيب وتنظيم المجتمع من جهة، وفي فهم أسباب التطور السريع لذلك المجتمع، إن الاعتقاد بأن الإنسان وجد ليحقق الغرض من وجوده بالعمل (بالعبادة) كان أول ثورة على صعيد الفكر في تاريخ البشر، فقد قامت وانبثقت على أساس هذا التفكير مؤسسات بدت في غاية التطور منذ مراحل التشكل الأولى لمجتمع المدينة، أما أن "على الناس جميعاً أن يعملوا فقد اتخذت (العبادة) شكل جهد تعاوني منظم إلى أبعد دقائق التنظيم، وكانت النتيجة مجتمعاً منظماً".

لقد صار في إمكاننا الآن أن نبدأ بالتفريق بين مؤسستين اجتماعيتين متشابكتين، لكنهما متمايزتان، كانت الوحدة السياسية هي المدينة، وكانت الوحدة الاقتصادية الدينية هي المجتمع الهيكلي. كان كل هيكل يملك أراضيَ هي أملاك الدولة، وكان كل مواطن ينتمي إلى أحد الهياكل، وكان جميع أهل الهيكل: الموظفون والكهنة، الرعاة وصيادو السمك، الجنائنيون والمهنيون، قطاعو الحجارة والتجار، وحتى العبيد المسترقون من أقوام أخرى، يشر إليهم بأنهم "عباد السيد الفلاني" أي شغيلته، وفي وسعنا، من حيث المبدأ، أن نتصور أن كل مجتمع معبدي كان النواة الأصلية لكل مدينة، لكننا لا نعلم ما إذا كانت هذه الوضعية قد سادت

أبداً، إذ أن الألواح التي وصلتنا في عهد الأسر الأولى تطلعنا على مدن تحتوي على عدة هياكل بممتلكاتها، لقد كان رب المدينة، لغايات سياسية، ولأهمية المعبد أحياناً، هو أكبر الأرباب فيها، وقد كان العرب في المدن الرئيسية يملك أرض معبد فقط، وكانت علاقته بالأرباب الآخرين، في الغالب، أشبه بعلاقة رئيس القرية بالملاكين الآخرين وبممتلكاتهم فيها.

كانت المجموعة البشرية التي تنتمي إلى معبد مَّا تشغل جزءاً من أراضي الهيكل لصالح المجموع. وهذا الجزء، الذي - كما تأكد - لا يتجاوز الربع، يدعى البستان أو الأرض المشاع أو المشتركة "ني جنة Ni - ganna" لأن هذه الأرض كانت تحرث من قبل المجموعة كلها، وكان المشتغل فيها يسمى Murabi (المرابع)، وهنالك قسم آخر هو الأرض المقطعة إلى قرى أو مزارع والموزعة على أعضاء المجموعة لسد حاجاتهم وتدعى كور Kur وقد حافظت على وجودها في اللغة حتى اليوم، وهنالك قسم ثالث يدعى "أرض الغلال" (أرعو جلال) Ar`gilal تؤجر للمستأجرين بأجر يتراوح ما بين ثلث المحصول وسدسه، ويخزن هذا في المعبد في مستودعات الغلال حتى تحين الحاجة، ويمكن دفع القسم الأكبر من الأجرة حبّاً، لكنه ينبغي دفع قسم صغير منها بالفضة.

كان الهيكل، أو المعبد، يقدم الحَب البذار والحيوانات والأدوات لحراثة الأرض المشتركة (كما أخذت تفعل الدول الاشتراكية إلى وقت قريب)، وكان القوم الأعلون منهم والأدنون يعملون كل سنة في "الحقول التي تخص" السيد الرب، وكان الكاهن "سن جي" القائم على رأس جماعة المعبد يحدد نصيب كل واحد من الواجبات المشتركة، فكأنه وكيل السيد، ويساعده معاون أو نائب هو "ناب عند" Nab - and يراقب العمل والمخازن والإدارة. ولم تكن مخازن الحَبِّ المكدس تستعمل للبذار وحسب، ولم تكن تحت تصرف الكاهن بمفرده لاستخدامها في القرابين أو لغذاء أهل المعبد. كان، لرجال المعبد، كما ولأي شخص آخر، نصيبهم لتأمين قوتهم، بينما ترد بعض ثمار العمل المشترك إلى المواطنين على شكل حمص من الشعير والصوف، توزع عليهم بانتظام، وعلى شكل حصص إضافية، أيام الأعياد.

ومع أن الحصص لم تكن متساوية، ولا كانت الواجبات المفروضة على كل الناس شاقة بنفس المقدار، فإننا نلاحظ هنا حقيقة لا مثيل لها في العالم القديم، وهي أن جميع أعضاء المجموعة كانوا، من حيث المبدأ، متساوين، كان كل واحد منهم يتناول حصة وقطعة أرض لتأمين حاجاته. وكان الجميع يعملون في الأرض المشتركة وفي الأقنية والسدود، ولم يكن هنالك وجود لطبقة عاطلة، وكذلك لم يكن هنالك وجود لأقنان محليين. كان بعض الأغراب أو بعض أسرى الحرب يقتنون كعبيد (كعمال) لكن الأفراد قلما كانوا يملكونهم، كان العبيد يعملون في المعبد إلى جانب الأحرار كحمالين وجنائنيين، أما البنات السبايا فكن يوجدن بأعداد كبيرة كحائكات، دون أن يمتلكهن أحد، وكن يساعدن في المطابخ، وفي مصانع الجعة (البيرة)، وفي الزرائب حيث كان يُسَمِّرّ الخنازير.

كانت الأرض قطعاً تختلف من حيث الحجم، حتى وإن كان توزيعها يجري على رجال ينتمون إلى المهنة نفسها، إننا لا نستطيع تعليل الفروقات، وليس لدينا إثبات على وجود أراضٍ واسعة في أيدي أفراد من جماعة المعبد، لكنه بوسعنا أن نفترض أن وجود عدة جماعات هيكلية في المدينة الواحدة أتاح للبعض أن يتصرفوا بقطع من الأرض في أكثر من مجموعة واحدة. ونحن نعلم عن معاون كان يملك حوالي ١٢٠ فداناً، وعن مراقب لمخازن الخشب كان يملك نحو ٨٠ فداناً، لكن هذه الحالات تمثل خروجاً على النظام الأساسي، وأهم من هذا هي الحقيقة بأن القطعة الصغرى المسجلة في كشوف المعبد وهي جان Gan أو سبعة أثمان الفدان كانت تكفي لسد حاجات المرء، وأن الزواج بامرأة واحدة، وندرة وجود الجواري كانت من الأمور التي تحدد المساحة التي يمكن لعائلة واحدة أن تحرثها.

وقد ورد ذكر النساء أيضاً كمالكات لقطع الأرض، وهذا يدل على أنهن كن يخدمن المجموعة بشكل مَّا، إذ إن القاعدة الأساسية في المجموعة الهيكلية كانت أن الشخص يملك الأرض لكسب عيشه، لأنه كان يضع مهارته في التخصص لخدمة المجموعة. فالراعي، والسماك، والنجار، والحداد، جميعهم يقدمون لمخازن المعبد كميات إنتاجهم، أو يكرسون أوقاتهم كلها للعمل في ممتلكات المعبد،

(أو ليس هذا هو ما طبقه أحفادهم بعد أربعة آلاف عام إبان الحركة الإسماعيلية الاشتراكية التي دعيت بـ "القرمطية"؟).

"كان العمل في الحقول موسمّياً في الغالب، ففي وقت البذار كان كل قوي الجسم، بغير ريب، يعمل في الحقل، كما كانت الحالة في إنكلترا في القرون الوسطى، لكنَّ الفلاحين لم يكونوا طبقة منفصلة أو منبوذة، فكل مواطن، سواء أكان الكاهن أم التاجر أم المهني، كان، في الواقع، فلاحاً يعمل في قطعته لتأمين قوته وقوت المتوجب عليه إعالتهم، وبعد البذر، وجمع الحصاد، يبقى متسع كبير من الوقت لتطوير المهارات الخاصة وتعليمها واستغلالها، وهنالك شبه طريف بين هذه الحالة وبين القرى في زمننا هذا، حيث الفلاح أو العامل في أحيان كثيرة يتخصص في مهنة معينة، إن هذه الحالة آخذة بالزوال في أوروبا بسرعة، وهي لم تنتظم أبداً".

وقد أشار م.دافيد في مجلة "تاريخ الحقوق" (الجزء ١٤ ص ٣- ٦) في مقال إلى أن "اشتراكية الدولة" في عصور سومر الأولى لم تستبدل تماماً باقتصاد حر إلا تحت ظل السلالة البابلية الأولى حوالي ١٨٠٠ ق.م، وفي ظل السلالة الثالثة في أور أمكن للملكية الخاصة أن تتألف من منازل وحدائق تابعة لها، لا من الحقول الصالحة للزراعة التي كانت تخص المعبد أو الملك.

لقد كان - على هذا النحو - اقتصاد الهيكل ملكاً للناس كمجموعة، وفي سنوات تدني الإنتاج عندما يقل المتسلم من بعض البضائع المستحقة للمعبد كل شهر تنشأ الديون وتسجل على أن تُدّفَع فيما بعد. ولكن تنظيم الاقتصاد الهيكلي. كان، على وجه الإجمال، يستهدف البساطة أكثر مما يستهدف الدقة، وفي المدينة العمورية السومرية كان الناس، إلى جانب كونهم مجتمعاً منظماً، يجدون مجالاً كبيراً للأشغال الفردية، إن الفرق بين القيم المحددة المستعملة في المعاملات مع المعبد من جهة، والغلة الفعلية للحقول والقطعان والمعامل، من جهة ثانية، كان لابد من أن يفسح المجال لشيء من تكديس الثروة الخاصة، وبالتالي للمقايضة، كان بوسع المهنيين أن يستخدموا مهاراتهم الخاصة لقاء عمولة شخصية طالما أنهم كانوا يستخدمون موادا لا تعود إلى مخازن الهيكل.

وبوسع الراعي أن يتصرف بأي زيادة من القطيع عن الرقم المحدد له في القانون، وباستطاعة الصياد أن يتصرف ببقية الصيد بعد أن سلم الهيكل نصيبه الشهري، وكان التجار يسافرون إلى الخارج للحصول على الحجارة الكريمة والذهب والفضة والنحاس والرصاص والخشب والروائح العطرية للهيكل، ويقدمون مقابل ذلك الحبوب والبلح والبصل وما أشبه ذلك، لكن فرحتهم الحقيقية كانت ناتجة عن إنتاج مهارة الناس لا من التربة الغنية للبلاد، وكانت البضائع المرسلة إلى الخارج تحتوي، قبل كل شيء، على المنسوجات - الأقمشة الصوفية والستائر والسجاد - وعلى الأسلحة والمجوهرات والأشياء المعدنية المصنوعة في السهل السومري من المواد المستوردة.

كان التاجر يحصل على قطعة أرض كمكافأة على جهوده التي يبذلها لصالح المجموع في عملية الاستيراد والتصدير.

وإذا قيل - بعد ذلك - إن جماعة "الرب" الفلاني (المجموعة الهيكلية) كانت تعيش في ظل نظام من الاشتراكية الدينية، فينبغي لنا أن نضيف أن هذا الاقتصاد المنظم كان يشكل نواة قاسية محافظة بمجال واسع من تجارة خاصة نصف حرة".

كان العرب العموريون قد نجحوا، ولأول مرة في تاريخ البشرية، في إقامة أول مجتمع اشتراكي من نوعه يتحلى نظامه بمرونة منقطعة النظير.

كما أنهم وضعوا الأسس الحقيقية، ولأول مرة أيضاً في تاريخ البشرية، لتضافر جهد الفرد وجهد المجموع، كما وضعوا في صلب مفهوم العبادة الدينية وعياً اجتماعيّ حياتيّ متقدماً جعل المعبد والمؤسسة الاجتماعية يندمجان في كُلٍّ واحد لا تكاد تميز فيه حدود الواحد عن الآخر، كما أن الوظيفة الدينية اندمجت بالوظيفة الاجتماعية - الاقتصادية ولم يعد ثمة حاجز بين الوظيفتين، وقد يبدو مثل هذا الأمر، وبعد ستة آلاف عام، غريباً علينا نحن الذين كنا نتصور بدائية تلك الشعوب.

يقول هنري فرانكفورت عن المجتمع العربي العموري في سومر : "إنه مؤسسة

من صنع الإنسان يعلو على الانقسام الطبيعى الأولى لمجتمع تألف من العائلات والقبائل، وهو يؤكد أن المكان لا القرابة هو الذى يحدد علاقات المرء، والمدينة فوق ذلك ، لا تعترف بالسلطة الخارجية، قد تخضع لجار، أو لحاكم، لكنَّ ولاءها لا يمكن أن يكسب بالقوة، لأن السيادة فيها تكمن فى مجلسها الذى يتألف من مواطنيها، وهكذا كانت المدن القديمة فى ما بين النهرين تشبه مدن اليونان ومدن الرابطة التجارية فى ألمانيا، ومدن إيطاليا فى عصر النهضة فى نواحٍ كثيرة، ففى كل هذه الحالات نصادف استقلالا محليا، ونلحظ أن كل مواطن مسئول عن المصلحة العامة، هذا إلى جانب جماعة صغيرة من الرجال المتنفذين الذين يعنون بالمسائل العامة"، فكيف - بعد هذا - يصح أن نتعامل مع تلك الشعوب على أساس عشائري وقبلي، ونقبل بتعميم مدونات التوراة التى لم تتجاوز حدود العشيرة البدوية (أولاد يعقوب) فى بقعة جد ضيقة لا تتعدى حدود مجموعة قرى ومضارب خيام موزعة بين عدة بلدات فى ثنايا بلاد غامد وزهران، على هذا التاريخ العربى السوري الحضاري العظيم بمجمله!

أما عن المؤسسات الديمقراطية، فقد كان ثمة مجلسان: مجلس الأعيان (الشيوخ) ومجلس للشباب، ويقول هنري فرانكفورت: "لقد كان للمجلس سيئة كبيرة، وهى أن الحرية كانت تبلغ درجة غير مألوفة، وكان الخضوع لإرادة الأكثرية، كما يعبر عنها فى الاقتراع، غير معروف، وقد كان المجلس يستمر فى المناقشة تحت إرشاد الكبار حتى يتوصل إلى الإجماع العملي، وقد يكون هذا نتيجة للاتفاق الحقيقى، أو العاطفة الجماهيرية، أو بسبب توافق حذر بين المتخاصمين على خطة للعمل تدعو إليها جماعة قوية، وعلى كل حال لم يكن يتوصل إلى هذا بسهولة، وفى حالة الطوارىء عندما تدعو الحاجة إلى قرار سريع أو عمل له غاياته الخطيرة، كانت المدينة فى ما بين النهرين (والجمهورية الرومانية فيما بعد) تضع نفسها فى يديْ دكتاتور، وفي سومر كان هذا الحاكم المطلق يسمى "لوجال" أى الرجل الجليل (العظيم) ويقصد بها عادة "الملك".

ومن الأمثلة الحية والتى تشهد على الدور الذى يلعبه كل من المجلسين "مجلس

الأعيان (الشيوخ)" و"مجلس المواطنين الأحرار (الشباب)" ما حدث أيام الملك جلجامش بين مدينتي أوروك وكيش، فقد كانت مدينة أوروك فى الجنوب تسعى إلى توسيع رقعة حقولها الزراعية ومصادر مياه الري على حساب أملاك مدينة كيش، فأكد ملكها (واسمه عقا) جدية الخطر وهدد سكان أوروك بإعلان الحرب إن لم يعلنوا ولاءهم له، فى ذلك الوقت العصيب بالنسبة لمدينة أوروك استدعى جلجامش مجلسي أوروك إلى الاجتماع ومناقشة الموضوع واتخاذ القرار المناسب.

وتصف لنا القصيدة الملحمية كيف أن الملك جلجامش توسل إلى مجلس الشيوخ بشدة وحرارة من أجل رفض الخضوع لملك كيش، والموافقة على حمل السلاح والقتال حتى انتزاع النصر، لكن الشيوخ رفضوا توسلاته، وآثروا السلام على الحرب.

استاء جلجامش من قرار مجلس الشيوخ، ولجأ إلى مجلس أحرار المدينة المؤلّف فى معظمه من الشباب الأحرار الأقوياء، فقرر هؤلاء عدم الخضوع، وأجمعوا على القتال.

لقد كان ذلك فى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، حينما لم تكن بقية شعوب العالم قد توصلت إلى أية صيغة اجتماعية مقبولة للعيش سواء على صعيد الفكر، أو على صعيد المؤسسات الاجتماعية، إن نظام ديمقراطية المجالس فى المدينة - الدولة الذى ابتدعه العرب السوريون العموريون فى سومر شرقاً وفي الساحل العمورى (الفينقي) غرباً منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد هو الذى نقلوه إلى اليونان فيما بعد، ثم أخذ العالم الغربي يتغنى بالديموقراطية اليونانية، معتبراً ذلك إبداعا يونانيّاً، إلى أن أظهرت المكتشفات الآثارية كنوز الحضارية المخبوءة تحت الأرض الممتدة من أوغاريت على ساحل البحر المتوسط إلى أريدو على شاطئ الخليج العربى.

وقد كانت هذه السلطة الملكية التى تمنح للحاكم فى ظروف طارئة سلطة مؤقتة، وتسمى "بعالة" أى سيادة، وقد كتبها المؤرخون الأجانب Baala ثم ترجمت إلى العربية "بعلة" خطأ، وعند انتهاء الطوارىء كانت السلطة تعود إلى المجلس، لكن الواقع الذى تعيشه المدن السومرية كان يتطلب مثل تلك السلطة بين فترة

وأخرى، نتيجة لوجود القبائل الهمجية المتربصة بصورة شبه دائمة فى مناطق الجبال القريبة فى الشرق والشمال، كما أن الحقول القريبة من المدن ، ومسائل الري، والحصاد، وتجفيف المحاصيل ونقلها، وتأمين سلامة النقل، كل ذلك كان يتطلب وجود سلطة مباشرة ، تبادر إلى اتخاذ التدابير والقرارات الصارمة فى الوقت المناسب.

إن ضرورة تأمين الدفاع المتواصل من جهة، وتأمين سلامة سير الأعمال والمؤسسات فى المدينة - الدولة، من جهة أخرى، أدت إلى ظهور سلطة دائمة للحاكم المطلق "لوجل" أو لوغل" فى هذه المدينة أو تلك، أما فى بعض المدن الأخرى، فقد كانت تمنح مثل هذه السلطة المركزية التى تقتضيها طبيعة الأخطار إلى زعماء آخرين أدنى مرتبة من "لوجل" لكنهم يشغلون وظائف هامة دائمة فى الأعمال الإدارية داخل المعبد أو خارجه، ثم يصبح الواحد منهم يسمى "إناسي، أو إن سو"، وتعنى وكيل السيد، وكيل الرب على الأرض، إن كلمة "لوجل" مؤلفة من "لو" بمعنى الرجل، (وقد احتفظ بها فى الوطن العربى كله فى اللغة اليومية الدارجة حتى اليوم فى صيغة "وّلو" و "وَلَو" أي يا رجل)، و"جل" أو "غل" وتعنى الجليل، العظيم، الكبير، الضخم، المارد، ومنها كلمات جلّ، جليل، جَلَلٌ.. ومنها جاءت كلمة "غول" فى الحكايا العربية القديمة أيضاً، وهذه اللفظة تتكرر عند العرب العموريين كثيراً سواء فى سومر، أو فى منطقة الساحل الغربي.

وهكذا يصبح معنى "إنسي" أو "إنسو" أو "إنزي" أو "إنزو" بحسب اللهجة الشرقية أو الغربية، يعنى نائب السيد أو وكيله، ثم أطلقت على الناس جميعاً "الإنس" جميعاً، كوكلاء للسيد الرب في ملكه.

وكانت مهمة "الإنسي" في الأساس أن ينسق المجموعات الهيكلية داخل المدينة، فيعيد لكل منها نصيبها من الواجبات المشتركة في الأبنية والأقنية والسدود، وكانت هذه الأعمال توزع بين النقابات والأفراد والأعضاء بواسطة الكاهن أو المعاون، ثم إن الإنسي كان يتولى، فوق ذلك، شئون الدفاع، وتنظيم التجارة، وشئون العلاقات مع المدن الأخرى، ولقد كان الجنود النظاميون تحت قيادته الشخصية المباشرة، ويشكلون بذلك مصدراً هاماً لقوته داخل المدينة، وكان، ككل

مـواطن آخـر، يتلقى قطعـة أرض لمعـيشـتـه، لكن حقـوله كـانت جـزءا من الأرض المشتركة، وكان يرثها بعض الناس كجزء من واجب المجموعة، وهنا، تبـرز الفرصة مهيأة من أجل إساءة استعمال السلطة وبالإضافة إلى ذلك فقد صار من المألوف أن يعـتـرف بعظمـة مـركزه وقـوة نفوذه، والحـاجة إلى عطفـه وعنايتـه، عن طريق تقديم الهدايا له ولأقاربه في المناسبات العامة والخاصة، كما صار يتقاضى أجرا من أجل اتخـاذ خطوات أو قـرارات أو تدابيـر مـعينة من أجل الأفـراد من الناس، كتقرير طلاق، أو إلغـاء عقوبة، أو فـرض ضريبة، أو غيـر ذلك من الأمـور الأخرى، وفى أثناء إدارته للهيكل الرئيـسي للمـدينة صـار يبـحث عن أقاربه والمقـربين منه لتعيينهم في رئاسة المجموعات الهيكلية الأخرى.

وهكذا بدأت النظم الاجتـمـاعيـة الأولى تنحـو منحى آخـر، متـجـاوزة كل الأطر التى نظمـتـهـا في البداية، والغـايات التى أحدثت من أجلها لتسيـر بالمجتمع في طريق التمايز الطبقى.

لقـد بدأ الحكام "والإنسـي" يسـتـغلون الظروف التـى أتاحت لهم مـثل تـلك السلطات من أجل إحكام قبضاتهم على مـرافق المدينة وثرواتها فصاروا يعمدون إلى افتـعـال الصـراعـات بين مدينة وأخـرى، كما يعـمـدون إلى مصادرة الحـقـول الجـمـاعيـة ليـبنوا عليـهـا قـصـوراً أو قـلاعـاً إقطاعيـة، ويزيدون من الضـرائب المفـروضـة على أفـراد الشـعب، ثم أخـذوا يطورون الـواقع الاجـتـمـاعـى الروحي للمعبد، الذي كان قد تأسس منذ البـداية على الواقعية، وحب العمل، وعلى الروح الجماعيـة، والتعاون، والمحبة، ومـساعدة الآخرين، فـصار القـائـمون عليه يبتكرون وسـائل غيبية تربطهم مباشـرة بالآلهة، جاعلين من أنفسهم وكلاءها على الأرض، كمـا أخذوا يرجـون بأن سلطتهم مـسـتـمـدة من السـمـاء مبـاشـرة، وليس لأحـد أن يعـارض أو يعـتـرض. إن ذلك كلـه أدى إلى الغـاء تلك المؤسـسـة ودورها الديموقـراطى، الاجـتـمـاعـى، التعـاوني، الإنسـاني كليـة، كمـا صـارت ملكيـة الهيكل مقدسـة، وإرادة القائمين عليه مقدسة أيضاً، وبالتالى، فإن في إمكانهم ابتزاز كل مـا يرغبـون به من ثروات المعبـد الجماعيـة، وهنا ظهـرت الحـاجة الماسة إلى طرق وأساليب لإخفـاء حسابات المعبـد عن عامة أفراد الناس العاملين في حقـوله وفى

تجارته من جهة، ولإضفاء تلك الصيغة الخاصة المقدسة التى تميز جماعة الهيكل عن غيرهم من بقية أفراد الشعب من جهة أخرى، وتكرس ذلك التمييز عن طريق خلع رموز وألقاب دينية، وتنظيم أدعية وصلوات خاصة لا يفهمها ولا يقدر على أن يشارك فيها غير أوساط معينة تقررها جماعة الهيكل نفسها، فبدأت أول خطوات الكتابة الرمزية "الشيفرة" التى تطورت إلى رموز مكتوبة ومنطوقة يتبادلها أفراد تلك "الطبقة" الناشئة، والتى جعل منها المؤرخون فيما بعد لغة حقيقية لشعب آخر لا يمت إلى العروبة بصلة، وأسموها اللغة السومرية، كما بدأت فترة "البوبية" في سومر تنفصل عن معناها الواقعي الحقيقي الذى بدأت به في السيادة والحكم والملك على الأرض في الواقع، وتنتقل إلى مضمونها الغيبي، وكأنما خلع ذلك الواقع قشرته أو جلده الذي كان يلبسه، وتركه يرتفع في الفضاء ويغيب.

التناقضات الطبقية :

إن نشوء فئة هيكلية متسلطة جديدة في المجتمع العربي، سواء أكان ذلك في منطقة سومر، أو في السهل، أو على السواحل العربية، وإصرارها على توجيه دفة تطور المجتمع في خط التطور الطبقى الاستغلالي، خالقة في سبيل ذلك وسائل، ومبدعة أساليب سلطوية مادية، وفكرية عقائدية دينية معينة، لم يكن ليمر دون أن يترك آثاره على بقية فئات المجتمع الأخرى، محدثا ردود فعل تتراوح بين رد الفعل اللين أو الفعل العنيف.

وإذا كان نظام المدينة - الدولة الذى ابتدعه العرب قد تمكن من الصمود طويلا في منطقة سومر والسواحل الغربية، فإن احتدام التناقضات في الشرق بين المدن - الدويلات وبين الغزاة من القبائل الهمجية، قد عجل في تفاقم الشعور بالخطر نتيجة للصراعات الداخلية بين المدن التى أخذ يفتعلها الحكام ورؤساء الهياكل من أجل استمرار سلطاتهم الطارئة المطلقة، ومن أجل توسيع رقعة موارد ثرواتهم المكدسة، ولقد برزت مصالح اجتماعية متناقضة تمثلت في جماعة الهيكل الذين أصروا على جمع السلطتين الدنيوية والدينية في أيديهم وعلى تغليفهما بغلاف من "الإرادة الإلهية" من جهة، وفى فئات الصناع من جميع

الحرف، والفلاحين والرعاة، والبحارة، والتجار، ويقف على رأس هؤلاء جميعا ملك المدينة، من جهة أخرى.

لقد شعر بعض ملوك المدن بأن عهدا من الاضطراب الدموي قد ينشأ نتيجة لإسراف جماعة الهيكل في استخدام سلطاتهم من أجل تنمية ثرواتهم ونفوذهم على حساب مصالح باقى فئات الشعب، كما أن وحدة هذا الشعب داخل كل مدينة على حدة، وضمن المدن كمجموع في وجه الغزاة الخارجيين، صارت مسألة يشك فيها مما قد يجر نتائج وخيمة على المنطقة بأسرها ضمن تلك التفاعلات برزت اتجاهات ثلاثة للخروج من المأزق الذى أخذ خطره يستفحل يوماً بعد يوم.

الاتجاه الأول : وهو أن يبادر أحد الملوك إلى إيقاف الهيكل عند حده، وإعادة الأمور إلى نصابها عن طريق القيام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية هامة تلغى كل مكاسب الهيكل، وتعيد لجماهير الشعب ثقتها بنفسها وبحكامها وبمؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية، أى أن هذا الاتجاه أعطى الأولوية لعملية الإصلاح داخل المدينة - الدولة، صارفا النظر عن الأخطار الخارجية المحدقة، أو أنه دفع بها إلى المرتبة الثانية، وكان ممثل هذا الاتجاه "الإنسي" الملقب بـ"أوروكاجينا" في لغش.

الاتجاه الثاني : وهو الذى رأى ضرورة وحدة جميع المدن والاستعداد لمجابهة الأخطار الخارجية المحدقة، بصرف النظر عن كل ما يجري في الداخل من تناقضات وأخطاء قاتلة، فغفل بذلك عن أن تلك التناقضات المحتدمة في الداخل لا يمكن أن تجتمع في وحدة متراصة أمام أى غزو محتمل في الداخل لا يمكن أن تجتمع في وحدة متراصة أمام أى غزو محتمل من الخارج وقد يؤدي إغفال الحلول الداخلية إلى تفاقم حدة الصراع، مما قد يؤدي إلى انهيار المجتمع الموحد الجديد برمته فور سقوط الحاكم الدكتاتور الذى وحده القوة في قبضته وقد مثل هذا الاتجاه الحاكم المطلق في مدينة (أما) الملقب بـ "لوجال زاغيزي" (السيد الجليل رب جانب الوادي).

والاتجاه الثالث : وهو الذي كان يرقب الأمور بيقظة وترصد، عاملا على تجميع قواه من أجل الانقضاض في اللحظة المناسبة على نظام الدويلات ـ المدن ـ

حاملاً معه نظاما إصلاحيا في الوقت نفسه، دون أن يترك مجالا للتناقضات كي تستفحل وتتفاقم إبان سقوط نظام الدويلة المدينة إنه برنامج التوحيد التحريري، الذى بدأه العرب العموريون منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وصار من بعدهم برنامج عمل لكل تنظيم وطني أو قومي ثوري حتى وقتنا الحاضر، وقد مثل ذلك الاتجاه سرجون (شروكين) الملقب بالأكادي.

حركة أوركا جينا الإصلاحية :

ولقد شاء منطق تطور الأحداث أن يبدأ ملك لغش الملقب بـ "أوركاجينا" التحرك، فقد أعلن أنه تعاقد مع "تنجرسو" (رب مدينة لغش) على "ألا يتخلي عن اليتيم والأرملة للرجل القوي" ووضع حدا للكثير من المساوئ "لقد استرجع المراكب من سيد البحار، واسترد الغنم والحمير من الرئيس الراعي، واستعاد الضريبة التى كان يدفعها الكاهن إلى القصر" بعد أن كان قد أبطلها رجال الهيكل، وهذه "التغييرات" والكثير مما يشبهها، مما هو مسجل فيما يدعى بالنصوص الإصلاحية، تعني أن الصلاحيات التي اغتصبها الرؤساء والموظفون أبطلت، وأن هذه الحقوق أعيدت مرة أخرى إلى الهيكل وحده كعضو حيوي في المجموعة.

وقضي أوركاجينا على المساوئ التى ارتكبها أسلافه أيضاً فتدخل فى تنظيم حتى الجزئيات اليومية التافهة، ومنع (ولنستعمل كلماته نفسها) "ثيران الرب من حراثة حقل البصل الخاص بالحاكم (لوجال)"، كما أنه خفض أجور الدفن وخدمات الصلوات، وأعاد لرجل الطبقة الدنيا حقه بأملاكه: عندما يولد حمار جيد لجندي ملكي ويقول له رئيسه "أنا أشتريه منك"، فإذا سمح له بأن يشتريه يقول له : "زن لى من الفضة مقدار ما تسمح به نفسك، وإذا لم يسمح له بالشراء ليس للرئيس أن يتعرض له".

يقول المؤرخ ول ديورانت حول هذا الموضوع :" وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوركاجينا ملك (لغش) ملكاً مصلحاً، مستبداً مستنيراً، أصدر المراسيم التى تحرم استغلال الأغنياء للفقراء، واستغلال الكهنة لكافة الناس، وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب "ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب، أو يستولي على ضريبة من الفاكهة"، وضغطت رسوم دفن الموتى إلى خُمْس ما كانت عليه، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية، وكان مما يباهي به الملك أنه "وهب شعبه الحرية" وما من شك فى أن الألواح التى سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة فى التاريخ، واقلها ألفاظا، وأكثرها عدلاً".

ويضيف فى مكان آخر قائلا :" فلما أسرف الكهنة فى ابتزاز أموال الناس نهض أوركاجينا ، كما نهض لوثر فيما بعد، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم، ويتهمهم بالرشوة فى توزيع العدالة، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع

والصيادين ثمرة كدهم، وأفلح وقتاً مَّا فى تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين، وسن قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التى تؤدَّى للمعابد، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز، ووضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك"، لقد فصل أوركاجينا بين الدِّين الذي تكون حديثا لغايات ومصالح طبقية بحتة، وبين الدولة ومؤسساتها، وربط جميع الفئات وأفراد الشعب بسلطة الملك، ولكنه لم يتمكن من القضاء على ما أنتجه الكهنة من فكر ديني جديد، بل ظل ذلك الفكر الغيبى يفعل فى بعض الأوساط فعل السحر، وجنباً إلى جنب مع المؤسسات الاجتماعية الأخرى، مما خلق بداية جديدة للتطور الروحي الاجتماعى فى خطين: اجتماعى واقعي علمي مادي، وروحى غيبى دينى يقوم عليه وعلى تطويره ودفعه رجال الهيكل.

"ثم رافق أوركاجينا إصلاحاته الجذرية بشريعة أعلنها على شعبه، وكانت الشريعة الأولى وهى التى عرفت بـ "شريعة لبت عشتار" وأوحت لحمورابي، بدون شك، كتاب الشرائع الذى كان هدية سوريا الأولى للعالم القديم وللحضارة العالمية".. إن أهمية الانقلاب الإصلاحي الذى قام به أوروكاجينا تتجلى بصورة خاصة فى الصراع الأبدي القائم بين الفكرة المثلى الكامنة فى جوهر الأديان جميعا، والمعبرة عن خير وسعادة وصالح جميع البشر، بعيدا عن الظلم والزيف والاستغلال والكذب، وبين استغلال رجال الدين للدين من داخله ليوجهوه، أداة ووسائل وسلاحا إلى الخارج، تحقيقا لغايات شخصية ، ومصالح أنانية ضيقة وشريرة، فيبتدعون أمورا وأفكارا وطقوسا ما تلبث أن تطغى على مجموعة الفضائل البدئية الأولى التى بها ومن أجل إحيائها فى نفوس البشر وجُد الدِّين، وكما قيل "إن شر ما ابتليت به الأديان هو رجال دين بلا دين"، فإن هذا بالضبط هو ما ابتلى به المجتمع العربي حينما اضطر الملك الكاهن أوروكاجينا إلى القيام بالثورة على رجال الدين من بين صفوفهم ذاتها، فكانت حركته أول تعبير حقيقى عن هذه الظاهرة التي انفكت تلازم جميع الأديان فيما بعد.

ولقد دون لنا حقيقة هذا الانقلاب مؤرخ سومري منذ حوالي ٤٥٠٠ عام على ثلاثة مخروطات من الطين ولوح بيضاوي، ولقد وجد المنقبون الفرنسيون هذه الوثيقة فى خرائب لغش عام ١٨٧٨، وترجمها لأول مرة فرنسوا تورودانجان، ثم أرموبيل، وهى أول وثيقة فى التاريخ تذكر كلمة "الحرية".

يقول المؤرخ الذى يروي لنا وقائع الأحداث بلغتة البسيطة الخاصة: "وضع ناظر الملاحين يده على المراكب، وقبض ناظر الماشية على الماشية، كبيرها

وصغيرها، واستحوذ ناظر صيد السمك على مصايد السمك، وإذا المواطن من لغش أحضر غنمه إلى القصر لجز الصوف عليه أن يدفع خمس شيقلات ووزيره شيقلاً واحداً، إذا صنع عطار نوعاً من الزيت حصل الإيشاكو على خمسة شيقلات والوزير على شيقل واحد، وناظر القصر على شيقل آخر، وأما عن المعبد وأملاكه فقد استحوذ عليه الإيشاكو وكأنه ملكه الخاص.

استعملت ثيران الأرباب لحرث أراضي الإيشاكو لزرع البصل، كما خصصت أفضل حقول الرب لزراعة البصل والخيار العائد إلى الإيشاكو، وفوق ذلك فإن موظفي المعبد البارزي، وخصوصاً السينجي اغتصبت حميرهم وثيرانهم والكثير من حبوبهم.

حتى الموت لم يخلص الناس من الجبايات والضرائب، فعندما يؤتى بالميت إلى المقبرة ليُدّفن يحضر عدد من الموظفين والطفيليين، ديدنهم الاستحواذ من أهل الميت على مقادير من الشعير والخبز والجعة والمؤن المختلفة، من أقصى الدولة إلى أقصاها انتشر جباة الضرائب، فلا عجب إذا تضخمت ثروة القصر ورخاؤه، حتى أصبحت أراضيه وأملاكه تشكل عقاراً واسعاً متصلاً.

"بيوت الإيشاكو وحقول الإيشاكو، بيوت حريم القصر، وحقول حريم القصر، بيوت أطفال القصر وحقول أطفال القصر، ازدحمت الواحد إلى جانب الآخر.

فى هذه الفترة من انحطاط الشئون السياسية والاجتماعية فى لغش برز حاكم جديد يخاف الله، هو أوركاجينا الذى أعاد العدل والحرية إلى المواطنين المظلومين، رفع يد ناظر الملاحين عن المراكب، ويد ناظر الماشية عن الماشية كبيرها وصغيرها، أزاح ناظر صيد السمك عن مصائد السمك، وأزاح جابي الفضة التى فرض دفعها من أجل جز الغنم الأبيض، وإذا ما طلق رجل امرأته لن يحصل الإيشاكو ولا وزيره على أى شىء، وإذا ما أعد العطار زيتا فلا الإيشاكو ولا الوزير ولا ناظر القصر يحصل على أى شىء، وإذا ما جىء بميت إلى المقبرة للدفن تقاضى الموظفون أقل بكثير من ممتلكات الميت مما كانوا يتقاضونه فى السابق، وفى بعض الحالات أقل من النصف بكثير أصبحت أملاك المعبد موضع احترام كبير، ومن أقصى البلاد إلى أقصاها لم يعد هناك جاب للضرائب، فإن أوروكاجينا قد "حقق الحرية" للمواطنين فى لغش".. "فإذا كان بيتٌ الوضيع بجوار بيت الثري الكبير، وقال له الرجل الكبير أريد أن أبتاعه منك، فإذا عزم الرجل الكبير أن يشتريه منه وقال الرجل الوضيع: أدفع لي الثمن الذى أراه مناسباً ولم يوافق الرجل الكبير فلا يحق لذلك الرجل الكبير أن يتملك بيت الرجل الوضيع".

"وطهر أوروكاجينا المدينة من المرابين واللصوص والقتلة، فإذا هيأ الرجل الفقير بركة لصيد السمك فلا يجرؤ أحد الآن أن يسرق سمكها، ولا يجرؤ الموظف الثري أن يعتدي على بستان أم الفقير بأن يقطع الأشجار أو يغتصب الثمار كما كان يجري سابقا، لقد قطع أوروكاجينا عهداً مع ننجرسو رب لغش بأنه لن يسمح بأن يقع الأرامل واليتامى فريسة لظلم الأقوياء".

لكن أوروكاجينا لم يحكم سوي ثماني سنوات، إذ قام ممثل الاتجاه الثاني لوجال زاغيزي أنزي (ملك) أوما نحو ٢٣٧٥ ق.م، واحتل لغش، وأوروك، وأور، وكيش، فأطاح بأوروكاجينا المصلح، ونهب المدينة، وذبح أهلها فى الطرقات، مستخدما العنف المطلق وحده فى توحيد بلاد عمورو كلها شرقاً وغرباً حتى البحر المتوسط، وحكم مدة ٢٥ عاماً، وكان تحت إمرته خمسون حاكما، لذا يسمي بعض المؤرخين عصره "عصر بدء الإمبراطوريات".

لقد استخدم لوجال زاغيزي فى جيشه مقاتلين مرتزقة ممن أُسروا من الجماعات والقبائل الهمجية الغازية، واعتمد أسلوب التقتيل والإرهاب فى سبيل بسط سيطرته ونفوذه على الشعب فى المدن دون أن يحمل معه أى برنامج أو خطة مستقبلية لبناء دولته التى جمع أطرافها بالعنف بين يديه، فسرعان ما أحس الشعب بخيبة أمل مريرة، إذ كان فقده لمثالين ماضيين، يتمثلان فى الديمقوقراطية الاجتماعية التعاونية الأولى وفي إصلاحات أوروكاجينا، دافعاً عظيماً إلى تزايد الشعور بالنقمة ضد الوضع الجديد من جهة، كما فتح الأبواب واسعة أمام رجال الهيكل لأن يستعيدوا نشاطهم مستغلين نقمة عامة الناس من جراء أعمال القتل والعنف دونما مبرر التى مارسها لوجال زاغيزي فيما بينهم من جهة أخرى، إن ذلك كان من شأنه أن يجعل قطاعات هامة من السكان تفضل الإذعان لمشيئة الأرباب والكهنة فى المعابد على الانقياد الأخرس للموت على أيدي جنود لوجال زاغيزي السافحين لمجرد فرض السيطرة.

فى خضم هذه الأحداث المتأرجحة ما بين دعاة الإصلاح ودعاة العنف المطلق فى الداخل، وأمام الأخطار المحدقة بالوطن ككل من الخارج، يتمخض الشعب العربي عن ولادة أحد أكبر عظمائه، إنه سرجون العموري، الملقب بالأكادي.

ميلاد سرجون ونشأته (٢٣٥٠ - ٢٣٠٠ ق.م) :

أجمعت كل الروايات على أن "سرجون" ولدته إحدي خادمات المعبد، وعاش دون أن يعرف أباه، وككل الملوك والحكام العرب الأوائل لم يصلنا اسمه، و"سرجون" هو لقبه باللهجة العمورية السومرية والآشورية، والكلمة مؤلفة من "سار" وتعني الملك والسيد، و"عن" هى تحوير "كن" التي تلفظ "كينو" وتعني العادل، وهى باللهجة العمورية الغربية "شاروكينو" وتعني الملك العادل أيضاً، ومن "سار" كان الاسم "سارة" وتعني الملكة والسيدة.

ولد "سرجون" إذن فى زمن احتدام الصراعات وتفاقم الأزمات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، وليس من شك فى أن المعبد كان أحد مراكز تكثف ذلك الصراع، ففيه تناقش يوميّاً مختلف وجهات النظر، ويجري فيه تقويم حقيقي لمختلف وجهات النظر ولما يحدث على الساحة الخارجية والداخلية معا، كما أنه ليس من شك أيضا فى أن "سرجون" تلقى علومه فى المعبد ايضا، وتعرف على حقيقة حياة رجاله، وعلى كل التناقضات، ونقاط الضعف والقوة التي تكتنف تلك المؤسسة، لقد أتاح له ذلك فرصة عظيمة لا يمكن أن تتاح لغيره فى التعرف عن كثب على كل ما يجري فى بلاده من أحداث على شتى الصعد، وحينما رقى



إلى وظيفة ساقٍ للملك كان ذلك مناسبة أخرى جعلته يقبع في مركز الدوامة، فيتعرف على واقع جماهير الشعب من فلاحين، ورعاة، وصناع، وبحارة، وتجار، كما تعرف على جميع الأساليب التي يبتز فيها أفراد شعبه من قبل حكامهم والقائمين على أمورهم في المعابد، وفوق هذا وذاك فقد ألهبت فيه حماسته الوطنية والقومية تلك التذمرات المتكررة من الأوضاع السائدة، وذلك الشعور بالقلق والضيق من احتمال عجز الحكام عن الدفاع أمام أية غزوة قد تقوم بها

القبائل المتربصة على مقربة خلف الجبال، إن ذلك كله، بالإضافة إلى مواهب "سرجون" الشاب القيادية والسياسية والعسكرية، جعلته يتحين الفرصة الملائمة للظهور على مسرح أحداث بلاده، وهو مازال يعمل ساقياً للملك "أوررزبابا" ملك كيش في قصره، لقد تمكن "سرجون" الشاب بحنكته من أن يحوز على ثقة الملك القصوى مما جعل هذا يقربه إليه ويزيد في نفوذه وسلطانه، ويعينه أميراً لإحدى المدن التابعة له، ثم وفى الوقت الذي رآه مناسباً خرج على سيده، وخلعه عن العرش وجلس هو على عرش كيش.

أما قصة نشأته هذه منذ ولادته وحتى لحظة وصوله إلى الحكم فقد احتفظ له بها شعبه في شكل قصة جذابة، كعادته في تمجيد قادته وأبطاله الذين يمحضهم حبه على مدى التاريخ العربي الطويل، فقد خلد هذه القصة شاعر آشوري من القرن السابع قبل الميلاد إذ أخذ يسرد أحداثها شعراً على لسان "سرجون" نفسه فقال:

"أمي كانت تتقلب بين الرجال ووالدي لم أعرفه

أعمامي أحبوا التلال وسكنوها

أزوبيراتو مسقط رأسي تقع على الفرات

حبلت بي أمي المتقلبة، وبالسر ولدتني

في سلة القصب وضعتني، وبالقير طينتني

في النهر ألقت بي، ومياهه لم تبتلعني

بل حملني، وإلى "عاكي" البستاني أخذني

عنى "عاكي" بتربيتي، وكابن له اتخذني

ثم جعلني "عاكي" البساتي لديه بستانيا

وأنا بستاني منحتني عشتار المحبة والنعمة

فمارست الملك تلك السنين"

ويبدو من القصة أن أم سرجون حاولت التخلص منه بعد ولادته، فقذفت به في النهر، ثم أنقذه أحد المزارعين، ورباه في بيته وحقله مما أتاح لسرجون الصبي فرصة التعرف على حياة الفلاحين والزراعيين بكل دقائقها، ونمى لديه حبه الفطري لأولئك الناس المنتجين الطيبين المستغلين.

فمن موقع الفقر والعدمية لدى أمه، إلى بيت الفلاح وحقله، إلى المعبد، إلى قصر الملك، كانت مسيرة "سرجون" الشاب قبل أن يتسلم زمام الأمور في وطنه، وكأن مصائر الشعوب تتدخل أحياناً في صناعة أبنائها القادة لتخرج بهم إلى مواجهة التحديات المصيرية حين تتطلب مثل هذا الأمر الضرورة، أو الحتمية التاريخية التي تؤكد حتمية انتصار قضايا الشعوب في نهاية المطاف.

إن "سرجون" يبدو، من خلال قصة نشأته، وكأنه يعرف من هو أبوه الذي قد يكون تخلى عن أمه في اللحظة الحرجة وابتعد عنها ليصعد إلى منطقة الجبال الشمالية دون أن تتاح للابن فرصة رؤيته، لأنه، على ما تؤكد أبيات القصيدة يعرف من هم أعمامه الذين "أحبوا التلال وسكنوها". فمن هم يا تُرَى أولئك الأعمام؟ أيمكن أن يكونوا أبناء باسل أو (باشل) بن آشور بن سام بن نوح الذين سكنوا المرتفعات ما بين آشور ونينوي التي هي في منطقة الموصل؟ أم أنهم (السريان) أو (السوريون) من أبناء "سر" الذين صعدوا شمالاً وملأوا منطقة الفرات الأعلى؟ إننا نرجح هذا الاحتمال الأخير.

ما إن قبض سرجون على زمام الأمور في كيش حتى بدأ يعد العدة لمواجهة التحديات الكبيرة التي يواجهها شعبه:

١- فعلى النطاق الداخلي، كان على سرجون أن يجمع بين عنصرين صار كُلٌّ منهما في جانب يناقض الآخر. فمن جهة أولى كان عليه أن ينقذ تلك المنجزات التحررية والديموقراطية التي حققها شعبه من قبل، وأن يحرر فلاحيه وحرفييه وفقراءه من سطوة أصحاب السلطة المتحكمين بهم وبأرزاقهم، كما أن عليه، في الوقت نفسه، أن يضرب الإطار السياسي الذي نمت وتحققت فيه مثل تلك المنجزات، ألا وهو إطار المدينة - الدولة، ويعمل على توحيد البلاد جميعها حول عاصمة مركزية واحدة. كان شعار تحرير الفقراء والمظلومين وإعادة حقوقهم

إليهم يكمن في أذهان الناس ضمن إطار النظام القديم، نظام المدينة ـــ الدولة. وكان شعار الدولة المركزية الموحدة الكبرى يرتبط أيضاً في أذهان الناس بسلطة الملك السفاح لوجال زاغيزي. كان على سرجون أن يستخلص ما يريد من كلا الجانبين ويقنع شعبه بأنه إنما يريد به الخلاص. كانت المهمة عسيرة في زمن ليس فيه أية واسطة للاتصال المباشر مع الجماهير غير الفعل والسيطرة على الأحداث وتوجيهها في غاية الدقة والحكمة والإتقان. فمن أجل تحقيق هذين الهدفين كان سرجون يدرك جيداً أنه لابد من الصدام مع رجال الهيكل الذين أخذوا ينشطون لصالحهم، طامحين إلى استرجاع نفوذهم وتسلطهم، مستغلين نقمة الشعب على لوجال زاغيزي السفاح، كما كان لا يخامره أي شك في أنه، من أجل أن ينجح في مسعاه ويحقق هدفه، لابد له من أن يسحق سلطة لوجال زاغيزي أو أن يسقط في قبضته.

سرجون واستراتيجيته نحو البحر:

أما على الصعيد الآخر فقد كان سرجون يتمتع بحسٍّ استراتيجي قَلَّ أن يتمتع به قادة آخرون في ذلك الزمن. كان يقف وكأنما من فوق مسرح الأحداث، ويرى من خلال عين طموحة إلى وطنه الموحد من شواطئ الخليج العربي إلى البحر المتوسط، ومن البحر الأسود إلى شواطئ بحر العرب، فيرى كما لا يرى غيره أهمية البحر الأحمر الاستراتيجية بالنسبة لخطوط مواصلاته التجارية مع مصر وإفريقيا والهند ومن أجل إيصال منتوجات شبه الجزيرة العربية إلى عاصمته. فأيقن بما لا يقبل الشك أو الجدل بأن عليه أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ على منطقة البحر الأحمر، ولاسيما الشرقية منها، في يده، ومن ناحية أخرى فقد كان يدرك بحسه الاستراتيجي المتقدم كل الميزات الاستراتيجية التي يتمتع ويمتاز بها وطنه في قلب العالم القديم وحيث تتقاطع كل خطوط تجارته وبضائعه وأفكاره. فكان لابد من استثمار هذه الميزة الفريدة في وطنه إلى أقصى مدى. ومن أجل ذلك، فقد كان لابد له من توجيه ضربة قاصمة للقبائل الهائمة خلف جبال زغروس شرقاً وطوروس شمالاً، بما يضمن انصراف شعبه وبلاده إلى البناء الحضاري السلمي، فتزدهر تجارته، وتمتلئ مخازنه، ويعم الرخاء أرضه،

وتتوفر الفرص والشروط اللازمة لتحقيق مطامح شعبه في السواحل الغربية من أجل الاندفاع عبر شطآن المتوسط لتحويله إلى "بحر أمورو" قولاً وفعلاً.

ولم يغفل سرجون لحظة عن أن تحقيق ذلك كله ليس بالأمر اليسير على شاب ليس في يديه من مقدرات وطنه الكبرى غير مدينة كيش، وكل ما في جعبته في بداية طريقه ثقة بالنفس لا حدود لها، وإيمان بصحة وسلامة الهدف لا يتزعزع، وثقة بإمكانات شعبه العظيمة إذا ما أتيح لها أن تتوحد.

أحس سرجون بأنه في سباق مع الزمن. فهو إن لم يغتنم كل لحظة في الإعداد للتصدي لمهماته القادمة سوف يجد نفسه وشعبه وبلاده وكل طموحاته نهباً لسنابك خيل خصومه في الداخل والخارج. وبدأ سرجون العمل.

سرجون يبني جيشاً:

أوحى لغريمه لوجال زاغيزي بأنه لا يطمع بشيء، وليست لديه أية مطامح تتعدى حدود كيش. وأقنعه بصداقته وبحسن نواياه. وفي الوقت نفسه انصرف إلى إعداد جيش جديد بأن يحمل معه تلك المهمات الجسام ويحقق لها النصر. وهنا تجلت عبقرية سرجون القيادية والعسكرية. لقد استطاع أن يميز في شعبه العربي عناصر الشجاعة، وسرعة البديهة، والخفة، والمرونة، والانقضاض الصاعق، والإبداع الفردي، والإحساس بالتفوق، فعمل على تربية هذه العناصر جميعاً وتنميتها وإبرازها في نفس كل جندي من جنوده. لقد عمد إلى تدريب جنوده تدريباً خاصّاً يجعل كل هذه الميزات الفردية تظهر من تلقائها. وكان يدرك أن الجندي العربي يعشق القائد الشجاع الذي يفسح المجال لخصال جنوده أن تظهر وتتفوق. وهكذا عشقه جنوده، وصار لدى سرجون جيش فني مدرَّب، يمتاز باللياقة والمرونة وسرعة الحركة. كما أبدع في استثمار براعة العربي في الحرب الصاعقة إلى أقصى مدى. وتخلص من كل الأساليب التقليدية في القتال التي كرسها أمراء الإقطاع من قبل، وأدخل القوس والرمح بدل الفأس والحربة، واستخدم طريقة القتال الفردي "رجل يقابل رجلاً" بدلاً من نظام الكراديس، فأتاح للجندي العربي فرصة استخدام كافة عناصر تفوقه التي زودته بها

الطبيعة إلى جانب تدريبه العنيف والمتقن الذي بذل سرجون جهوداً جبارة من أجل أن يبلغ بها المستوى الذي يطمح إليه.

سرجون يوطد الاستقرار:

بعد أن وثق من إمكانات جيشه الذي بين يديه، وطد أمور الاستقرار لصالحه في كيش. ثم انتقل شمالاً على الفرات، واختار موقعاً لقرية اسمها "أجدة" فجعلها مقرّاً له واختارها عاصمة لملكه. ولعله في ذلك كان يدرك أنه لابد من مواجهة حاسمة وضارية مع لوجال زاغيزي الذي يهيمن على جميع مدن سومر في الجنوب، وليس يفصل بينهما ذلك المدى الذي يحقق له سرية المناورة والتحرك والاستعداد قبل أن يكشف خصمه حقيقة نواياه. كما أنه أراد أن تكون عاصمته قريبة من مراكز انتشار العموريين الكثيف في الغرب، ومن أماكن تواجد أعمامه السريان في الشمال الذين سكنوا التلال والجبال، فيحقق لنفسه عمقاً سكانيّاً استراتيجيّاً كبيراً، يشاركه العداء لخصمه في الداخل وللقبائل الموجودة خلف الجبال الشرقية في الخارج.

ثم إنه لم يضيع كبير وقت حتى انتقل، ودونما إبطاء، إلى مجال الحركة والفعل مظهراً براعة فائقة في استخدام عنصر الزمن لصالحه إلى أقصى حدود الاستخدام. لقد تحرك سرجون، بادئ ذي بدء، شمالاً على طول وادي الدجلة، فحير بذلك خصومه. لقد توجه إلى آشور بجيشه.

لكن أحداً لم يذكر أنه خاض معارك هناك، ويرجح أنه صعد إلى السوريين الآشوريين في مناطقهم لينسق الأمور مع زعمائهم، وليحاول إقناعهم بمشروعه الوحدوي التحريري، وإن كل الدلائل تشير إلى نجاحه في ذلك، وإلى أن أعمامه من السريان ضموا جهودهم إلى جهوده وبقيادته.

ثم، وباستخدام غاية في البراعة للحرب الصاعقة التي درب عليها جيشه، انقض شرقاً على مواقع القبائل من غوتيين ولولوبي في جبال زاغروس، فشتت شمل تجمعاتهم، وفرض على زعمائهم الجزية وحرر طرق التجارة من تحت سيطرتهم، ثم توجه إلى عيلام وحررها وضمها إليه. وقبل أن يفسح لخصمه

لوجال زاغيزي في سومر مجال التفكير فيما يدور حوله، ارتد عليه كالصاعقة، فسحق جيشه وساقه أمامه مقيداً بالأغلال إلى نيبور. ثم مال على مدن سومر، وانتزعها بصورة مدهشة.

وبسرعة أدهشت كثيراً من المؤرخين الذين أرجعوا ذلك إلى عبقريته الفذة في إدارة المعارك، إلى جانب تمكنه من خلق جيش قوي، مدرَّب، مرن، صاعق، يستجيب لمتطلبات قائده في اللحظة المناسبة، وبالمستوى الأكمل من الأداء والتنفيذ، حتى غدا كثير من المؤرخين يدعونه "سرجون الأعظم" لشدة انبهارهم بعبقريته الدبلوماسية والعسكرية، إذ أنه، منذ بداية انطلاقته وحتى موته، لم يعرف الفشل أو الهزيمة في أية خطوة أقدم عليها سياسية كانت أم عسكرية.

عاد سرجون ووَحَّدَ الدولة:

عاد سرجون إلى عاصمته "أجادو" على الفرات بعد أن وحَّد آشور، وعيلام، وسومر في دولته وغسل يديه من مياه "البحر الأدنى"، وقضى على الخطر المحدق في الشرق، وحرر طرق التجارة من سطوة القبائل هناك، وأخذ يحتفل، في الظاهر، ببناء القصور ومعابد عشتار في العاصمة، بينما هو، في الواقع، يعد كامل العدة للخطوة التحريرية التالية. لقد أطلق اسم "أجادا" على مدينة، ومنطقة، وشعب، وعلى الجزء الشمالي من حوض الفرات والدجلة، وسمى نفسه "شاروكين" أي "الملك أو السيد العادل" وعين حكاماً من المخلصين إليه على المدن الرئيسية، وأصبحت اللهجة السورية (الغربية) هي اللهجة المسموعة في القصر بعد أن كانت اللهجة السورية (السريانية) الشرقية. هي السائدة، كما بقيت لغة سومر الكتابية الرمزية رسمية أيضاً. لقد احترم سرجون المؤسسات الدينية السومرية، فجعل ابنته كاهنة لـ "نانا" ربة القمر في أور، كما أنه لقب نفسه بـ "كاهن آنو المسيح" (أي الممسوح بالزيت) و"انزي إنليل العظيم" فملك قلوب السوريين جميعاً، شرقيين وغربيين، في آن واحد. ثم ما لبث، وفي غمرة احتفالات شعبه بالانتصارات، أن تحرك شمالاً حيث خلائط من الشعوب والقبائل تهدد الطرق التجارية للتجار السوريين إلى مناجم النحاس فأخضعها جميعاً. لكنها ما لبثت أن تمردت عليه من جديد، فدمرها تدميراً شاملاً "حتى إن

العصافير لم تعد تجد لنفسها مأوًى فيها" وبالسيطرة على طرق التجارة في الشمال فقد أمَّن لمواطنيه إمكانية إيصال إنتاج البلاد الأجنبية الذي تحتاجه بلادهم وخاصة الحجارة والمعادن والأخشاب.

ثم توجه بجيشه عبر الفرات إلى "بلاد مهبط الشمس حتى نهايتها" فوحد في قبضته جميع مدن أمورو (سوريا الغربية) حتى بحر أمورو) المتوسط)، ثم صعد إلى غابات الأرز في جبال اللكام (الأمانوس)، وجبال الفضة في الشمال (طوروس) وعبر إلى قونية وحرر توتال، ثم عبر البحر إلى قبرص، وقد عثر في قبرص على أختام اسطوانية تعود لعهده، وأكيد أنه سيطر على جزيرتي قبرص وكريت وضمهما إلى دولته، كما جعل دلمون (البحرين) مركزاً لتجارته مع الهند.

فرعون مصر يتراجع أمام سرجون:

وقبل أن يعود إلى عاصمته بلغه أن فرعون مصر تقدم إلى منطقة خط القوافل ليستأثر في السيطرة على ذلك المركز الاستراتيجي الذي لم يكن يعادله أي مركز آخر. فاتجه سرجون بجيشه جنوباً، من أجل السيطرة على منطقة الطرق التجارية الدولية في غرب شبه جزيرة العرب شرقي البحر الأحمر، ما لبث على إثره أن تراجع الفرعون بيبي إلى وراء حدوده. فضمن سرجون بذلك السيطرة على جميع مفاتيح وطرق التجارة الدولية، ووجه ضربات صاعقة إلى القبائل الهمجية في مكامنها خلف الجبال، وحرر ووحد جميع أجزاء وطنه حول عاصمته الجديدة، ثم عاد إلى "أجادا" وانصرف إلى تحرير الإنسان من الداخل.

لكن هل تحقق له إتمام ذلك؟ وهل استكانت القوى الإقطاعية الانفصالية في المدن وسلمت بالأمر الواقع الوحدوي الجديد في إطار حكومة مركزية واحدة، أم أنها أخذت تغتنم فرص انشغال سرجون بحروبه التحريرية على كل الجبهات لتقوم بحركات العصيان هنا وهناك ولتفسح المجال لقوى الغزو الخارجي بأن تهيئ نفسها للانتقام لهزائمها الماحقة على يد سرجون؟

كل الوقائع بعد ذلك تؤكد أن سرجون اضطُّر إلى أن يتابع برنامجه في البناء والإصلاح الداخلي بيد، ويدافع عن الحدود الصعبة المترامية باليد الأخرى. يقول

هنري فرنكفورت: "إن البلاد كانت في كل الأوقات معرضة لأخطار جسيمة، لقد كانت بلاداً متحضرة ومزدهرة، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية، لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهين. كانت المدن تستطيع أن ترد غائلة الغزوات، أما الهجمات الكبيرة التي كانت تتكرر كل بضعة قرون، فقد كانت تحتاج إلى حكومة مركزية قوية تردها، كذاك كان تأمين سلامة الطرق التجارية أيضاً فوق إمكانية المدن المنفردة. وقد يتوقع المرء أن يرى هذه المدن تتعاون معاً في جهد وطني مشترك، إننا بالفعل نجد ملحمة عن "ملك المعارك" تصف كيف أن سرجون الأكادي، حينما توسل إليه تجار ما بين النهرين الذين كانوا يتاجرون مع الأناضول، ذهب إلى هناك على رأس جيش للدفاع عن قضيتهم، وقد تعكس القصة حدثاً فعلياً لأن حفيد سرجون "نارام سن" بنى قلعة قوية في "براك" على الخابور. ولم يكن الخشب المستعمل في بنائها من الحور والدلب فقط، لكنه كان أيضاً من البلوط والسنديان والصنوبر مما لابد أنه كان مُستَوْرَداً. وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد، حتى إنه في الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا، ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة منظمة مركزية سنوياً لصد الجبليين، لأن إخضاعهم بصورة دائمة، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة، كان مستحيلاً. ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك الملك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية. لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك.

"وقد يتوقع المرء أن يجد الناس أيضاً مؤيدين للنظام الجديد الذي فرضه ملوك أكاد، لاسيما وقد كان الشعور بالانسجام القومي موجوداً. كانت للسومريين عبارة "الشعب ذو الرأس الأسود" للتدليل على أنهم وحدة جنسية، وكان الإلهان إنليل وأنو وغيرهما يُعبدان في جميع أنحاء البلاد. لكن هذا الشعور لم يجد أبداً تعبيراً عن ذاته في شكل سياسي معين. لقد ظل بدون تأثير، فيما يبدو، على تاريخ البلاد. إن فردية المدن لم تُمّح على الإطلاق. وعند تولي كل ملك في أكاد

كانت المدن تقوم بثورة. وبدلاً من الاتحاد ضد العدوان حاول الناس أن يعودوا إلى الاستقلال الذاتي المحلي الذي كان الأساس قبل ظهور سرجون".

احتدام الصراع القوى الوحدوية والإقطاعية:

إن هذا الواقع الذي لم يتمكن سرجون خلال مرحلة حكمه التي امتدت خمسةً وخمسين عاماً من كسر قواقعه المحلية، وتأطيره ضمن نظام واحد، في النظام المركزي المتطور المتحرر الذي كان يطمح إليه، هو الذي أخذ يتألب عليه في أواخر أيام حكمه، ويظهر على امتداد الساحة مدى احتدام الصراع بين قوى الثورة البورجوازية الوحدوية التحررية الجديدة من جهة، وقوى الرجعية الإقطاعية الدينية (الأوليغارشية) من جهة أخرى.

إن في إمكاننا أن نميز ثلاث حالات للأوضاع في البلاد السورية التي وحّدها سرجون:

الحالة الأولى : وتمثلها منطقة سومر وعيلام، حيث كانت قد تكونت طبقة من الإقطاع الديني المتقوقع على مصالحه الأنانية الضيقة في نظام المدينة ـــ الدولة. وقد رتبت هذه الطبقة أموراً عقائدية كهنوتية غطت بها عمليات استغلالها لأرزاق المواطنين وجهودهم، كما أضفت على ذاك مسحة من مشيئة الآلهة. ولقد تمكنت خلال الفترة السابقة لسرجون من أن تكون نوعاً من القوات المرتزقة، تستخدمها حين اللزوم في تصفية مناوئيها، دون أن تأخذ في اعتبارها خطورة مثل هذه الأعمال عليها نفسها، وعلى مستقبل المنطقة وعروبتها ككل. لقد حافظت هذه الطبقة بكل امتداداتها ومؤسساتها على بقائها إبان حكم الدكتاتور لوجال زاغيزي الذي لم يضع في حسبانه سوى التسلط وابتزاز الأتاوات والأرباح. ولم تكن مثل تلك الفئة لتبخل عليه، كما أنها لم تكن لتبخل على أتباعها من المقاتلين المرتزقة سواء أكانوا من أبناء البلاد أم من أبناء القبائل الذين تسللوا إلى المنطقة سلماً، أو بقوا فيها من أسرى الحروب.

وحينما قهر سرجونٌ غريمَه لوجال زاغيزي ووحد سومر وعيلام ضمن الدولة العربية السورية التي شملت جميع أطراف سوريا رأى الإقطاعيون والكهنة كيف

أن امتيازاتهم باتت مهددة، ونظامهم يكاد أن يدمر دون أن يتمكنوا من القيام بأي عمل كبير يحول دون ذلك مباشرة. فلجأوا إلى إحناء الرأس في وجه العاصفة، وتركوا موجة سرجون تمر في طريقها لتكتسح جهات أخرى وملوكاً آخرين. لكنهم أبقوا على مؤسساتهم الدينية والعسكرية كما هي، وركنوا إلى الانتظام يتحينون فرصة غياب سرجون عن الساحة أو موته ليبدأوا التحرك، إذ أن الفراغ الذي سوف يتركه قائد عظيم مثله سوف يجعل كل الكيانات الهزيلة تتحرك، لتملأ ذلك الفراغ إن لم يقض عليها من قبل، ويستعاض عنها بكيان منظم يرتكز على قاعدة شعبية واسعة ممن لهم مصلحة حقيقية في التغيير.

إن الثَّغْرَة التي بقيت في مشروع دولة سرجون كانت تتمثل، هنا، في إغفاله تصفية المؤسسات الأوليغارشية القديمة. لقد ظن أن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، والرخاء والازدهار الذي بدأ يتسع في عهده ليعم أوسع الأوساط الشعبية انتشاراً كانت كافية لتجعل تلك المؤسسات الرجعية الضيقة تتخلى عن مشاريعها الاستغلالية، وتندمج مع عملية التغيير البورجوازية الوحدوية الكبرى. لكن الواقع أثبت عكس مثل هذه التوقعات. فقد تبين أن تلك الدوائر الرجعية الضيقة لم تمتنع عن الاندماج في دورة الحياة الجديدة فحسب، وإنما أعدت في الخفاء كامل العدة للانقضاض على مؤسسات الدولة السرجونية الجديدة في اللحظة المناسبة، كما أن بعضها لم يتورع عن التعامل مع القبائل الهمجية، أشد الجهات وحشية وعداء لكل ما فيه بصيص من الحضارة، من أجل تدمير الدولة القومية الجديدة بكل مؤسساتها، وإرجاع حركة التاريخ إلى الوراء من جديد.

الحالة الثانية: هي منطقة أمورو الغربية (سوريا الغربية) حيث كانت مملكة "عبلا" تبسط نفوذها على المنطقة، وتسيطر على حركة التجارة البرية، كما كانت أوغاريت وصيدا وصور، تسيطر على حركة التجارة البحرية. ولم تكن أي منها، على ما يظهر، لتشذ عن الانضواء في دولة سرجون الموحدة. إن أحداً من المؤرخين لم يذكر أن سرجون تكلف القيام بأية معركة في سوريا الغربية التي تضم اليوم ما يسمى بلبنان وفلسطين في توتول فأعطاه داجان (دجن) الأقاليم العليا، ماري، ويرموتي، وعبلا، حتى غابة الأرز، والجبل الفضي (الأمانوس

وطوروس). لقد ذكر المؤرخون أنه ضم ألاشا (قبرص) إلى دولته ووصل إلى كريت، لكن أحداً لم يذكر شيئاً عن أي صدام مع ملوك أوغاريت، أو جبيل، أو صيدا أو صور.

نستنتج من ذلك أن جميع الأوساط الأمورية الأخرى التي تمتد من آشور إلى البحر المتوسط كانت متفهمة لهذا المشروع السرجوني الهادف إلى إقامة دولة عربية متقدمة في سوريا، تجمع شمل الجميع، وتؤمن خطوط التجارة، كما تضمن حركة العمل والتنقل والزراعة، وتتمكن من الدفاع ضد كل الجهات الطامعة بثروات المنطقة.

لقد كانت هذه المنطقة متمتعة بحالة من الازدهار الزراعي والعمراني والتجاري والصناعي. وكانت قادرة على أن تمد جيش سرجون بالمال والسلاح المتطوِّر. وكانت معظم مدن الساحل قادرة على الدفاع عن نفسها فترة طويلة ضد أعتى الغزاة، ولم يتمكن أحد طيلة تلك الفترة من أن يوقعها في قبضته، بل على العكس، فقد كانت تتقدم على طول شواطئ المتوسط وفي جزره لتنشر ثقافتها، وتجسد تفوقها التجاري والاقتصادي. لقد أدرك سرجون ذلك. ووضع في اعتباره أن يضمن لها حماية كل خطوطها التجارية البحرية والبرية الممتدة من الأناضول شمالاً إلى أواسط البحر الأحمر جنوباً.

الحالة الثالثة: منطقة البحر الأحمر: تعتبر منطقة البحر الأحمر، ولاسيما منطقة شرقي البحر الأحمر أهم المناطق قاطبة بالنسبة للإنسان العربي في الزمن القديم. لقد كان البحر الأحمر، في حد ذاته، بحراً مثالياً للصيد والملاحة والتجارة بالنسبة للسفن البدائية الشراعية وذات المجاذيف، التي لا تحتمل الإبحار مسافات بعيدة في عمق البحار الكبرى.

ولقد كانت منطقة مَا بين مكة وجدة ملتقى لأهم عقدة مواصلات تجارية للقوافل في ذلك الزمن. ففيها يمر خط القوافل القادمة من الأناضول وتوتال مروراً بأنطاكية، وحلب، ودمشق، وبُصْرَى، والبتراء، وتَيْماء، ومدائن صالح، ويثرب، إلى جدة، ثم يتابع سيره جنوباً بمحاذاة الساحل إلى عدن مروراً بأول (صنعاء فيما بعد)، وفي مكة يلتقي بالطريق القادم من الشرق، والذي يتوحد فيه

طريقان أحدهما قادم من منطقة الخليج العربي محاذياً لوادي الرمة، والآخر من طريق الحرير القادم من الصين إلى اكيتان إلى شمال "أجادة" على الدجلة، ومنها إلى سوزا في عيلام، ثم يتجه إلى الجنوب ـــ غربا إلى الأبلة عند نيبور، ومنها إلى وادي الرمة جنوب غربي نجد حيث يلتقي بالطريق القادم من منطقة الخليج العربي وينتهيان معاً إلى جدة. وهنالك خط رابع يأتي من شواطئ البحر الأسود إلى حران في الجزيرة السورية، ومنها إلى تدمر حيث عقدة الطرق القادمة من بابل وحلب ودمشق، ومنها يكمل سيره جنوباً مروراً بدمشق، وبصرى، والبتراء، وصولاً إلى جدة. وفي جدة تلتقي الطرق القادمة من الشرق أيضاً، من صحار على شاطئ الخليج، ثم إلى بيرين شمال الربع الخالي، ومنها يتفرع إلى فرعين: أحدهما يلتقي بالخط القادم من جرها على الخليج على وادي الرمة، أما الثاني فيدور في شبه قوس وسط شبه جزيرة العرب ماراً بليلى، وسيليل، والفاو إلى بيشة حيث يلتقي بالخط الصاعد من مأرب، ثم يتابع إلى الطائف ثم إلى جدة.

أما الطريق البحري القادم من الطرف الشمالي للبحر الأحمر فإنه يلتقي في جدة بالطريق القادم من عدن، حيث تلتقي الطرق الثلاثة الرئيسية القادمة من شواطئ أفريقيا الشرقية ومن الهند ومن شواطئ الخليج العربي وبحر العرب.

وهكذا تكون جدة أهم ملتقى عقدة مواصلات تجارية في الزمن القديم.

أما من حيث المناخ والبيئة الجغرافية والزراعية، فإن منطقة شرقي البحر الأحمر بقيت من أخصب المناطق الزراعية، وأكثرها مياهاً وتنوعاً في زراعاتها، كما أن سلاسل جبال السراة المحاذية لشاطئ البحر ظلت تعتبر من أمنع المواقع التي يمكن أن يلجأ إليها الجماعات أو الأفراد المنبوذون من مجتمعاتهم دون أن تتهدد حياتهم الأخطار أو الموت جوعاً، وهي ما تزال حتى اليوم تعج بالكهوف والمغاور التي تصلح للسكن.

أما السكان فإنهم ينقسمون بشكل رئيسي إلى عرب عموريين يشغلون النصف الشمالي من المنطقة، وكذلك المنطقة الممتدة من شمالي صنعاء جنوباً إلى عدن، وهم في المنطقتين كلتيهما وفي منطقة محاذاة وادي الرمة وصولاً إلى الخليج العربي يعتبرون أنفسهم امتداداً طبيعيّاً للعموريين السوريين الذين يشغلون سوريا

الطبيعية كلها من شواطئ الخليج العربي إلى البحر المتوسط، ومن جبال طوروس إلى وادي الرمة في شبه جزيرة العرب وصولاً إلى عدن. أما المنطقة الوسطى الممتدة من جدة إلى جيزان جنوباً فيسكنها العرب الكنعانيون الحاميون أبناء عم المصريين الحاميين في الغرب.

إن لمحة سريعة كهذه على المنطقة تجعلنا ندرك بسهولة أهميتها الاستراتيجية.

إن سرجون الذي حرر أجزاء الوطن وثغوره من تحت تسلط القبائل الغازية، كما حرر جميع المدن في الداخل من قيود العسف الإقطاعي ــــ الديني، ووحدها في دولة واحدة، إنما جاءت تتويجاً لعملية تاريخية بعيدة الجذور في الزمن الماضي، ولتراكمات كمية كبيرة لم يكن له متنفس حقيقي يعبر عن طبيعة توجهها بغير الدولة البورجوازية الواحدة. وهو، بذلك، يكون قد أرسى دعائم أول دولة عربية بمفهومها المتقدم، كما أنها أول دولة في العالم بهذا المفهوم عينه، وهي الدولة العربية، التي ستكون فيما بعد، ورغم كثافة الصراعات الداخلية بين القديم والجديد الذي لم تحسم معركته بعد النواة الحقيقية للوطن العربي الكبير.

سرجون يفرز أهدافه وخصومه :

لم يشأ سرجون أن يؤلِّب عليه - كما اتضح - قُوَى الخارج والداخل معاً، بل تمكن، بدهاء السياسي البارع، من أن يفرز أهدافه، ويحدد خصومه، ويعين شكل وزمن التعامل مع أولئك الخصوم. ولما كانت نيبور هي مدينة إنليل المقدسة، وبالتالي، هي بؤرة التمركز الرجعي المناوئ لحركة التجديد والإصلاح التي يقودها سرجون، فقد كان عليه أن يسلك أحد طريقين: إما أن يضرب الرجعية في الصميم، ويقضي على عقدة اتصالاتها وتنظيماتها المالية والعسكرية، السرية والعلنية، أو أن يلجأ إلى مهادنتها، وكسب ودها، طمعاً في أن تنخرط في خضم التيار العام الجديد، وتضيع فيه، لأن شكل الحياة الجديد، وما سوف يتفتح من آفاق للثراء وللرخاء أمام كل الطامحين إلى الثروة، قد ينسى أساطين العهد

البائد التفكير في التكتل، والتمرد، والانتقام. وقد اختار سرجون أن يسلك السبيل الثاني، وهنا كانت بداية مأساة نظامه الجديد.

لقد قصر تقدير سرجون عن فهم طبيعة وإمكانات الطبقة الإقطاعية - الهيكلية، رغم ما كان يتمتع به من ذكاء وقّادٍ وعبقرية سياسية وعسكرية فذة. إن طغيان مشاعره الوطنية والقومية جعله يبتعد قليلاً أو كثيراً عن فهم طبيعة وحقيقة الخصوم في الداخل، الذين اختطوا لأنفسهم - منذ البداية - طريقاً ليس فيه أي جامع يجمعهم ببني شعبهم، بل يكرس كل شيء من أجل استغلال جهود مواطنيهم، وسرقة القوت من أفواه أطفال فلاحيهم ورعاتهم وحرفييهم، واستعانوا على ذلك بأدوات غريبة من المرتزقة أبناء القبائل الغريبة عن المنطقة، والتي لا يهمها إلا تدمير مدن سومر وأكاد على من فيها إذا ما قيض لها أن تثأر لهزائمها أمام جيش سرجون. إن نبل المشاعر الوطنية والإنسانية التي كان يكنها سرجون لبني قومه عموماً جعله ينزلق في عدم تقدير الأمور على أرض الواقع كما هي. فقد بقيت نيبور المقدسة مركزاً لأعتى عتاة الفئة الرجعية القديمة، وبقيت تستحوذ على كافة أسلحتها الدينية والسياسية، كما كان لها من الأرصدة المالية ما يجعلها قادرة على الاستمرار في تمويل أزلامها من المقاتلين المرتزقة، وتبقى الأمور على ما هي عليه في هيئة كمون مؤقت، منتظرة عاصفة سرجون كي تمر، لتنطلق بكل قواها إلى الميدان وتدمر تلك المكاسب التي منحها سرجون لجماهير شعبه. لقد تصرف سرجون، وهو في أوج قوته، بفروسية ونبل مع تلك الفئات، وأبقى على مركز نيبور الديني، كما أبقى على كل المراكز الأخرى.

وزيادة في الإيحاء بالود وكسب الثقة فقد بنى معابد (لإنليل) (وعشتار) في عاصمته، ولقب نفسه "كاهن آنو المسيح" وجعل ابنته كاهنة "نانا" ربة القمر في أور، لكن ذلك لم يغير من واقع الأمر شيئاً. فقد كان قد مضى زمن ليس بالقليل منذ أن قضى رجال الدين على مؤسسة المعبد التعاونية الاجتماعية. كان المعبد مشغلاً اجتماعيّاً اشتراكيّاً بصورة ما بالفعل، ولم يكن ثمة من يشعر بفارق بين فلاح في حقل المعبد وبين موظف أو كاهن في المعبد. كان كلاهما يعمل، وكلاهما يحرث الأرض، وكلاهما يقدم إنتاجه بنسبة معينة للمجموع، وكلاهما يأخذ

نصيبه من عمله، كما يأخذ المعونة عند المحن أو الضرورة. هكذا نشأ الدين في بدايته ثورة اجتماعية حقيقية، اقتصادية وتربوية. ولم يكن ثمة من يشعر بالحاجة إلى وجود أشخاص ينصبون أنفسهم واسطة بين العباد والرب.

ومنذ أن وجد على الساحة رجال دين حولوا كل شيء عن حقيقته، ونسجوا من خيالهم أفكاراً وهمية لا تصلح لشيء إلا لتكريس سيطرتهم وهيمنتهم على الناس وابتزاز جهودهم وثرواتهم، وصار كل شيء يتم باسم الآلهة، ووقفوا أنفسهم حلقة تتوسط المكان بين الآلهة والناس. ثم ما لبثوا أن جمعوا في أيديهم السلطتين الدينية والدنيوية - كما يقال، وتحول المعبد إلى مؤسسة إقطاعية جبرية قاسية لا حيلة لأحد في التصدي لها إلا إذا قامر بأن يتلقى على جسده وروحه غضب جميع الآلهة.

ولما كانت تلك الفئة غير مستعدة للتنازل عن مكاسبها التي امتدت لتشمل الأراضي الجماعية، وأرباح التجارة، وإنتاج المشاغل، كما أنها لم تكن على استعداد لأن تقامر بمصير تلك المكاسب، فقد عمدت إلى خلق جماعات من المرتزقة لتعمل على تصفية مناوئيها سرّاً، وتزعم أن ذلك كان نتيجة لغضب من الآلهة. فتزيد من هيبتها وهيبة الفكر الذي تكرسه في آن معاً، حتى أضحت على أرض الواقع قوة لا يستهان بها.

سرجون وخطواته المستقبلية بشعبه :

إن تلك القوة هي التي لم يكن سرجون يقدرها حق قدرها في غمرة إنجازاته القومية وخطواته المستقبلية، إزاء شعبه وبلاده.

وإذا ما أردنا أن نضع تلك الإنجازات ضمن خطوط رئيسية رأينا أن سرجون:

أولاً: ألغى جميع محاكم الهيكل الدينية، وأنشأ محاكم مدنية، يُؤَمِّنُ العدالة فيها قضاة ملكيون مركزيون، واتخذ لنفسه لقب "الملك أو السيد العادل"، وجعل جميع القضاة تحت مراقبة الحكومة المركزية.

يقول هنري فرنكفورت:" ويبدو أن سرجون قام أيضاً بمحاولة لاكتساب ولاء عامة الناس. وهذا يظهر من التعديل في نص اليمين أي القسم. فلقد أصبح الآن



بإمكان ذكر اسم الملك إلى جانب اسم الآلهة. ولهذا مغزاه العملي الواضح. فإنه إذا خولفت اتفاقية أقسم الطرفان على احترامها، وإذا جرى حنث باليمين كان للملك شأن في ذلك، إذ أصبح يتوجب عليه أن يؤيد حق الطرف المتضرر. كانت لهذا أهمية قصوى، إذ أن القاضي كان في الزمن الأول مجرد حكم، واجبه الأول أن يوفق بين الطرفين أو يرضيهما. لم تكن له سلطة لينفذ قراراته. وإذا لم يكن للإنسان الذي لا يتمتع بمركز مرموق من يسنده ويحميه فإن إمكانيات الحصول على حقوقه المهضومة أمام المحاكم كان ضئيلا. فالنص الجديد للقسم جعل الملك في وضع أصبح فيه شفيعاً لجميع الذين أقسموا باسمه. إنه في الواقع مرجع استئناف لجميع البلاد بغض النظر عن المدن. وهذه خطوة ذات أهمية عظمى في تطور القانون والمجتمع في ما بين النهرين".

إن في وسع أي منا أن يلاحظ أن سرجون بذل جهوداً كبيرة ومكثفة من أجل أن يجعل "العدالة" عنواناً كبيراً لحكمه. فهو قد اتخذ لقب "شاروكين" أو "سرجون" أي "السيد أو الملك العادل"، وصار جميع مؤيديه يسمون بهذا الاسم. ثم إنه جعل من هيبته وقوة حكمه أداة حقيقية تشارك عملياً في رفع الحيف عن المظلومين، وفي أخذ الحق من الظالمين، بعد أن ألغى هيبة وسطوة القضاء الدينيين. وقد وحد نظام القضاء وأقام نظاماً قضائياً واحداً في جميع المناطق.

ثانياً: رفع أيدي الكهنة عن الملكية العامة للهياكل من حقوق ومشاغل ومصارف، بعد أن كانوا قد وضعوا الأيدي عليها وصاروا يتوارثون ملكيتها، خالقين بذلك أول تناقص طبقي حقيقي في المجتمع العربي القديم، "وحرر الفلاحين من التزاماتهم، وكذلك العمال والصناع العاملين في مشاغل الهياكل الصناعية، وأنشأ إدارات خاصة للأراضي والمشاغل الأكليريكية تشرف عليها

الدولة مباشرة، كما أنشأ دائرة تعين للكهنة مرتبات تدفعها لهم الدولة" فيكون بذلك أول من طبق شعار علمانية الدولة في التاريخ.

ثالثاً: حرر الفلاحين من استعباد الأمراء الإقطاعيين في المدن، فألغى النظام الإقطاعي الأميري لملكية الأرض، ووزعها على الفلاحين في ملكيات صغيرة خاصة، وأنشأ لذلك دائرة خاصة لتسجيل الأملاك تسجيلاً قانونيّاً، ولم يبق على الفلاح أي التزامات إلا للمراجع الملكية المركزية مباشرة، فيكون بذلك قد طبق أول برنامج للإصلاح الزراعي في التاريخ وذلك منذ ٤٥٠٠ عام.

رابعاً: من الناحية الإدارية ميز سرجون بين مدن الأقاليم الشرقية في سومر وعيلام، ومدن الأقاليم الغربية والشمالية الغربية على المتوسط، ففي الوقت الذي ضم إلى حكمه المركزي جميع مدن ما يدعى اليوم بسوريا ولبنان وفلسطين والأردن وجعلها تتابع مسيرتها الحضارية المتنامية، في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وارتياد شواطئ المتوسط وجزره، بعد أن أمن لها حمايتها، وضمن الأمن على خطوط تجارتها، نراه و قد أبدى نوعاً من التراخي أو التساهل مع مدن الجنوب السومري حيث قوة النفوذ الهيكلي الديني، فترك للمدن هناك بعض الاستقلال الداخلي، وبقيت كل مدينة تدير شؤونها بنفسها تقريباً ــــ كما كانت عليه الحال من قبل، فكرس بذلك نزعتها الانعزالية الاستقلالية عن جسم الدولة ككل، كما أمن بذلك استمرار نفوذها على الأوساط التي كانت تهيمن عليها من قبل، واكتفى بتعيين مراقبين من قبله يشرفون على سير الأمور فيها. فكان أن سقط أولئك المراقبون بسهولة في دائرة الهيمنة الدينية للهيكل في نيبور بعد أن صاروا يعتقدون بأن الملك نفسه لم يجرؤ على أن يمس به. ومع ذلك فقد تمكن سرجون، ولأول مرة، من أن يكسر قواقع الكيانات المدينية الإقطاعية الهزيلة، ويتيح للشعب كله فرصة الانخراط في دورة حياتية اجتماعية ــــ اقتصادية وسياسية جديدة، كان لها شأنها في تطور نظم الحكم فيما بعد في العالم أجمع. لقد حقق سرجون انتقالاً حاسماً من نظام المدينة والإمارة الإقطاعية الدينية إلى نظام الدولة المركزية بمفهومها المعاصر، ولولا قسوة الظروف المحيطة بجسم هذه الدولة من الشمال والشرق التي فرضت عليها استنفاراً وقتالاً دائمين، لما جرؤت

حتى دوائر المدن القديمة في الداخل، التي أسبغ عليها سماحته ومنحها ثقته على أن تفكر بالعصيان ضده والتمرد عليه. وقد أثبتت الوقائع أنها كانت تعقد التحالفات السرية مع تلك الشعوب القبلية الرابضة في معاقلها خلف الجبال من أجل الانقضاض على نظام الدولة الجديد. ويعتقد الباحثون في سياسية سرجون أنه ارتكب خطأً قاتلاً حينما أبقى على بؤر الخصوم قوية في الداخل في الوقت الذي أيقن أنه غير قادر على تصفية خصومه القبليين الرابضين في الجبال على الحدود في الخارج، وعلى مرمى حجر من مدن سومر وعيلام. لقد أتاح بذلك المجال مفتوحاً للطرفين كليهما في أن يستمد الواحد شجاعته من وجود الآخر، ويقرر العمل ضد النظام السرجوني الجديد. لقد كان على سرجون، بعد أن أيقن بعجزه عن القضاء على الغوتيين والكاشيين المتربصين به في جبال زاغروس، أن يطهر بلاده من الداخل نهائيّاً من كافة الجيوب التي تكن له العداء، وتفكر بالانقضاض عليه ساعة تحين فرصتها المناسبة.

أما في منطقة البحر الأحمر، أي الطرف الغربي لشبه جزيرة العرب، فقد كان لها دائماً وضعها الخاص الذي سوف يستمر طويلاً بعد عهد سرجون.

فمنذ أن أرغم سرجون فرعون مصر على الانكفاء إلى ما خلف حدود محطته، اكتفى سرجون بتعيين الفرعون هناك من الحكام المحليين الذين يشرفون على سير الأمور، ويرقبون تحركات كافة الأطراف، ويسهرون على حماية أمن الطرق التجارية الدولية وسير القوافل، ويبعثون بالتقارير الدورية إلى الملك.

خامساً: لقد ألغى سرجون الوكلاء الإقطاعيين الذين كانوا في السابق ينشئون الجيوش في المدن ويقدمونها للملك حسب أهوائهم، وارتكز في نظام جيشه على الأوساط الشعبية مباشرة. ولأول مرة في التاريخ أيضاً. لقد شل بذلك أيدي الأمراء الإقطاعيين والدينيين، الذين كانوا كثيراً ما يستبدون ويرتشون وينظمون لأنفسهم العصابات المقاتلة الخاصة إلى جانب من يجمعون من المقاتلين من أجل جيش الملك، فقطع بذلك دابر نفوذهم على أبناء مناطقهم في المدن، وأخذ يبعث المفوضين من قبله للتعامل مع أوساط الشعب مباشرة من أجل تنظيم وتعبئة المقاتلين في صفوف جيش الملك دونما واسطة من أحد. وكان لذلك أثره الكبير

في تخلي كثير من الجهات عن "سادتها السابقين" كما أخذ أفراد الشعب يلقون عن كواهلهم كابوس الخوف من أولئك الأمراء المستبدين المستغلين.

سادساً: لقد حقق سرجون خلال سني حكمه تجسيداً حقيقيّاً لوحدة الشعب العربي بكافة مناطقه، وجمع "جهاته الأربع" في عمل قومي تحريري وحدوي رائد، وجعل اللغة العربية بلهجتيها السريانية الشرقية والعمورية الغربية لغة الدولة الرسمية في كل أنحاء الوطن، الذي انتقل إلى مرحلة اجتماعية وسياسية واقتصادية قَلَّ أن يحلم بها بلد من البلدان في ذلك العصر، بل وفي العصور التالية.

سابعاً:" والخطوة الأخرى لتوحيد البلاد كانت إدخال تقويم موحد، إذ إنه حتى هذه الفترة كان لكل مدينة تقويم خاص بها، وفيه أسماء شهور وأعياد خاصة. وأخيراً كان وجود حاكم فرد يدعو نفسه "ملك أنحاء العالم الأربعة" يذكر الناس دوماً بوحدة الدولة".

هذا ما يؤكده الباحث والعالم والمؤرخ هنري فرانكفورت في كتابه "فجر الحضارة في الشرق الأدنى" عند حديثه عن سرجون العظيم الذي أدهش المؤرخين جميعاً بمنجزاته الرائعة الفريدة التي تستحق أن تنتسب، وبتفوق أكبر من الجدارة، إلى قرننا الحادي والعشرين بعد المسيح.

ويضيف هنري فرانكفورت: "... ومنذ عهد سرجون الأكدى أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية".

"لقد حققت بلاد ما بين النهرين انتصاراتها في جو من القلق العميق، والروح التي تتخلل أهم كتاباتها هي الشك في قدرة الإنسان على تحقيق السعادة الدائمة. ولم تكن فكرة الخلاص عندهم فكرة لاهوتية بل كانوا يشعرون بها، أو لنقل إنهم كانوا يحيونها عاطفيّاً أثناء ممارستهم أعيادهم الدينية السنوية".

ثامناً: إن ثورة سرجون البورجوازية المتقدمة على ثورات أوروبا البورجوازية بما ينوف عن أربعة آلاف وخمسمائة عام لم تكن لتمر دون مصاعب وصراعات دامية وانتكاسات، نتيجة لما يحيط بها من حولها من ظروف قاسية، كونها تنهض

في تلك المنطقة مثل فردوس حضاري منعزل يحيط به الأقوام الهمجيون على طول الحدود في الشمال والشرق. لكنها، مع هذا، ورغم هذا، بقيت الأساس الحقيقي، والأرضية التي صار كل حاكم يطمح أن يقيم من عليها دولته. ولقد تمكنت، رغم كل المحن والانتكاسات التي ألمت بها، من أن ترسخ تقاليد ومفاهيم جديدة بقيت حية لدى الشعب العربي قروناً طويلة فيما بعد، واقتبستها عنه البشرية.

سرجون . وإلغاء المحاكم الدينية :

إن في إلغاء سرجون للمحاكم الدينية الهيكلية المستبدة، وتعميم المحاكم الملكية المدنية التي تعتمد، بالدرجة الأولى، على قضاة أكفاء متخصصين، وعلى مجالس أحرار الشعب الديمقراطية، منعت تعسف الحكام الدينيين وعبثهم بمصائر الفقراء من مواطنيهم، مما جعل الشعب يتمسك بهذه المحاكم حتى بعد سقوط "أجادة" (أكاد) واجتياحها على أيدي قبائل الغوتيين فيما بعد.

إن في ذلك وحده أعظم رد على مؤرخ استعماري متحيز مثل أرنولد توينبي الذي يقول في كتابه "تاريخ البشرية" حول العرب الأكاديين: "وقد كان الأكاديون متطفلين شبه برابرة، وكان سرجون وأحفاده، مثل سلفه لوجال زاغيزي، رجل حرب".

إننا نفهم جيداً لماذا يصر مؤرخ مثل أرنولد توينبي، بعد كل ما ذكرنا عن سرجون، والذي لم تكن معرفته لتغيب عن توينبي قطعاً، على جعل الأكاديين "متطفلين شبه برابرة". إنها النغمة ذاتها التي يرددها كورس التاريخ في دول الاستعمار العظمى ضد العرب، ليلصقوا بهم الهمجية وبغيرهم التمدن، بعد أن أصروا، وبصورة تدعو إلى العجب والرثاء معاً، على أن السومريين ليسوا عرباً، وليسوا ساميين، وأنهم مبدعو الحضارة!

ونحن سوف نورد هنا نموذجاً لمحاكمة حدثت بعد سرجون بما يزيد عن ألف عام كدليل على تمسك شعب سرجون العربي في "سومر وأكاد معاً" بمنجزاته

المتقدمة كثيراً ليس على محاكمات الكهنة في سومر من قبل سرجون فقط، بل وعلى المحاكمات في لندن نفسها في بداية هذا القرن.

ففي عام ١٩٥٠ اكتشفت بعثة مشتركة من المؤسسة الشرقية في جامعة شيكاغو ومتحف الجامعة التابعة لجامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة لوحتين لدعوى بجريمة قتل حصلت نحو ١٨٥٠ ق. م في سومر:

ثلاثة رجال: حلاق وبستاني وآخر لم يذكر صنعته، قتلوا أحد موظفي المعبد واسمه، أو بالأحرى لقبه "لوعنانا" أي "رجل عنانا". ولسبب ما قام القتلة بإبلاغ زوجة القتيل واسمها "نين – دادا" (السيدة دادا) بمقتل زوجها، لكن الزوجة نين دادا كتمت سرهم، ولم تبلغ السلطات.

لكن السلطات علمت بشكل آخر، وأبلغت الملك "أورنينورتا" في العاصمة ايسين، فرفع الملك الدعوى أمام "مجلس المواطنين الأحرار" في نيبور الذي صار منذ أيام سرجون بمثابة محكمة عدل. وفي هذا المجلس قام تسعة رجال بدور الاتهام، وقالوا بأن الرجال الثلاثة القاتلين ليسوا هم المجرمين فقط، بل إن الزوجة كاتمة السر يجب أن تعدم معهم أيضاً، لأن تسترها على الجريمة وصمتها عنها كان متمماً لها. لكن رجلين آخرين في المحكمة قاما بالدفاع عن الزوجة على أساس أنها لم تشترك في جرم قتل زوجها. وقبل المجلس دفاعهما عندما علم أعضاؤه أن الزوج القتيل كان محجماً عن إعالة زوجته. وانتهوا إلى الحكم بأن "معاقبة الذين ارتكبوا فعلاً جريمة القتل تكفي"، وهكذا حكم مجلس نيبور على الرجال الثلاثة بالإعدام، وَبُرِّئَتْ الزوجة.

وهاكم موجزاً من النص كما ورد في اللوحين اللذين يرويان المحاكمة: "نانا – سيج بن لوسين"، وجو – إنليل بن جو – نانا الحلاق، وإنليل – أنام عبد أدا جلا البستانين قتلوا لو أنانا بن لوجان عين – آدو المستخدم في المعبد.

وبعد أن قتل لو – أنانا بن لوجال عين – أدوا أخبروا نينا دادا ابنة لو نينورتا زوجة لو أنانا أن زوجها لو أنانا قد قتل.

لكن نينا دادا ابنة لونينورتا لم تفتح فاها وبقيت شفتاها مغلقتين. عندئذ

رفعت قضيتهم إلى مدينة ايسين أمام الملك، والملك أورنينورتا أمر بأن ترفع دعواهم إلى مجلس نيبور.

هناك نهض كل من أور جل (نور الجليل) بن لوجال.. ودودو صياد الطيور، وعلي عيلاني الخادم، وبوزو بن لوسين، وايلوتي بن ايا، وشيش جلا الحاجب، ولوجال جان البستاني، ولوجال أزيدا بن سين عند إيل، وشيش جلا بن شاره.. وواجهوا المجلس وقالوا:

إن من قتلوا إنساناً لا يستحقون الحياة، أولئك الرجال الثلاثة وتلك المرأة يجب قتلهم أمام كرسي لوعنانا بن لوجال عين أدو موظف النشاكو (نلاحظ وجود عموريين غربيين وعموريين شرقيين في المحكمة من وجود الأسماء التي تجمع اللهجتين حيث الألف أو الواو في نهاية الأسماء).

ثم واجه شو.. ليلوم الموظف التابع لنينورتا وعبر سين البستاني المحكمة، وقالا:

مع الاعتراف بأن زوج نينا داد ابنة لونينورتا قد قتل، ولكن ماذا فعلت المرأة حتى تستحق القتل؟

ثم التفت إليهم أعضاء محكمة نيبور وقالوا:

إن زوجة لم يقم زوجها بإعالتها ولو كانت تعرف أعداء زوجها، وإن كان بعد مقتل زوجها قد سمعت أن زوجها قد قتل فعلام لا تظل ساكتة عنه؟ هل هي التي قتلت زوجها؟ إن معاقبة الذين فعلوا قتله يجب أن تكون كافية.

وبموجب قرار مجلس نيبور سلم كل من نانان سيج بن لوسين، وجو إنليل بن جونانا الحلاق، وإنليل أنام البستاني عبد أدا جلا إلى الجلاد ليقتلوا.

هذه قضية نظرت فيها محكمة نيبور".

وبعد، أليس في هذه الدعوى ما يفضح دعاوي مؤرخي النُّظُم والإمبراطوريات الاستعمارية ضد العرب وابنهم العظيم سرجون؟

أما في عهد خلفه العربي العموري الآخر "حمورابي" فقد كان "في مدينة بابل

محاكم استئناف يحكم فيها قضاة الملك. وكان في وسع المتقاضين أن يرفعوا قضاياهم إلى الملك نفسه.. وإذا لم تتمكن السلطات من القبض على الجاني أو السارق كان على المجني عليه أو المسروق منه أن يدلي في حضرة الرب ببيان مفصل عن خسائره. وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها والحاكم الذي ارتكبت في دائرة اختصاصه أن يعوضاه عن كل ما فقده. وإذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم الدية إلى ورثة القتيل. فهل ثمة في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ فيها أن تعرض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها مثل هذا التعويض؟ وهل ارتقت الشرائع حقاً عما كانت عليه زمن حمورابي؟".

لقد قوض سرجون دعائم نظام المدينة - الدولة الإقطاعي الديني الذي اقتبسه اليونان فيما بعد، وظلت رهن إساره طيلة العصور اللاحقة، وأقام على أنقاضه نظام الدولة البورجوازية الناهض المتحرر من كل سلبيات الإقطاع الديني وتحجره واستبداده وانعزاليته. يقول بهذا الصدد المؤرخ موسكاتي: "وسَّع سرجون إمبراطوريته فشملت بابل وآشور وسوريا (يعني سوريا الغربية)، ودخل آسيا الصغرى، وامتدت تجارته إلى قبرص. وكان لدولة أكاد في عهده إدارة منظمة ومركزية أصبحت فيما بعد مثالاً للأنظمة اللاحقة. ومنذ ذلك العصر ظهرت بوضوح نزعة إلى الملكية الشاملة طبعت كل تاريخ آسيا الأمامية بطابعها حتى عصر الإسلام".

لقد حكم سرجون قرابة خمسة وخمسين عاماً. كما أن ابنه ريموش وحفيده نارام سين حكما من بعده قرابة نصف قرن، دافعا خلاله عن نظام أبيهما الثوري الجديد بكفاءة نادرة. إن قرناً من الزمن كان كافياً لأن تتغلغل الأفكار التي رسخها سرجون في ذهن جيل جديد من العرب الذين سوف يتصدون فيما بعد بضراوة لكل محاولات إسقاط الدولة المركزية الواحدة رغم تكاتف كل القوى المضادة من الخارج والداخل.

لقد أقام سرجون، وبمضمون متقدم جديد، أول دولة عربية شملت الهلال الخصيب كله، من الخليج العربي إلى المتوسط وقبرص، ومن شمال طوروس إلى

وادي الرمة وسواحل البحر الأحمر الشرقية وجنوبي سيناء. ولقد كان حكم وإدارة رقعة شاسعة كهذه من أصعب المهمات التي يمكن أن يواجهها حاكم أو ملك بسبب مواصلات تلك الأيام، وكثرة الأعداء، وطول خطوط الحدود، وصعوبة الدفاع عنها. ففي أواخر أيامه ثارت ضده كثير من الأقاليم في سومر وعيلام، لكن "الأسد الشيخ"، كما أسمته الملاحم، سار إلى المعارك وقهر خصومه جميعاً. ولقد خلد الشاعر العربي الآشوري في القرن السابع قبل الميلاد حكم سرجون، وحملته على سكان السواد (السومريين) وعلى أهالي عيلام، وإخضاعهم ثلاث مرات متتالية. إن الشاعر الذي نقل لنا بشعره قصة ولادة ونشأة وحكم سرجون يضيف عن لسانه قائلاً:

"أنا شروكين ملك أقادا القوي

حكمت أهل السواد وملكت عليهم

بيلطات البرونز قهرت الجبال العظيمة

تسلقت السلاسل العليا

وعبرت السلال الواطئ

جبت بلدان البحر (سومر وعيلام والبحرين) ثلاث مرات

قبضت على دلمون بيدي

وإلى "دير" العظيمة صعدت..

وأي ملك يأتي من بعدي

فليحكم أهل السواد ويملك عليهم

ليقهر الجبال العظيمة بالبلطات

ليتسلق سلاسل الجبال العالية

وليعبر سلاسل الجبال الواطئة

وليدر في بلدان البحر ثلاث مرات

وليضع دلمون في قبضة يده

وليصعد إلى مدينة دير العظيمة

من "أجادا" مدينتي".

فهل كان حقاً هؤلاء السوريون العموريون القادمون من الغرب "برابرة متطفلين على الحضارة في سومر" كما يريدهم "توينبي" وسادته رغم أنف كل الحقائق! وبماذا يمكن أن نرد ومكتشفات "ماري" السورية العمورية أدهشت جميع الباحثين بما كانت عليه حضارة سوريا في الغرب أيضاً قبل عهد سرجون بما يقرب من ألف عام؟

فقد ذهل المنقبون والدارسون أمام المستوى الحضاري الراقي الذي بلغه السوريون في المنطقة الغربية أيضاً بما يكاد لا يصدق. فقد أوجدوا نظام المدارس المجهزة بالتجهيزات المخبرية، والمزودة بنظم الامتحانات، والتدريس، والمكتبات، والوظائف والموظفين. كما عثر على المساكن الراقية لاستقبال الضيوف المزودة بكل ما تحتاجه المساكن الحديثة تقريباً من ملاحق ومنتفعات.

يقول أندريه بارو في كتابه "ماري". لقد عثر في قصر زمري ليم في ماري "بين الجناح الملكي والجناح الرسمي على مدرستين. تتميز هاتان القاعتان بتجهيزات لم نر مثيلاً لها قط حتى الآن.. ونحن لم نزل في حيرة تامة فيما يتعلق باستعمال ووظيفة هذه التجهيزات. ويجب أن نعيد إلى الأذهان أننا هنا على مقربة مباشرة من المعامل والأفران التي يمكن التعرف عليها بكل وضوح، ولها مظهر "أفران" (بوتقات كبيرة) لمعالجة فلزات المعادن الثمينة، وكان لا يزال فيها بقايا من الرماد والفحم الخشبي. وكانت القاعة الأولى تضم ٤٥ مقعداً مختلفة في أطوالها، وتضم الثانية ٢٣ مقعداً، والقاعتان مبلطتان بالآجر الجميل ويشغل جناح الموظفين جزءًا هاماً من المنطقة الغربية في القصر. وقد لقي عناية خاصة في التجهيز لأن كل غرفة مبلطة، وبعضها مرفق بغرف حمام، وتقدم إحداها مثالاً ممتازاً عن منشآت صحية كاملة: مغطسين من الخزف على قاعدة من الآجُر المطلي بالبيتوم، وفي الزاوية مرحاض (على الطريقة الشرقية السائدة

اليوم) صنع من كومتين من الآجر المكحل بالبيتوم، وفي الجدران خزن (صناديق) صغيرة وجد في واحدة منها طاسة من الخزف لغرف الماء من أحد المغطسين، وفي الزاوية الجنوبية الغربية مدخنة مصنوعة من أنابيب من الطين المشوي، ومتصلة ببعضها، وتزداد اتساعاً باتجاه الأسفل وتطل على قاعدة تدل على موضع الموقد، فقد يكون الشتاء في ماري قاسياً، كانت هذه المجموعة المعمارية إنجازاً مذهلاً".

أما بالنسبة للنزلاء، والضيوف، والمسافرين الغرباء، والسعاة المتغيرين على الدوام فقد كانوا "يؤلفون عدداً كبيراً إذا استندنا في تقديره إلى آلاف الرسائل التي تلقاها الملك زيمري ليم وحده. وبكلمة أخرى، كان يجب إيواء مجموعة مستخدمين متغيرة دوماً، أي يجب أن يقدم لهم المسكن والمأكل مع دورات مياه. فكان يوضع تحت تصرف الضيوف غرف، ودوشات، ومطابخ (وهي لا تزال مزودة بالفحم الخشبي وجاهزة للاستخدام).

يتمتع هذا الجناح بالاستقلال. وكانت تجهيزاته، وإن لم تبلغ درجة الترف والبذخ التي رأيناها في الأجنحة الأخرى، لائقة وملائمة لنوعية الضيوف. ووجدنا في مكان آخر مجموعة من أكثر من خمسين قالباً خزفيّاً لصنع المعجنات".

وأما الحكمة اللاتينية الغربية "الرئيس لا يهتم بصغائر الأمور" فلم يكن لها مكان عند الملوك السوريين الذين تعلموا أن يجعلوا من العبارة المأثورة لديهم "وفي قلبي حملت شعبي"، أو "وفي قلبي حملت أهل سومر وأكاد، ومن البحر الأعلى إلى البحر الأدنى" شعاراً لهم في الحكم. هؤلاء الذين اعتاد المؤرخون الغربيون على أن ينعتوهم بالاستبداد، نرى مكتشفات ماري تؤكد على أن العاهل السوري "كان يسهم إسهاماً مباشراً في كل ما يحدث في مملكته.. فكانت المحكمة الملكية تنعقد في القصر.. وكان الملك يتلقى دونما انقطاع طلبات كهذه: إرسال أحد بنائين بسرعة لإصلاح جدار في ساغاراتيم، أو إرسال طبيب مختص لعلاج حالة التهاب أذن على بعد مائة كيلو متر من ماري، أو يجب تعزيل قناة مسدودة، أو ترميم سد متصدع.. أو إعادة ثور يتبين أنه مريض إلى البيطري...".

إن سرجون، وحمورابي، وغيرهما من الملوك السوريين الذين بقيت أسماؤهم باهرة على صفحات تاريخ البشرية على مدى آلاف السنين كانوا أبناء تلك البيئة الحضارية، ولم يظهروا من فراغ. ومما أوردنا يتضح أن سرجون لم يكن "محارباً" فقط، كما زعم أرنولد توينبي. لقد تحرك من ضمن وطنه الذي تملأه المنجزات الحضارية المتقدمة من كل جوانبه بالنسبة لذلك الزمن، وأقام دولة وطنية قومية على أسس نهضوية جديدة وحد فيها شعبه السوري كله الذي نعته توينبي بـ"البربرية وبالتطفل على الحضارة".

إن مفهوم "الحضارة" و"البربرية" لدى توينبي مازال بحاجة إلى شرح وافٍ. ولسنا نجد في سبيل ذلك أجدى من أن نعرض لوحة أخرى في المقابل عن "حضارة" أوروبا عموماً، وبريطانيا بوجه خاص بعد حوالي ٤٥٠٠ سنة من أولئك السوريين العموريين الذين عرضنا بعض ما تحدثت به مكتشفاتهم الآثارية الحضارية.

لنقرأ معاً بعض ما يورده أحد المؤرخين الأمريكيين المعاصرين، وهو ول ديورانت، مقابل اهتمامات قدامى السوريين بالنظافة وبالطعام وبالعناية بالمرضى من الإنسان والحيوان على حد سواء، وبالتعليم، والأخلاق، والعدالة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، بينما نرى إلى أوروبا القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وهي لم تتجاوز بعد مرحلة أكلة لحوم البشر: "ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوماً ما شائعاً بين الناس جميعاً. فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريباً، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخيّاً مثل سكان إيرلندا وإيبريا (أسبانيا) وجماعة الجتلت، بل بين أهل الدانمارك في القرن الحادي عشر.. وأما في جزيرة بريطانية الجديدة فقد كان اللحم البشري يباع في دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيواني اليوم".

وبينما لم يشهد التاريخ العربي القديم على امتداد آلاف السنين أي نزاع ديني، وفي الوقت الذي كان يسود التسامح والحرية في المعتقد منذ ما قبل عهد سرجون، ومروراً بعيسى المسيح عليه السلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم وفي الوقت الذي كانت رسالة البعل لشعبه تتضمن من جملة مَا تتضمنه: "حطم

سيفك، تناول فأسك، واتبعني، وازرع السلام والمحبة في كبد الأرض"، ويقول عيسى المسيح في مسألة المرأة الخاطئة "من منكم لم يخطئ فليرجمها بحجر"، وبينما ينص القرآن الكريم على "لا إكراه في الدين" ويؤكد محمد صلى الله عليه وسلم على أن "الدين المعاملة" نرى إلى أوروبا القرون الوسطى من خلال بعض اللوحات التي يوردها ديورانت وغيره:

"لقد قدر يورانت عدد ضحايا محاكم التفتيش الدينية خلال ثماني سنوات فقط بأنهم "بلغوا بين عامي ١٤٨٠ و١٤٨٨ ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا، وستة وتسعين ألفاً وأربعماية وتسعين عوقبوا، وحتى عام ١٥٠٨ بواحد وثلاثين ألفاً وتسعماية واثني عشر أحرقوا، ومائتين وواحد وتسعين ألفاً وأربعماية وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة".

المرأة فى بريطانيا والحياة الأوربية :

وفي القرن الثامن عشر كان وضع المرأة في بريطانيا كما يلي: "كان للزوج كل السيطرة على زوجته، كما يتحكم حتى في الصداق الذي أتت به إليه. وفي كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانوناً.. وقد استعمل الزوج حقوقه المشروعة في ضرب زوجته، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك إبهامه".

"ولم تأخذ القانون بهن رحمة، فإذا أمسكت إحداهن وهي تتحرش برجل زج بها في السجن وضربت بالسوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب). وقد وصفت مجلة "جرب ستريت" في عدد ٦ آيار ١٧٣١ مصير إحدى هؤلاء "المدامات" فقالت "وقفت أمس الأم نيدهام في المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس، ونكل بها الجمهور تنكيلاً شديداً، وقد اشتد بها الإعياء حتى استلقت لطول المشهرة. ورغم ذلك ظلوا يرجمونها بقسوة، ويظن أنها ستموت بعد يوم أو يومين".

ومن مظاهر "الإنسانية" و"الحضارية" المتفوقة لدى الإنكليز في القرن التاسع عشر أن الرجال المحكومين بالإعدام كانوا يجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء، وتخرج أمعاؤهم، وتحرق أمام أعينهم، ثم تفصل رؤوسهم، ويقطعون

أرباعاً، وقد علقت المشانق في كل أحياء لندن. وكانت الأجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطيور. وقد يظل الرجل مشنوقاً نصف ساعة قبل أن يموت.. وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظر الشنق طابع المهرجان، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم.. وتبيع الأكشاك والباعة المتجولون الجن (نوع من الخمر) والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد، وينشد المغنون الجوالون الأغاني الشعبية".

أما عن قذارة سكان لندن في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد بلغ حدّاً أن أحداً لم يكن يعرف الاستحمام خلال عام كامل "وبلغ نتن العفونة والمرض مبلغاً كان يحمل القضاة (في المحاكم) والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مراراً نشقات من الكافور أو الخل أو الأعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة. وفي مايو ١٧٥٠ جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا في "الأولد بيلي" وهي محكمة جنايات لندن الكبرى، وبلغ من خبث الحمى التي أفشوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع القادمين للمحاكمة بالخل، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة في قفص المتهمين".

"أما الأرستقراطيون فكانوا يفضلون مدينة باث. فهناك، وسط أرقى البريطانيين يشرب الرواد ويستحمون في مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من أُتخموا بالغذاء الطيب".

لكنه ما أن استفاقت أوروبا على الثورة التكنيكية والصناعية التي كان العرب قد وضعوا أسسها العلمية حتى أشهر هذا الإنسان الصاعد من قاع ذلك المستنقع الوحشي سلاحه الجديد، وبدأ سلسلة من عمليات القتل والإبادة والاستعباد والاسترقاق والنهب بصورة لم يعرفها تاريخ البشر. ويكفي أن نشير إلى أن "حضارة" بريطانيا توينبي جعلت دأبها تدمير الشعوب وإبادتها نفسيّاً وجسديّاً، فأشاعت الحشيش في مصر، والقات في اليمن، وأرغمت الهند على تكريس خيرة أراضيها لزراعة الأفيون، كما أرغمت مئات الملايين من شعب الصين العريق بحضارته الإنسانية على شراء هذا الأفيون وتدخينه مستخدمة

في ذلك ثلاثة حروب مدمرة. وهي حتى هذا اليوم لا تتورع عن استخدام آخر مبتكرات التكنيك من أجل فرض حرب دينية بالقوة، أو فرض عبودية أو تخلف، أو من أجل إبادة شعب يسعى إلى الحرية.

سرجون وضرباته الوقائية:

إنه لم يدخل "متسللاً" أو "غازياً" لأراضي الآخرين مثل كورش، أو جنكيزخان، أو نابليون، أو غيرهم، فهو لم يتعد حدود وطنه القومية إلا في ضربات وقائية صاعقة للقبائل الرابضة المتربصة في معاقلها خلف الجبال المنيعة شمال سهل قونيا وتوتال ومرسين في الشمال، وشرق جبال زغروس في الشرق، والتي كانت تقطع، أو تهدد سلامة الطرق التجارية الدولية المزدهرة للدولة السورية.

إنه ليس ثمة مجال لمقارنته بأي من أولئك الغزاة الدوليين، الذي لم يكن لديهم ما يدفعهم سوى شهوتهم الجامحة إلى الغزو، مستغلين، في أغلب الأحيان، خلو الأرض من حولهم من وجود أي جيش قوي يمكن أن يتصدى لهم ويوقفهم عند حدهم في فترة بروزهم. إنهم لم ينشروا فكراً، ولم يؤسسوا نهضة سواء في بلدانهم أو في البلدان التي غزوها واجتاحوها ونهبوا ثرواتها، ودمروا مظاهر عمرانها وحضارتها. ثم لما تصاب عزيمتهم بالإنهاك، وترتوي شهوتهم إلى الغزو والتدمير، سرعان ما ينطفئ كل شيء دون أن يترك أي أثر يذكر، فينحسر المحارب، وتنحسر معه ظلاله تاركاً المنطقة، ومن جملتها بلاده نفسها، تتخبط بين مظاهر الفوضى والضياع والدمار الذي خلفته الحروب.

أما سرجون فقد انطلق من استراتيجية قومية، وتحرك على أرض واقعه القومي في حركة تحريرية توحيدية هي الأولى في سلسلة هذه الحركات التي سوف تأتي بعضاً في إثر بعض فيما بعد، من عهد حمورابي، إلى عهد زنوبيا، ومروراً بالدولة العربية الإسلامية، الأموية والعباسية، وصولاً إلى عصرنا الحاضر.

3

الفصل الثالث

مملكة ماري الحاضرة العربية والملك سرجون الأكدي

الفصل الثالث

مملكة ماري الحاضرة العربية

والملك سرجون الأكدي

□□

الحياة اليومية في مملكة ماري ٢٩٠٠ - ١٧٦٠ ق.م :

● إن مناقشة طبيعة الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث، لا تشذ عما ألفناه سابقاً، من الأخذ بمعايير أساسية شكّلت القاعدة الثقافية لعالم الألف الثالث في المشرق العربي.

● بعد سبات طويل امتد أكثر من ألفي سنة، استفاقت (ماري) الحاضرة العربية القديمة على الضفة اليمنى للفرات، ومن أعماق تراب (تل حريري) حيث كانت تستقر بين أطواء الظلمة والدمار فتدفقت مقادير مذهلة من المعلومات والتحف والوثائق، بعد سبات طويل امتد أكثر من ألفي سنة، استفاقت (ماري) الحاضرة العربية القديمة على الضفة اليمنى للفرات، ومن أعماق تراب (تل حريري) حيث كانت تستقر بين أطواء الظلمة والدمار فتدفقت مقادير مذهلة من المعلومات والتحف والوثائق، وبرزت مساحات كبيرة من المعالم المشعة بالوظائف الروحية والسياسية والعسكرية، وبعثت المكتشفات أضواء ساطعة على مرحلة حافلة من تاريخ الشرق الأدنى القديم وأحداثه، قبل نحو أربعين أو خمسين قرناً.

ويصف الأستاذ أندريه بارو مكتشف (ماري) نفسه، نتائج التنقيب في هذا الموقع بأنه (أزاح الستار عن كنوز مذهلة حان الوقت لتحديد أُطُرها) وأكد (أن

الحقيقة فاقت دائماً الخيال في ماري) حيث كانت (هناك نيران ساطعة هائلة تتوهج قبل أربعة بل خمسة آلاف سنة على ضفاف الفرات الأوسط).

في الثلث الأول من القرن العشرين كانت (ماري) مدينة مجهولة ورد ذكرها على تمثال موجود في المتحف البريطاني نقش عليه اسم (ايكو شمس- ملك ماري)، كما ذكرت أيضاً على تمثالين ومنحوتة في متحف استانبول، إضافة إلى أن وثائق حمورابي ملك بابل تتحدث عن انتصاره على (ماري) ودمارها على يديه.

وكان العلماء الأثريون يبحثون عن ماري في شريط يمتد على الضفة اليمنى لنهر الفرات بين دير الزور وهيت طوله ثلاثمائة كيلومتر، ولم يلفت أنظارهم في البداية (تل حريري) لأنه كان أقل ارتفاعاً من التلال المنتشرة في منطقة ما بين النهرين من الشمال إلى الجنوب، أو من الجزيرة إلى شط العرب، ولبعد موقعه عن مجرى النهر قليلاً.

وفي عام ١٩٣٣ وقع حدث كان مفتاح الاكتشاف المدَوِّى لماري، فقد عثر بعض العربان وهم يدفنون أحد موتاهم في تل حريري على تمثال دون رأس، يمثل شخصاً يضم يديه على صدره، وجذعه عار، بينما يكتسي القسم الأسفل من جسمه بما يشبه الحراشف، وقد بلغ وزن التمثال ثلاثمائة كيلوغرام.

وبعد الإبلاغ عن هذا الحادث بنحو أربعة أشهر فقط كانت بعثة للتنقيب الأثري موفدة من متحف اللوفر برئاسة الأستاذ (أندريه بارو) تبدأ حفائرها في تل حريري. وبذلك افتتح أول موسم للتنقيب الأثري في هذا التل الواقع على بعد اثني عشر كيلومتراً إلى الشمال الغربي من بلدة البوكمال.

ولم يكن ممكناً الجزم بهوية التل قبل العثور على مَعْلَم يحمل كتابات محفورة، أو على لوحة فيها نص، وهذا ما حدث فعلاً منذ بداية الموسم الأول حيث عثرت البعثة على ثلاثة تماثيل أحدها من الحجر الحواري الأبيض نقش عليه (لامجى ماري) ملك ماري، والثاني من الالباستر نقش عليه اسم الوكيل ايبيه ايل، والثالث من الرخام الوردي نقش عليه اسم الطحان أيدي ناروم، وبذلك تأكد أن تل

حريري يضم موقع بقايا (ماري) وقد عثر على التماثيل الثلاثة في معبد عشتار حيث كان الرجال الثلاثة يقدمون نذورهم للآلهة، فكانت لأشخاصهم هذه التماثيل.

ومنذ ذلك الوقت توالت سلسلة من مواسم التنقيب في تل حريري لم تكتمل حتى اليوم، ولكنها كشفت عما وصفه (بارو) بأنه (كنوز مذهلة) احتوت على اللوحات المسمارية والتماثيل والقرابين والمنحوتات المزخرفة والرسوم الجدارية وودائع التأسيس والجرار والأختام والأدوات البرونزية، هذا عدا ما كشفت عنه الحفائر من معالم القصور والمعابد والهياكل والمنشآت الدينية والرسمية والسكنية. وقد وصفت هذه المنشآت بأن (تصاميمها) تعبر عن وجود تنظيم مدني لا يمكن إلا أن يكون من صنع سلطة قوية تشرف على أجهزة فعالة وقدرات فنية متمرسة.



ولقد أجرت بعثة (أندريه بارو) ستة مواسم تنقيب قبل الحرب العالمية الثانية، وأربعة عشر موسماً بعد الحرب كان آخرها في عام ١٩٧٢، وكانت حصيلة المواسم العشرين لائحة ضخمة من المكتشفات ألقت الضوء على عدد من العهود والحضارات التي تعاقبت على (ماري) طيلة ما يقارب ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

يبلغ طول تل حريري ألف متر وعرضه ستمائة متر ويقارب ارتفاعه فوق مستوى السهول المجاورة خمسة عشر متراً، وعلى الرغم من مواسم التنقيب المتوالية لا يزال الجانب الأكبر من التل محجوباً بأطباق التراب يحتفظ بأسراره، في انتظار إجراء أسبار عميقة وواسعة، بغية الوصول إلى الأرض البكر، والعائق الذي كان يحول دون ذلك هو ضمان حماية المعالم المكتشفة من الأعاصير والرياح

والجليد وهو الأمر الملح في هذه المرحلة. وقد ظهر أثر هذه العوامل واضحاً على الجدران والأرضيات بعد أن كانت محفوظة تحت الثرى مئات السنين.

أهم معالم ماري وقصورها الملكية:

ويبدو الآن أن أهم معالم ماري هو قصورها الملكية التي تبرز قوة السلطة من الوجهتين الاجتماعية والسياسية. كما تبرز قدرتها على فرض أنظمتها وقوانينها، وقد اكتشف قصر (زيمري ليم) ملك ماري في الموسم الثاني للتنقيب عام ١٩٣٤، وتبين أنه يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد. وقد عثر فيه على مجموعة تماثيل أهمها تمثال الحاكم (ايشتوب ايلوم). على أن الكسب الأكبر في هذا الموسم هو ألف وستمائة لوحة مسمارية وضعها كتبة القصر. وهي تتضمن أنظمة ومراسلات وقوائم مواد. وقد اكتشفت في قسم الوثائق الرسمية بالقصر فأزاحت الأنقاض عن تسع وستين غرفة من غرفه في الموسم المذكور.

ففي موسم عام ١٩٣٥ عثر على كمية أكبر من اللوحات المسمارية بلغ عددها ثلاثة عشر ألف لوحة. وتم انتشال قطعة أثرية هامة هي ربة الينبوع، وأزيح التراب أول مرة عن رسوم جدارية في القصر الذي بلغ عدد غرفه وباحاته ١٣٨، وظهرت في باحتين منه مقبرة آشورية تحتفظ بمحتوياتها من الأثاث الجنائزي.

وتوالت (عطاءات) ماري في المواسم التالية، ففي حفائر عام ١٩٣٧ عثر على ثمانية آلاف لوحة مسمارية أخرى، وارتفع عدد غرف وباحات القصر المكتشفة فبلغ ٢٢٠ غرفة وباحة، وقد رفعت عنها الأنقاض، فظهر أسدان برونزيان قد فغرا فميهما فبدوا مرعبين عند أحد مداخل المعبد، وقد برزت بقايا زقورة تغطي كامل الجزء الديني من معبد (داغان) الذي يعود إلى ما قبل عصر سرجون الأكادي، ولم يعرف تركيبها بعد لأن هذا يتطلب إزالة ركام ضخم من الأنقاض.

وعندما اختتم الموسم العشرون للتنقيب في ماري عام ١٩٧٢ كانت بعثة(بارو) قد أنجزت اكتشاف أكثر من ثلاثمائة غرفة وباحة في القصر الملكي، وقد بلغت مساحة هذا القصر هكتارين ونصف هكتار، واتضح أنه عمارة ضخمة متفوقة من حيث السعة والتخطيط، وله سور شاهق متين يبلغ طوله مائتي متر وعرضه مائة

وعشرين متراً، وعلى جانبي بابه الشمالي برجان، وقد بلطت باحاته بالآجر وغرست في بعضها أشجار النخيل.

ويتضمن القصر جناحاً رسمّياً فيه قاعات استقبال ومنصات للخطابة ومكتبة للوثائق والمراسلات. وفي القسم الديني من القصر معبد ضخم فيه مذابح مزدانة بالمحاريب ومنصات للقرابين أقيمت على قواعد من الجص. وقد طليت ممارّ المعبد بالقار، ودفنت في الأرض مجموعة من صناديق التأسيس تحوي مسامير برونزية.

وكان الجناح الملكي الخاص في الزاوية الشمالية الغربية من القصر ويضم أكثر من ثلاث وعشرين غرفة، حول باحة داخلية مكشوفة ذات قاعدة جميلة من الجص الأملس، والذي يثير الإعجاب ما تضمنه الجناح من تجهيزات الاستحمام، كالمغاطس والسخانات والمصاطب الملساء، وظهرت في هذا الجناح قاعة استقبال مزخرفة برسوم تبدو فيها سلسلة من الجدائل الزرقاء بينها فواصل بيضاء.

ويتصل بهذا الجناح ما يرجح أنه قاعتان لتعليم الأبناء، فيهما معدات مدرسية وصفوف متوالية من المقاعد المتساوية. وهناك جناح جيد البناء والتصميم لموظفي القصر مزود بالمرافق الصحية من مراحيض وأوعية للمياه ومداخن للتدفئة، كما نجد جناحاً خاصّاً بالطبخ فيه مخبز وقوالب خزفية لصنع المعجنات.

وعثر في القصر أيضاً على بعض المدافن الحجرية الضخمة، وذلك في أعماق معبد عشتار، وتتألف جدرانها من بلاطات جصية مسقوفة بكتل ضخمة تغلق مداخلها لمنع وصول اللصوص إلى التحف والأثاث الجنائزي.

ومن أهم أقسام القصر قاعة للاحتفالات يبلغ طولها تسعة وعشرين متراً فرشت أرضها (بعدسة) مصقولة، وطليت جدرانها بالجص الذي أتاح لفناني القصر اتخاذ رسوم كبيرة على الجدران.

وقد ظهرت خلال التنقيب في بعض باحات قصر (زيمري ليم) جدرانا لقصور

ضخمة أخرى أقدم من هذا القصر، وتعود إلى الألف الثالث، ولعلها لا تقل عنه سعة ومكانة وتصميماً، وذلك واضح منذ البداية.

كان قصر ماري الملكي يعتبر في عصره من عجائب الدنيا، وبلغ من شهرته أن أبناء الملوك الآخرين في المنطقة من الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط كانوا يتمنون زيارته، وقد عثر على مراسلات بهذا المعنى في اللوحات المسمارية.

إلا أن إزاحة أطباق التراب عن هذه المعالم الرائعة في عصرنا عرضها لخطر داهم هو خطر الأعاصير والجليد، وقد ظهرت آثار عصف الرياح السافية على جدران القصر وقواعده، وقد كانت محفوظة تحت غلاف صفيق من الركام وكانت الأضرار بليغة، ولهذا تنادى المسؤولون في القطر وأصدقاء الآثار في فرنسا لحماية معالم ماري، وأقيمت فعلاً مظلة لدنة (بلاستيكية) واسعة لهذه الغاية، ومن المقرر أن يجري توسيعها أيضاً لحماية أكبر قدر ممكن من الآثار المكتشفة.

ويرى العلماء أن الثروة الكبرى في ماري هي الوثائق التاريخية المكتوبة بالخط المسماري على اللوحات الطينية المجففة، وقد سميت بالسجلات الملكية، ويقارب عددها خمسة وعشرين ألف لوحة ظهرت في قاعتين من قصر (زيمري ليم) بصورة خاصة، أو مرتبة داخل الخزائن الجدارية أو ملقاة صفوفاً على (أرضيات) القصر.

وتولى ترجمة هذا العدد الضخم من النصوص المسمارية فريق فرنسي- بلجيكي برئاسة الأستاذ جورج دوسان، وقد نشر أربعة عشر مجلداً من المعلومات الواردة في النصوص، وقد أكد (بارو) أن هذا العمل سيستمر حتى النهاية مهما تطلب من الوقت لاستثمار (هذا المنجم الثمين) في تجديد تاريخ "الشرق الأدنى القديم" وجغرافيته.

من خلال هذه اللوحات برز عالم حقيقي من الشخصيات يتحرك على مسرح التاريخ بحيوية، ويؤلف مجتمعاً متكاملاً من الفئات القيادية والفعاليات وهياكل الحكم. فنرى الملوك الأكاديين والسومريين والبابليين والآشوريين والحوريين

بأسمائهم وألقابهم، وهم يقودون الجيوش ويمارسون الأعمال الحربية والمناورات السياسية، وحولهم عناصر الهرم الأخرى من الكهنة والوكلاء والضباط والمفتشين والسفراء. وعلى دائرة أوسع نجد الأطباء والعرافين والمرتلين والموسيقيين، بل نحن نصل أيضاً إلى النجارين والخبازين وحتى الرعاة في المراسلات التي تتصل بوقائع الحياة اليومية.

كشف المراسلات عن الأوضاع السياسية في المنطقة:

وكشفت بعض المراسلات عن (خلفيات) الأوضاع السياسية في المنطقة حيث كان كل حاكم (يناور) للحيلولة دون قيام أحلاف مضادة حوله أو بجواره، أو يسعى لتجميع الأصدقاء أو تأييد بعضهم ضد البعض الآخر، ومراقبة الجميع في الوقت نفسه، أو العمل لتبادل الدعم العسكري والتحري عن الاتفاقات السرية، وكان السفراء يلعبون أدواراً هامة في هذا المجال.

وأشار نص عرضي إلى تشديد نظام ماري على الخدمة العسكرية. فقد تبين أن رجال (مجدي ليم) طافوا على القرويين وهم يحملون رأس رجل تهرب من الخدمة العسكرية. واتضح أن أبشع ألوان الموت كان ينزل بالهارب من هذه الخدمة. ويعكس هذا صرامة السلطة في مكافحة التخلف عن الواجب الدفاعي.

ومن هنا يصح القول إن كتبة اللوحات المسمارية في ماري سجلوا كل شيء، ابتداء من المراسلات السياسية والنشاطات الاجتماعية حتى قوائم المواد الغذائية وحسابات الولائم. وكلما غاص علماء اللغات المسمارية في تلك النصوص تكشفت لهم آفاق جديدة من ذلك العالم الزاخر.

أما الجانب الديني من حياة ماري فهو عالم ثري بالشعائر والأضاحي والقرابين والنذور، وعلى الرغم من نهب معابد ماري وهياكلها نهباً حثيثا فإن قطع التماثيل والمنحوتات والقواقع الصدفية والأوعية تؤلف أجزاءً من مشهد مؤثر للتعبد والتقديس والتضحية والورع. وهو جانب هام يزخر بالتفاصيل والملامح النابضة.

لم يتوصل التنقيب الأثري بعد إلى تحديد زمني دقيق لمنشأ (ماري) كتجمع

سكاني مدني مأهول، لأن هذا التحديد يتطلب سبراً عميقاً لجانب متسع من سطح تل حريري. ولقد أمكن العثور في عمق يقارب ثمانية أمتار من السطح على قطع خزفية يمكن نسبتها إلى الألف الرابع قبل ميلاد المسيح، أي الحقبة التي يبدأ فيها فجر التاريخ.

سرجون يكشف حضارة مملكة ماري :

والأمر الأكيد أن (ماري) عرفت مرحلة ازدهار وتقدم حضاري في الألف الثالث قبل الميلاد، أي الفترة التي تعارف علماء التاريخ على أنها عصر ما قبل سرجون الأكَّدي مؤسس السلالة السامية وقائد أولى الإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأدنى القديم. وقد قامت هذه الدولة العربية المركزية عام ٢٤٥٠ قبل الميلاد.

في تلك المرحلة كان يحكم مملكة ماري ما يسمى بالسلالة العاشرة بعد الطوفان، وهناك كشف بأسماء عدد من ملوك هذه السلالة ١٣٦ سنة، وقد عثر على تماثيلهم خلال الحفريات في القصر الملكي وفي أرضيات معابده وهياكله. وهناك قوائم لملوك آخرين حكموا ماري فترات أخرى من سني الألف الثالث قبل الميلاد.

وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد برز قائد سومري كبير هو (ولكال زاغيزي) ملك أوروك أشهر عواصم ما بين النهرين، وكان والياً على بلدة (أوما) الصغيرة ثم سيطر على أوروك ولاجاش، وتابع حركته بعنف بالغ فاحتل جميع العواصم السومرية وأحكم قبضته عليها ممهداً لقيام دولة عظيمة تمتد من الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط.

خلال هذه الانتفاضة السومرية هاجم (لوكال زاغيزي) مملكة ماري بشراسة، وبعد أن هزم قواتها ودمر أسوارها استباح المدينة جميعاً وقام بنهب القصر الملكي والمعابد والهياكل والمساكن وأشعل فيها النيران بتصميم فاتح لا يعرف الرحمة، وقد دلت طبقات الرماد المنتشرة هنا وهناك بكثافة على ضراوة الحريق، كما

برهنت بقايا المنحوتات المشوهة والتماثيل المحطمة واللوحات المتصدعة في عشرات الباحات والغرف على مضي المحتلين في التدمير والسحق.

وقد ورد في رقيم من ذلك العصر وصف لإسالة الدماء في معابد ماري وإشعال النيران في هياكلها ونهب الحبوب، واستنزل النص المكتوب اللعنة على آلهة (لوكال زاغيزي)، إلا أن تقرير الفاتح نفسه المنقوش على أوانٍ حجرية منذورة يمجد هذه الأعمال، ويقول إن الإله السومري (اليل) أعطى لوكال زاغيزي السلطة من مطلع الشمس إلى مغيبها فغزا البلاد من البحر الأسفل (الخليج العربي) إلى البحر الأعلى (البحر الأبيض المتوسط) وجعلها تنعم بالأمان والحبور وأصبح كبيراً للكهنة في (أور).

ويعقب الدكتور مورتكات المنقب الأثري والمؤرخ على هذا الحدث بأن عمل (لوكال زاغيزي) من أجل توحيد الدويلات السومرية و(مركزة) الشعب لم يلاقِ تلبية من السومريين وكهنتهم، وقد كانت التضحية والبذل غريبين عن طبائعهم، إلا أن فكرة توحيد المنطقة وإخضاعها لدولة مركزية كبيرة تحققت على يد شعب آخر هو الشعب الأكادي السامي القادم من الجزيرة العربية والذي استوطن البلاد وتغلغل فيها باتجاهي الجنوب والشمال منذ زمن طويل. ثم أسس ابتداء من سرجون الإمبراطورية الأكادية.

وعلى كل حال فإن دمار ماري على يد زاغيزي السومري في نحو عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد لم يَقْضِ عليها، فقد استعادت وجودها الحي نظراً لحيوية سكانها وموقعها الهام من حيث إنها رأس جسر على الفرات الأوسط يسيطر على الطريق بين الشمال والجنوب محاذياً للنهر، ومحطة للقوافل المسافرة من الصحراء باتجاه البحر الأبيض المتوسط.

وقد استعادت (ماري) حياتها فيما بعد دولة تابعة للإمبراطورية الأكادية السامية التي أنشأها القائد الأسطوري سرجون. وتذكر الوثائق أن هذا القائد مر بمدينتي ماري وابلا في طريقه إلى (غابات الأرز وجبال الفضة) أي جبال

لبنان أو الأمانوس، كما اتضح أن نارام سين حفيد سرجون كان يعين كبيري الكهنة في ماري.

وقد حافظ سرجون الأكادي على هذه الامبراطورية الأكادية تحت وطأة زحف القبائل العربية حتى البحرين، وتمتد في الاتجاه الآخر- كما قيل- إلى بلاد الشام وجبال لبنان وطوروس.

وفي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد تقوضت الإمبراطورية الأكادية تحت وطأة القبائل الجبلية المتوحشة المسماة بالجونيين والزاحفة من جبال زاغروس، واستمر هذا الوضع المخلخل حتى أتيحت الفرصة لانبعاث سومري- أكادي.

وفي الحقبة ما بين ١٩٠٠ - ١٨٠٠ قبل الميلاد تلقت منطقة الفرات الأوسط ومنها (ماري) موجات جديدة زاحفة من قلب شبه الجزيرة العربية، وامتلأت بمد من العرب الساميين الشديدي البأس، الراغبين في التوسع، وقد كوَّن هؤلاء قوة عسكرية كبيرة أتاحت لهم السيطرة السياسية على البلاد الممتدة من الفرات الأوسط إلى القطاع الجنوبي من الرافدين، فانطلق (اشبي أرا) من ماري مخترقاً المنطقة حتى احتل أور العاصمة السومرية واستقر في (أي زن) حيث أمسك بزمام الأمور، وبذلك تحققت وحدة الدولة السومرية الأكادية من جديد، وكانت مرحلة ازدهار في (ماري).

وخلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد برزت الإمبراطورية البابلية على يد (سومولا ايلو) وقبل أواخر هذا القرن أمسك حمورابي البابلي بزمام الأمور وشرع باكتساح المنطقة وتوحيدها، وكانت ماري تراوح في التحالف بين الآشوريين والبابليين. فاكتسحها حمورابي في السنة الثانية والثلاثين من حكمه ثم اكتسحها ثانية في السنة الخامسة والثلاثين، ولكنه كان في هذا بالغ القسوة. فقد أنزل بها دماراً ماحقاً فبدأ بإزالة أسوارها ثم هدمها بالمعاول. وخلال الكارثة قام جنوده بنهب القصور والمعابد والمساكن وأخلوها من الثروات المادية والتماثيل والتحف وحطموا كل ما تعذر حمله.

ويقول بعض المؤرخين إن جميع سكان ماري قتلوا أو أسروا واقتيدوا إلى أماكن

أخرى، واختفت سلالة زيمر يليم آخر ملوك ماري، ولم يسمع عن أحد من سلالته يطالب بالعرش، ووصفت بأنها (مدينة محرمة) وأنها هبطت إلى الجحيم.

هذه الكارثة التي حلت بماري عام ١٨٥٠ قبل الميلاد محتها من الوجود من حيث إنها مدينة مرموقة ذات حضارة أصيلة من حضارات الفرات الأوسط في العالم القديم، ولم تنهض (ماري) بعد هذه الكارثة، بل سادها الصمت المطبق، ولجأ الناجون منها إلى (حانة) على بعد مائة كيلومتر منها.

وفي عام ١٦٥٠ قبل الميلاد مر بها الحثيون خلال هجومهم الخاطف بزعامة مورشيليس على بابل، ولكنها هبطت إلى مرتبة قرية صغيرة جداً عدة قرون، وعندما مر بها المكدونيون في القرون الأخيرة التي سبقت الميلاد لم تلفت أنظارهم بدليل أنهم أنشؤوا مدينة جديدة على الطراز الهلنستي على بعد يقل عن أربعين كيلومتراً منها على شاطئ الفرات نفسه وهي (دورا أوروبوس) في الصالحية. ولكن ماري لم تخل من الاستيطان السلوقي الذي ترك لنا بعض المنشآت والزخارف.

ولم تستيقظ ماري من سباتها الطويل إلا في الثلث الثاني من القرن العشرين. وذلك على يد المنقبين الأثريين وعلماء اللغات السامية الذين أماطوا اللثام عن تراثها الحضاري الضخم، وألقوا أضواء ساطعة على إنجازاتها السياسية والاجتماعية والفكرية والهندسية، وبذلك أتيح للعالم معرفة دنيا سحرية ترفل بالجهد والإبداع والقدرة، وتضيء مساحة مهمة من مسيرة الإنسان العربي في فجر التاريخ.

طبيعة الحياة اليومية في مملكة ماري ٢٩٠٠ - ١٧٦٠ ق.م :

● وكما ذكرنا فإن مناقشة طبيعة الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث، لا تشذ عما ألفناه سابقاً، من الأخذ بمعايير أساسية شكّلت القاعدة الثقافية لعالم الألف الثالث في المشرق العربي.

فمن طغيان الثقافة الرافدية وتجلياتها، إلى تزايد التواجد الأكادي - العموري ومن ثم حصول نوع من التفاعل والتعايش والتمازج بين كل الأرومات الديمغرافية،

كل هذا شكّل قاعدة لإمكانية دراسة الحياة اليومية في الألف الثالث في ضوء المعيار الأساسي المتجلّي في التفاعل والتمازج، بما يُذكّر بمقولة ألفرد هالدار:

" كان هناك عملية تبادل بين المجموعات، بين الشرق والغرب / في المشرق العربي /، وهذا يعني أن العموريين المستوطنين في بلاد الرافدين ازداد عددهم بشكل مستمر، وأخذت هذه العملية في التسارع، كما تراجعت في فترات، ولكن منذ أول ذكر للعموريين في ٢٦٠٠ ق.م وحتى ٢٠٠٠ ق.م، تكاملت هذه المسألة " .

ولعلنا في مقاربتنا للحياة اليومية في مملكة ماري في هذه الفترة، سوف نستند على وثائق الألف الثاني، لقلة الوثائق العائدة للألف الثالث في هذا المجال، كما أن الوثائق الرافدية المعاصرة، تُقدِّم معلومات عن طبيعة الحياة اليومية هناك، وهذا برأينا يمكن أن ينسحب بشكل عام على مواقع الجناح الشامي.

مع الإشارة إلى اكتفائنا بالخطوط العامة دون الدخول في التفاصيل، التي تختص بمدينة ما، وكذلك دون إلصاق معالم الألف الثاني بشكل كامل وقطعي وجازم بعالم الألف الثالث، علماً أن من يلاحظ طبيعة انتقال السلطة السياسية مثلاً في ماري مع نهاية الألف الثالث ولا سيما بعد انتهاء حكم سلالة «الشكاناكو " سوف يجد أن انتقال السلطة من هذه السلالة إلى السلالة العمورية، كان انتقالاً سلساً وعفوياً، لم يوازه انقلاب مفاجئ في القيم والمعايير والرموز، بما يعني أن المنظومة الحضارية التاريخية في الألف الثالث عَبَرتْ إلى الألف الثاني بشكل طبيعي، وهذا ما يعطي صفة التواصل والاستمرارية بُعداً مهمّاً في قراءة الحياة اليومية في المشرق بعامة وماري بخاصة في الألف الثالث.

والأساس في كل هذا هو أن الثقافة العمورية تمثّلت الثقافة السومرية - الأكادية ومن ثَمَّ أضافت عليها، وهذه تشكّل خصيصة أساسية من خصائص الحضارة في المشرق العربي.

وبالعودة إلى معالم حركة المجتمع في مملكة ماري في الألف الثالث قبل الميلاد، فإن ما أشرنا إليه من نشاط الحياة الاقتصادية والتجارية والحرفية

والاجتماعية وغيرها، ينبئ بأننا أمام وجود مؤسسات تُعنى بفاعليات هذا المجتمع، كي تُنظم شؤونه وتصيغ نمط علاقات حضارية بين الأفراد وبين المؤسسات، وهذا ما تشير الوثائق إليه.

فالغرباء في ماري، كان يحقّ لهم إنشاء جمعيات أو نقابات تُعنى بشؤونهم وأحوالهم، كما توجد جمعيات للمساكين / الفقراء / كان يطلق عليها اسم موشكينوم " / وبإمكاننا ملاحظة مبلغ التشابه الكبير بين هذه الكلمة» الأكادية وكلمة مسكين أو المساكين بالعربية /.

ونعتقد أن أغلب مدن المشرق في هذه الفترة، شهدت وجود مثل هذه الجمعيات أو الاتحادات، كما أنه كان للتجار جمعيات تُسيِّر أحوالهم وتضمن حقوقهم وتحل مشاكلهم، وكانت هذه الجمعيات تمثّل التجار في الوساطة بين القصر والسكان. وكان يطلق على هذه الجمعيات اسم " كاروم" / الكار = المهنة في العربية /.

وكان التنقل في المراكب النهرية يتم وفق نظام ملاحة مستقل، تديره تلك الجمعيات، وتذكر إحدى الوثائق أن أحد الملاحين وقبل أن يصل إلى مرفأ مدينة ايمار، كان ينتظره ستون رجلاً لتمهيد الطريق له، حيث يتجهون نحوه مع الحرس وملاح خبير بإرشاد السفن، كما تكون بانتظاره ٣٠ طوافة في المياه.

نصوص ماري إلى التجار العابرين :

وأشارت نصوص ماري إلى أن التجار العابرين / عبرها / كانوا يقدمون هدايا من بضائعهم للمدينة، وكانت الضرائب لا تشمل تنقل الأفراد بل كانت على البضائع التجارية فقط.

ويشير الباحث هنري ليميه إلى أن وثائق ماري تشير إلى معرفة أهل ماري للحديد منذ وقت مبكر لكنه كان قليل الاستعمال بسبب غلاء ثمنه حيث يفوق سعر الفضة بثماني مرات.

ولم يكن الطفل في ماري يُعرف باسمه. بل باسم أمه، إلى أن يكبر ويدبَّ على قدميه، وثمة وجود لطقس يختص بترسيم الأطفال حيث يتم إلباسهم ثياباً جميلة

لأول مرة في حياتهم.

وتذكر الوثائق أيضاً، إقامة حفلات موسيقية في القصر، حيث يُذكر مكان فرقة العزف ووجود مغنين ومغنيات / كما في تمثال المغنية أورنينا /.

وقد عثر على آثار فعالية موسيقية منظمة في معبد داجن في ماري، كما عثر في القصر الملكي على مدرسة لتعليم الموسيقا.

وقدمت الوثائق أيضاً / ومنها ما يعود للألف الثاني / طرائف من المعلومات عن حال الطقس عندما يتخذه الناس مدخلاً للحديث بينهم.

كما كان في ماري أطباء، وورد في أحد النصوص عن إيفاد طبيب ماهر بمعالجة التهاب الأذن إلى مكان يبعد عن ماري حوالي ١٠٠ كم.

وأبانت التنقيبات عن وجود قطع طينية لها شكل أكباد عليها كتابات ذات قيمة سحرية، بالإضافة إلى وجود بيطريين وحرفيين وقواد جيش وعرّافين.

ونعتقد أنه في ماري ولا سيما في فترة ازدهارها في منتصف الألف الثالث، كان ثمة خدمة عسكرية فقد أشارت وثائق الألف الثاني المبكرة إلى وجود هذه الخدمة، حيث كان الملك يرسل الدعوة للناس للالتحاق بالخدمة العسكرية وكل من يتهرب يتعرض لعقوبة " الخازوق ".

ومن طرائف الأمور أيضاً، ما ذكره الباحث حميدو حمادة / ٢٠٠٢ /، من أن الرُّقُم المسمارية التي كان يبطل مفعولها كانت توضع تحت أساسات الجدران كنوع من التقدير والاحترام لعالم الكتابة.

وتشير الوثائق إلى وجود ورشات تصنيع العطور والبيرة ومستودعات للثلج في القصور لتخزين النبيذ.

والجدير ذكره هنا هو أن المرأة المتزوجة في ماري كانت تضع غطاء على الرأس في تفريق عن غير المتزوجة.

وفي مجال الحياة الزراعية، كان الريّ في ماري يتم في شهري آب وأيلول، حيث كان يجري بطرق صناعية عبر الجداول والأقنية، أما الحصاد فيتم في

شهري نيسان وأيار، حيث يتزامن هذا مع بدء فيضان نهر الفرات.

وتشير الدراسات إلى أن متوسط عدد سكان المدن الكبرى في الألف الثالث بلغوا حوالي ٢٠ ألفاً، أما أوروك فقد بلغ ٤٠ ألفاً، وهذا مقارنة مع مساحتها.

ونعتقد أن سكان مدينة ماري في الألف الثالث بلغوا حوالي ٢٠ ألفاً حيث أن قطرها بلغ حوالي ٢ كم كما مدينة نيبور.

ومنذ عصر ماري المبكر ظهر العدد مئة / Miat / في نصوص ماري، ومع بداية الألف الثاني يظهر فيها مئة وألف / ميات وليم /.

وفي مجال التأريخ، كان اسم الشهر ورقم السنة الملكية يستخدم في ماري وإبلا وموقع أبو صلابيخ، وقد ظهرت بعض أسماء الأشهر في تقويم ماري وأبوصلابيخ.

ويشير الباحث شاريان إلى أنه أمكن بواسطة نصوص ماري تحديد ترتيب الشهور في تقويم إبلا بشكل صحيح من خلال خمسين رقيماً تعود إلى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

وفي وثيقة حقوقية المضمون تعود إلى فترة مبكرة من تاريخ ماري، يشير الباحث جان ماري دوران إلى احتواء الوثيقة على أسماء سومرية وأكادية تختص بأشخاص، بما يعطي دليلاً على طبيعة التفاعل والتمازج الاجتماعي في ماري. وقدمت هذه الوثيقة على أن المرأة في ماري كانت تحوز على ملكية خاصة منذ نهاية الألف الثالث، إن لم يكن قبل ذلك.

وإن كانت وثائق الألف الثاني قد قدمت معطيات عن الحياة الزراعية فإن الذي نعتقده أن هذا ينسحب على عالم الألف الثالث، حيث كان ثمة نظام يطلق عليه " الايلكو " Ilku، ويعني " يخدم أو يؤدي الخدمة "، حيث كانت الأراضي التابعة للقصر تُعطَى للأشخاص الراغبين من أجل استثمارها واستغلالها مقابل تأدية خدمات وضرائب للدولة، وقد عرف هذا النظام في الألف الثاني في منطقة تمتد من جنوبي بلاد بابل وماري والآلاخ ونوزي وأوغاريت وغيرها.

أيضاً تقدم المعطيات العامة على أن سعر النبيذ في ماري كان أغلى عشر مرات من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت.

وفي الإجراءات والأنظمة التجارية تقدم معطيات الألف الثاني جملة من المعلومات التي باعتقادنا تنسحب على عالم الألف الثالث ولاسيما في جذورها وأساساتها.



فمثلاً في إجراءات نقل البضائع والقوافل بين ماري وحلب، كان على تاجر ماري أن يعتمد على تاجر حلب فيما يخص إجراءات تفريغ ونقل بضائعه في إيمار / حيث كانت إيمار تتبع لفاعلية حلب السياسية /، وعلى هذا فالتاجر الحلبي كان يعتمد على تاجر ماري في نفس الإجراءات في مدينة توتول / التابعة لفاعلية ماري /.

وتشير المعطيات بشكل عام إلى أن السفن الحاملة للبضائع كانت تخضع في ماري لدفع الرسوم والضرائب، وأي تهرّب يدفع سلطة ماري إلى مصادرة البضائع وحجز السفينة، والطريف أن هذا الإجراء يدفع مدينة السفينة المحتجزة إلى اتباع نفس الأسلوب مع السفن في ماري.

أما مبلغ الرسوم فكان يحدد بحسب طبيعة البضائع ونوعها ونوعيتها.

وفي مجال لغة ماري في الألف الثالث، فقد أشار شاربان استناداً إلى نصوص ماري في الألف الثالث ق.م أن لغة ماري تتكون من لهجة مارية مع السومرية التصويرية.

وقد أشار هنري ليميه إلى أن فنانى ماري أبدعوا في صناعة الحلي والمجوهرات حيث استخدموا الذهب والفضة والبرونز واللازورد والعقيق.. وغير ذلك وتختلف الحياة اليومية بمجرياتها كافة، في ماري عن أي حياة يومية لمدينة تجارية عبر التاريخ. فمن شرطها التجاري وكونها معبراً تجاريًّاً، نستطيع أن نخمن أننا أمام مدينة دافقة الحيوية والتنوع والغنى.

وكون العامل التجاري يدعم اشتراطات المثاقفة بين الحضارات والشعوب، فإن هذا الأمر يتحقق في ماري، بما يؤدي إلى إخصاب في توجهها الإبداعي المستند إلى قيم التفاعل والغنى الإنساني.

وهذا سوف ينسحب على مجمل المجالات الحياتية وإيقاعها، بدءاً من الحِرَف مروراً بتقنيات الصناعات، إلى كافة المناحي الاجتماعية والروحية.

وعلى هذا يمكننا مقارنة الحياة اليومية في مملكة ماري وفق نصوصها، والتي تلتقي في محاورها الأساسية مع أي مدينة قامت وتأسست على شرط تجاري عبر العصور، إن كان في أور أو إيمار أو إبلا وغيرها الكثير .

عالم الزراعة في ماري:

ذكرنا سابقاً أن مملكة ماري في الألف الثاني قبل الميلاد، امتدت على مدى منطقة الفرات الأوسط، من ماري المدينة إلى توتول وبلاد خانة وحول مجرى نهر الخابور إلى الشمال، وامتلكت حدوداً مشتركة مع قطنة. رغم أنها سعت إلى إنشاء أنظمة للري من أقنية وسدود ومنشآت مائية، للسيطرة على ممكنات الطبيعة، ورغم أنها امتلكت أراضيَ واسعة / كمملكة / ولا سيما وادي الفرات والخابور، غير أنها كانت فقيرة نسبياً.

ويشير د. أبو عساف إلى " أن الوثائق التجارية من إيمار أبانت أن تجار ماري كانوا يستوردون منتجات المواد التي كانت تزرع في المدينة مثل زيت السمسم والنبيذ والحبوب. ومن المؤكد أن إنتاج المملكة الزراعي كانت مرتبطاً بنظام الري الذي لم يكن كافياً، وبالتالي فإن المحاصيل كانت قليلة ".

هذا بالرغم من أن مثلث الخابور شكّل منطقة استراتيجية مهمة لجهة الزراعة، حيث كان مستودعاً للقمح ومنتجعاً لقطعان الغنم في الصيف.

وتتحدث النصوص عن وجود حالة من التخصص في مجال الزراعة في ماري، فحسب وثيقة / رسالة من يسمع أدد حاكم ماري إلى والده شمشي أدد حاكم آشور، نتبين هذا، حيث جاء في الوثيقة:

" اكتب لتوتول حتى يرسلوا لك مزارعاً قادراً على مسك المحراث ومتابعة الأثلام

وقد أبانت وثائق ماري عن وجود منتجات زراعية مثل الشعير، القمح / بشكل قليل / ، الحمص، الفول، العدس، ومن النباتات العطرية ورد ذكر الطيب، حبات السونو، البنج Sakiru.

كذلك زرع النخيل في منطقة الفرات الأوسط في الألف الثاني قبل الميلاد.

وقد أشار دوران إلى زراعة الكرمة في ترقا، ما يدل على وجود صناعة للنبيذ فيها.

وفي مجال الحياة الحرفية، قدمت وثائق ماري معطيات مهمة في هذا المجال ولا سيما ما ارتبط بأعمال المجمع الرئاسي في ماري.

ويبدو أن ثمة تنظيماً مركزياً لموظفي القصر الملكي عند زمري ليم حيث يُستفاد من الوثائق عن وجود تنظيم إداري للعمل. فنجد مثلاً مسؤولاً في القصر لجهة شؤون النسيج والأعمال المعدنية والزينة الاصطناعية والجلود والزيوت، ويدعى موكانيشوم، كذلك كان مكلفا بالإشراف على أعمال السجينات من النساء.

وثمة مسؤول آخر ويدعى ياسيم - سومو، ويعتبر مفتشا في قصر ماري وقصور المملكة أيضاً. وهو مكلف باقتراح التعيينات للسنة الجديدة.

كذلك تذكر النصوص وجود مسؤول عن المعدن وهو: قيشتي- ماما، ومسؤول عن أمور الصرف والنقد واسمه زيكراتوم، وحين غياب الملك عن القصر يتنكب

نجدي - ليم مسؤولية القصر.

كما وتقدم وثائق ماري أن من يتم أسره في الحروب، يلحق للعمل في ورش القصر الملكي / Dalley / . وإذا كن نسوة فيتم إلحاقهن بوَرِش النسيج في القصر. علماً أن الصناعات النسيجية والغذائية في ماري كانت من اختصاص النساء. وتشير وثيقة من زمري ليم إلى زوجته، وذلك بعد انتصاره على أشلاكا/ إلى طلبه منها أن تحتفظ بالنساء الأسيرات كعاملات نسيج، مع استثناء الأكثر جمالاً منهن.

وكانت أجور العمال عينية وتدفع بشكل أسبوعي وهي عبارة عن صوف وحبوب وثياب.

وتشير نصوص ماري إلى وجود تقسيمات لبعض الحرف على شكل قطاعات، فثمة قطاع زابينوم، حيث يضم ١٣ حداداً. وقطاع موت ــــ راما ويضم أربعة صناع للبّاد. وثمة قطاع يضم ١٢ صانع معدن، وقطاع يضم خمسة نوتيين. في حين يضم قطاع أنا ــــ إيا ــــ تلاكو، ٦ نجارين، ويضم قطاع يدين ــــ تبور ــــ مير ثلاثة عمال لصناعة البيرة.

الجدير ذكره، أن الحياة والنشاط الحرفي في القصر الملكي كان من مهامه الأولى، تأمين حوائج القصر اليومية إن كان في الغذاء أو الثياب أو الأواني وكذلك الهدايا والقرابين والأثاث.

بالإضافة إلى صناعة العربات والجلود وغيرها.

وفي مجال الصناعات الغذائية ومنتجاتها، تشير نصوص ماري مثلاً إلى أصناف من الطحين، فنهاك الطحين العادي، وطحين مصنوع من لباب القمح ويدعى ساسقو، وطحين ممتاز ربما هو طحين الشعير، وكذلك طحين البقول إلخ...

ويشير الباحث حميدو حمادة إلى وجود تسعة أنواع من البيرة في ماري، كما عثر على مستودعات للثلج في القصر وذلك لتخزين النبيذ. / حميدو ٢٠٠٢/ وثمة وثيقة تأسيسية تعود إلى ١٧٧٥ ق.م يفتخر فيها زمري ليم بأنه شيّد في

ترقا مصنعاً للثلج / بيت الثلج / .

كما يشير جان بوتيرو إلى أنه استطاع إحصاء ما يزيد على عشرة أنواع من العطور في ماري.

و٢٦ نوعاً من الحلي والمجوهرات و٣١ نوعاً من أواني الشرب، سواء أباريق أو جرار، وأغلبها كانت على شكل رؤوس حيوانات/ رأس وعل ــــ رأس ثور ــــ رأس غزال - رأس أسد /.

كما استطاع بوتيرو تصنيف ٢١ نوعاً من الألبسة الداخلية في ماري.

الجدير ذكره هنا، هو أن وثائق ماري أشارت إلى استخدام الستائر وأغطية الأسرّة والبطاطين، كذلك ثمة أغطية للأسرّة يمكن استخدامها على الوجهين، وكذلك وجود ستائر بوجهين وقد كان الصوف هو المادة الأولى في صناعة النسيج في ماري، ولم يكن القطن سائداً آنذاك.

وصُبغت الملابس بألوان منها الأرجواني، والأبيض، والأسود والأزرق والأخضر، ولون التفاح ولون الزجاج.

أما عن اللباس عند أهل ماري، فيذكر الباحث علم الدين أبو عاصي إلى أن الجزء الأساسي من اللباس كان ما يشبه الجلباب المصنوع من الجوخ المزين أو من الكتان.

وكان الملك يرتدي ثوباً يلتصق بجسمه، يثبته حزام. ورداء علوي يتم ارتداؤه من جهة الرأس، وأحياناً يرتدي غطاء للكتفين فضفاضاً، ويعتم على رأسه قلنسوة

تعرف بالقلنسوة البابلية.

وتشير نصوص ماري إلى أهمية تفصيل عمامة مزينة بالأحجار الكريمة، أو أردية مجهزة بمشابك صغيرة. وفي مجال صناعة الأسلحة، كانت ماري تصنع الأسلحة البرونزية ويشير نص من ماري إلى رسالة من زمري ليم إلى مكانيشوم جاء فيها:

" حالما تقرأ هذه الرسالة أصنع ٥٠ رأس سهم من البرونز، وزن كل واحد ٤٠ غراماً، ٥٠ رأس سهم وزن كل واحد ٢٤ غراماً، ١٠٠رأس سهم وزن كل واحد ١٦ غراماً، ٢٠٠ رأس سهم وزن كل واحد ١٠ غرامات، اصنعها كأفضلية، وهكذا تنتهي بسرعة، يبدو أن حصار أنداريق قد يدوم، ولهذا أكتب إليك من أجل هذه السهام "

وفي تطور لافت، أمكن لِوَرِش ماري من تحقيق الوصول إلى معجونة الزجاج، وقد أبانت التنقيبات عن وجود قطعة صغيرة على شكل زهرة منزّلة في صحيفة من الحجر، حيث حفرت عليها إلهة تستنشق عبير الزهرة.

ويشير الباحث دوران في كتابه الحياة في ماري إلى أن القصر الملكي في ماري كان يمتلك حديقة للحيوانات، وكانت تجري في المناسبات والمهرجانات، سباق للخيول، وكان أهل ماري يفضلون الخيول البيض.

وفي مجال صناعة الأواني من المعادن تقدم وثائق ماري العديد من المعطيات، وفي إحدى الوثائق / رسالة من موكانيشوم إلى الملك زمري ليم يخبره فيها أنه أرسل له ما يلي:

" وعاءان للشرب على شكل رأس ثور، يزن الواحد منهما ٦٥٠ غراماً.

ثمانية أوعية للشرب على شكل رأس وعل.

وعاء شرب من الذهب الأحمر، يزن حوالي ٣ كغ.

وعاء للشرب فضي على شكل رأس غزال ويزن ٢٠٠ غ.

وفي إشارة إلى مبلغ تدخّل الملك، حتى في تصميم صنع بعض الأواني

والأوعية في القصر، تشير وثيقة / رسالة من ياسيم ـــ سومو إلى موكانيشوم إلى أن " الملك أعطى تعليماته له حول زخارف حامل وعاء الشرب، رؤوس الأسود، قرون الغزال والأيائل :

وقدمت وثائق ماري، معلومات عن وجود أطباء مختصين، في دلالة على وجود وعي صحي كبير سبق أن أشرنا إليه.

وأيضاً هناك الموسيقيون والمنشدون والراقصون، وقد أشرنا إلى رسالة من زمري ليم إلى زوجته من أجل أن تختار من ثلاثين فتاة، من يليق بهن أن يكنّ في فرقة رقص.

وتظهر وثائق فترة حكم ماري من قبل يسمع أدد، عن وجود مغنيات في ماري، مثل المغنية نارو.

" وكان يوجد في ماري مسرحاً، تعرض عليه مسرحيات غنائية تحت إشراف موكانيشوم، وتذكر لوائح التعيينات، موسيقيين وموسيقيات يتلقون الطعام والنبيذ من القصر، كما تفصح إحدى الرسائل عن موسيقيين مسافرين مع قوافل " .

وقد ذُكر عن احتجاز إيمار لرئيس فرقة موسيقية من ماري مع آلاتهم، وكانوا قادمين بعد إقامة حفلة في حلب، وتم احتجازهم حتى تدفع ماري ما يتوجب من ديون عليها إلى إيمار.

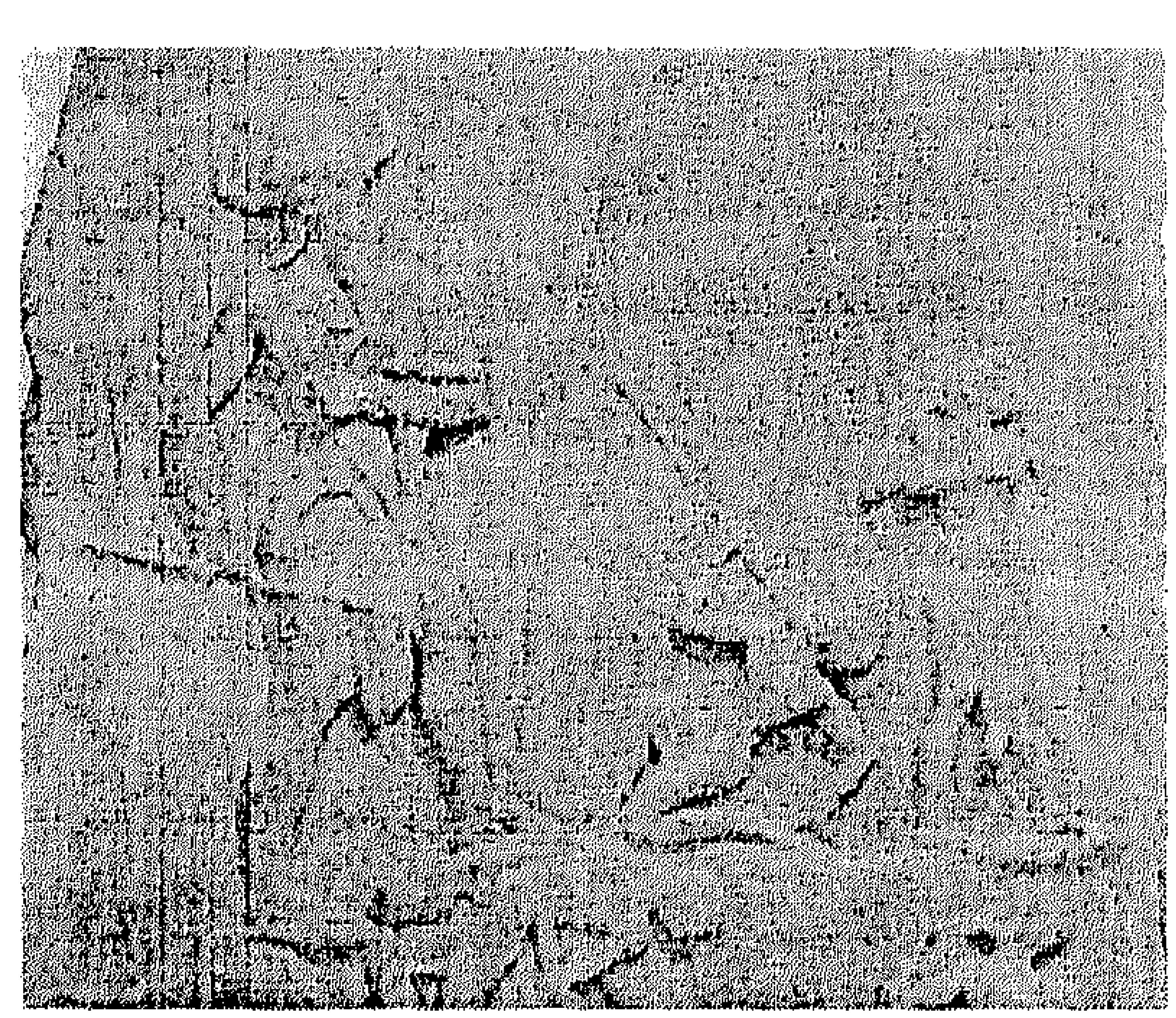
ويشار أيضاً إلى وجود صناعة للمراكب في ماري/ إضافة إلى توتول /. كما وتميزت ماري بصنع العربات أيضاً. وكانت الخدمة العسكرية مطبقة في مملكة ماري، ويشير أندره بارو إلى أن الوثائق أشارت إلى حمل أحد المسؤولين العسكريين في ماري، رأس شخص يدعى حانيان، رفض واعترض/ ويبدو أنه هرب/ عن الخدمة العسكرية، بحيث جال هذا المسؤول في المملكة ليجعله عبرة لكل معترض أو هارب من الجيش .

ويشير دومنيك شاربان إلى أنه في عام ١٧٦٩ ق.م، تم إجراء إحصاء عام في البلاد / مملكة ماري/، كان الهدف منه مراجعة اللوائح العسكرية.

الجدير ذكره أيضاً هو أنه استخدمت في ماري الإشارات الضوئية لتأمين الاتصالات السريعة في فترات الطوارئ أو الحوادث، ولطلب النجدات وحالات الإنذار بِخَطْب ما.

أما في مجال العلاقات الاجتماعية ونظام المجتمع في ماري، فكنا أشرنا في معرض مناقشتنا لمجتمع ماري في الألف الثالث إلى عدة أمور يبدو أنها بقيت سائدة في الألف الثاني، مع الإشارة أيضاً إلى الطلاق في ماري / كما عند السورين بعامة / آنذاك كان يتم من قبل الزوج وعلامته، إقدام الزوج على خلع معطف زوجته أو تمزيقه بحضور شهود، كما كان للزوجة الحق بالمبادرة بقطع العلاقة الزوجية، بمعنى أن العصمة بيدها.

وقبل أن نختم فصل الحياة اليومية في شقها حول النشاط الحرفي، ينبغي أن نشير إلى ما يقوله المؤرخ الفرنسي جان بوتيرو في مؤلفه "بابل والكتاب المقدس" حيث جاء فيه: " يوجد في ملفي حوالي ٨٠ رقيماً صغيراً، صادرة عن " مُعَطِّرَة " قصر ماري. وقد اكتشفت فيها ليس فقط ميلاً واضحاً لدى هؤلاء الناس القدماء للدهون والعطور، حيث كان يوجد حوالي عشرة أنواع منها بعضها مركّب ودون شك مكلف.



وقد كان بوسع عَطّاري قصر ماري، أن يصنعوا منها ٦٠٠ ليتراً في الشهر على الأقل. ولعل هذه المنتجات المكررة تستخدم لعدد من الاستعمالات الممكنة، الطبية، الدينية، التبرج، نفقات الزوجة وآداب المعاشرة ".

4

الفصل الرابع

اللمحة السكانية في عهد سرجون

الفصل الرابع

اللمحة السكانية في عهد سرجون

□□

قبل أن نتابع تطور الدولة العربية السورية التى أقام دعائمها سرجون، وجعل منها منطقة الحضارة الأولي فى العالم القديم، وفتح أبواب التطور الرأسمالي على مصراعيه فى البلاد بعد أن ضبط كل بوابات الإثراء الفاحش تحت رقابته، وحرر الإنسان العربى لأول مرة من استبداد النظم الاقطاعية الدينية ذات المصالح الجامدة الضيقة، وذات النظرات البليدة الى الحياة والمستقبل، لابد لنا من وقفة قصيرة نعيد بها الى ذهن القارىء صورة التوزع السكاني، حتى لا يقع مرة أخرى، كما عودنا المؤرخون، نهباً بين مجموعة من الأسماء المتزاحمة على خارطة المنطقة.

إننا، إذ نتحدث الآن عن العرب الأموريين، فليس هذا يعني أن هؤلاء الأموريين لم يكونوا موجودين من قبل، وقد بينا كيف أن السومريين هم أيضا أموريون، ثم إن هذا لا يعني إطلاقاً أن الأموريين سوف يزولون عن الخارطة بانتهاء حكم سرجون وبنيه، وبتدمير عاصمته "إجادة" (أكادة) واجتياح قبائل الغوتيين لها.

إن فى إمكان القارىء أن يتصور وجود الأموريين قبل آدم هذا الذى نعرفه فى خارطة النسب، وهو أبو شيث الذى أخذنا منه خطاً واحداً لتفرعاته يبدأ بآنوش وينتهى عند نوح الذى نبدأ عنده بذكر أكثر من فرع له بين الأبناء لأول مرة، إن ذلك يعنى أن العرب الأموريين كانوا ينتشرون فى الأرض العربية مثلهم مثل السريان (أبناء "سر") والعرب (أبناء "رب") وهذا مما جعل الرسول العربى محمداً صلى الله عليه وسلم يقول عن آدم إنه أحد الرسل الأربعة السريان (آدم ولك

ونوح وخنوخ)، لأن لغته كانت عربية سريانية، وهو من أبناء "سر" ثم إن بإمكان القارئ أن يتصور جميع ولد آدم الآخرين بجميع فروعهم وقد استمروا يتناسلون ويتكاثرون منذ الألف الخامس قبل الميلاد، إلى جانب تفرعات الخطوط الأخرى التى احتفظنا منها بخط واحد: أى إلى جانب تفرعات شيث وأولاده إخوة أنوش، وأولاد أنوش الآخرين إخوة قينان، وأولاد قينان الآخرين إخوان مهلائيل، وأولاد مهلائيل الآخرين إخوة اليارد، وأولاد اليارد الآخرين إخوة أخنوخ، وأولاد أخنوخ الآخرين إخوة متوشالح، وأولاد متوشالح الآخرين إخون لك، وأولاد لك الآخرين إخوة نوح، وأولاد نوح الآخرين إخوة سام وحام ويافث، ثم أولاد سام الآخرين إخوة أرفخشاد وآرام وآشور وعيلام ولاوذ.. وهكذا.

فلو أخذنا أولاد جاشم مثلا، ممن عرفوا وثبتتهم قوائم خطوط الأنساب، (علما أن جاشم هذا هو ابن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح)، لوجدنا بنى الأزرق، وغفار، ولفا، وبديل، وراحل، وهزان، وجرهم، ومطر، والأرقم جميعهم من بنى جاشم هذا .

إن عملية دفق الخطوط السكانية من خلال تكاثر فروعها وأجيالها عملية مستمرة ولا يمكن أن يحيط بها أحد، ولذلك فمن العبث، بل والسذاجة أيضاً، الحديث عن قبائل وأصول قبلية، حتى فى زمن سام بن نوح، فى وجود وقيام هذه الدولة العربية أو تلك، إن السومريين ليسوا قبائل سومرية، وإن الأكاديين، أو البابليين، أو الفينيقيين، ليسوا قبائل أو دولاً لقبائل، إن العنصر العربى يملأ الأرض العربية بجميع فروعه، ومن البديهي أن تتصدى هذه المجموعة السكانية أو تلك لمهمة الحكم، بناء على مجموعة من الشروط والعوامل والظروف التى جعلتها هى، دون غيرها، مهيأة لأن تقوم بهذا الدور، وبهذه الدرجة أو تلك من النجاح أو الفشل، لكن ليست، بأية حال، مجموعات عشائرية.

إن العرب الأموريين يملأون الساحة العربية من الخليج العربى شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً والى جبال عسير والحجاز وشواطئ بحر العرب جنوباً، وإن فى إمكاننا أن نلاحظ فى فترة سرجون هذه، كيف أن العرب الساميين بجميع فروعهم يختلطون بأولئك الأموريين والسريان منذ عهد سام نفسه، ويكونون

معهم فى عملية تاريخية متواصلة ظاهرة الشعب والأمة من خلال الأرض الواحدة واللغة الواحدة، بل والأصل الواحد، والثقافة والتراث والتاريخ الواحد، فإذا كنا قد صرنا نتحدث فيما بعد عن العرب الساميين المتواجدين فى كل مكان من الأرض العربية فإن هذا لا يعنى مطلقاً أن هؤلاء بدأوا من سام.

كما أننا إذا ما أردنا التحدث اليوم عن العرب الحاكمين فى أقطار عربية متفرقة، نجد أن عروبة المنطقة لا تحددها فعلا عروبة أسرهم التى ينحدرون منها، إن العروبة هى الأصل، وهى الموجودة منذ أن عُرف الإنسان على هذه الأرض من العالم، إن هذا، على الأقل، هو ما تؤكده كل الاكتشافات يوماً بعد يوم، والعروبة هذه تجلت وتتجلى، قبل كل شىء، فى اللغة بلهجاتها الثلاث الرئيسية: السريانية فى الشرق (منطقة الخليج وسومر)، والأمورية فى الغرب (ما يدعى اليوم بالعراق وسوريا وفلسطين والأردن والحجاز وعسير)، والعربية الأم النقية فى وسط شبه الجزيرة العربية.

وإذا ما أردنا أن نتجاوز ذلك إلى تحديد سكاني أكثر أيام سرجون، لقلنا إن العرب الكنعانيين أبناء حام أشقاء الساميين، نزلوا السواحل الممتدة من البحرين شرقاً إلى عمان، وحضر موت، والحبشة، وأرتيريا، وشواطىء البحر الأحمر الوسطى والجنوبية، وجنوبى مصر، أما ما تبقى فقد شغله العرب الأموريون والساميون، وإن فى ذلك دلالة كبيرة على نضج ثمرة العملية التاريخية فى شكل التجمع السكانى الذى هو الشعب، سيراً إلى تكون الأمة، منذ الألف الثالث قبل الميلاد فى الوطن العربى.

وإن فى إمكاننا أن نتصور الآن كيف أن أولئك العرب يتدفقون من عدة نوافير أو ينابيع قوية فى شتى أرجاء الأرض العربية: فهنالك، إلى جانب الينابيع الثلاثة القديمة القوية العملاقة بكل فروعها السكانية المتدفقة على الدوام (أسرا، عمرو، عرب)، ثمة ينابيع متفرعة جديدة بدأت تلفت الأنظار إليها، وتتمثل فى العرب الآشوريين الجدد أبناء سام فى الشمال على نهر الدجلة والآراميين الذين يكادون يغطون كل مناطق الوجود الأموري فى جوف شبه جزيرة العرب،

والكنعانيين على سواحل البحار الجنوبية التى أشرنا إليها.

وكما تأكد لنا فإن الآشوريين والأموريين شعب واحد، وإن ما كان يؤوق سرجون الأموري كان يؤرق الطلائع الواعية من بين السوريين الذين لم تؤمن حمايتهم نظم الدويلات - المدن الإقطاعية المهترئة الضعيفة أمام أى غزو من الخارج، لقد اعتصم بعض السوريين صعدا على وادي الدجلة فى تلال الشمال، وكأنما أحسوا مسبقا بمقدمات الصراع، وحينما صعد اليهم سرجون كانوا أول من بارك له مخططه وانضم اليه تحت لوائه، دون أن يكلفوه فى ذلك إراقة نقطة دم واحدة، إن الآشوريين ساميون، وآشور هو أخو آرام وارفخشاد وعيلام ولاوذ، وهم جميعا أبناء سام بن نوح، وإن الساميين والحاميين هم جميعا عرب: فإما هم عرب شرقيون (سريان) أو عرب غربيون (أموريون)، أو عرب من وسط شبه الجزيرة العربية، فالساميون جميعا، إذن، من آشوريين وآراميين وغيرهم، عرب، وليس من شأن تسمياتهم أن تنفي عنهم صفة العروبة بل أن تعضدها وتؤكدها، كما أن المضرية والعدنانية والتغلبية والقرشية، والقحطانية، ثم الشمرية، حديثاً، والعنزية، والحديدية وغيرها لا تنفي صفة العروبة عن تلك القبائل بل تؤكدها.

الصراع بين الاتجاهين: الوحدوي الرأسمالي المركزي الجديد ونظام المدن - الدويلات الإقطاعي.

إن سرجون العربي، لم يضرب النظم الإقطاعية التى تجلت فى نظم الدويلات -المدن، بدءا من سومر شرقاً الى الشاطىء الفينيقى غرباً، لأن سكان تلك المدن لم يكونوا أموريين، أو لأن حكامها لم يكونوا أموريين كما يحب كثير من المؤرخين أن يلاحظوا، لقد ثبت ، كما بينا ، كيف أن جميع سكان مدن سومر وحكامها كانوا أموريين وسرياناً من أور جنوباً ، إلى كيش ولارسا وأوروك، إلى ماري فى أعلى الفرات، كما أن سكان وحكام إيبلا (عبلا)، وأوغاريت، وجبيل، وحلب، وحمص، وحماه، ودمشق، وصور، وصيدا، وغزة، وأريحا كانوا أيضا جميعهم كذلك، إن الصراع الذى خاضه سرجون العظيم لم يكن ليتقزم إلى هذا المستوى القبلى المنحط الذى يشاء كثير من المؤرخين المغرضين تثبيته بمسامير على صفحات

التاريخ.

إن سرجون كان يمثل فى ذاته خطوط التطور الكبرى الأكثر تقدما فى واقع مجتمعه وبلاده، لقد مثل صراعاً بين النظام البورجوازي الصاعد وبين نظام الإمارات الاقطاعية البليدة المهترئة الجامدة، إنه صراع يخوضه الجديد بكل ما يمثل من نزوع إلى الوحدة، وفصل الدين عن الدولة، وسيادة الأمن والقانون لجميع المواطنين، وتحرير جميع فئات الشعب الشغيلة والكادحة من ابتزاز واستبداد الإقطاع ورجال الدين، من أجل سيادة حرية التملك والعمل لحساب الإنسان وأسرته لا لحساب الآخرين، وازدهار فكرة المواطن والدولة، بعيداً عن شعوذات رجال الدين وقيودهم الروحية الكاذبة، الموجهة حصراً للحفاظ على مصالحهم ومصالح حلفائهم من أمراء الطبقة الإقطاعية المتنفذة فى المدن والمقاطعات، وبعيدا عن استبداد وظلم اولئك الأمراء والحكام.

ذلك كله جوهر الصراع الذى خاضه سرجون ضمن حدود وطنه، لقد كان يهدف إلى تقويض أسس وأطر النظام البالى القديم الذى لم يعد يستجيب لمتطلبات تطور الإنسان العربى وإمكاناته الإبداعية المتوثبة، وإقامة نظام جديد على أنقاضه، نظام الدولة المركزية، الموحدة، القوية، القادرة على حماية جميع المواطنين وحماية ممتلكاتهم، وتوفير كل شروط الإبداع لهم، وردع كل القوى الطامعة فى الاعتداء عليهم من الخارج، فهل انتهت هذه الدولة الجديدة مع نهاية سرجون، كما يحب كثير من المؤرخين أن يقولوا أن يؤكدوا، أم انها ظلت حية فى مواطني سرجون من بعده؟ هذا ما سوف نستعرضه الآن ولو فى لمحات موجزة.

كنا قد أسلفنا القول إن ثمة الكثير من الرجال فى التاريخ الذين أحدثوا دويّا كبيراً نتيجة لسيطرة نزعتهم القوية إلى الحرب والغزو والفتوح، دون أن يكون فى ذلك أى مضمون آخر فكري أو روحي يقدمونه للبشرية فى هذه المرحلة من التاريخ أو تلك، أو يقنعوا العالم بأنهم إنما خاضوا تلك الحروب والصراعات الدامية الرهيبة من أجل اجتثاث قويا تخلف معوِّقة لتقدم البشر ككل، وفرض نظم إنسانية واجتماعية أكثر تقدما، وأوردنا أمثلة على هذا النموذج من الرجال

أصحاب الدوي: الاسكندر، وقورش، وجنكيزخان، ونابليون، وغيرهم.

أما سرجون العربى الأموري فقد وضع فى حسبانه أشياء أخرى مغايرة تماماً لما يمكن أن يضعه رجل الحرب للحرب، علما أنه لم يعرف طعم الهزيمة فى يوم من الأيام، ولم يكن من حوله ثمة قوة قادرة على الوقوف فى وجهه إذا ما أراد التوسع خلف حدود وطنه، لقد كانت سيوف سرجون أدوات لرسم عالم حضارى جديد، العالم النموذج، الرائد فى الحضارة والبناء، بناء الأرض وبناء الإنسان المستقبلى الجديد.

إن المفاهيم الجديدة التى حملها سرجون، ونضجت لديه عبر مسيرة طويلة من التراث الحضارى العربى العريق والأصيل، مروراً بشرائع العدل والحرية لدى كل من عشتار وأوركاجينا، ونزعة التوحيد لدى لوجال زاغيرزى، هى الرسالة التى تمثلها جيدا سرجون واقتبسها من شعبه وبسطاء مواطنيه، ليجسدها على درب التطور مرحلة جديدة أرقى فى دولة موحدة قوية مشبعة بروح الحرية والعدالة وسيادة القانون لجميع المواطنين فى زمن كان ولا يزال الانتقال من الحصول على القوت إلى جمعه وتكديسه مسألة تحتاج إلى حل لدى كثير من شعوب العالم الأخرى.

إنه لضروري أن يتخلص القارئ من متاهات المؤرخين المغرضين الذين جعلوا من قضية التسميات مسألة بالغة التعقيد طمسوا بها حقيقة وجوهر تاريخ الشعب العربى على مر عصوره، وجعلونا لا نعرف حدود مفهوم "السومرية" وأين تبدأ أو تنتهى حدود "الأمورية" فى المدينة الواحدة، فنراهم يؤكدون أن السومريين كانوا هم الحكام حتى عهد سرجون، وأن الشعب كان شعبهم، ثم نجد فى مكان آخر أن أسماء جميع أولئك الحكام هى أسماء (هى فى الحقيقة ألقاب) عربية سامية أصيلة، ثم نجدهم يتحدثون عن استقلال هذه المدينة "السومرية" من جديد، وكل ذلك فى عملية معقدة خاطئة لا تمت إلى العلم أو المنطق بأية صلة، لقد بينا طبيعة الصراع الذى خاضه سرجون، وشرحنا مضمون الدولة الجديدة التى بناها سرجون، وأن هذا، لا شك، لم يكن ليحذف "القديم" كله بكل تراثه ومؤسساته، وتشابكاته، ومتعرجاته النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية،

والدينية، وتشابك أسلحته وأدواته، بل، على العكس، كان لابد من أن يثير فيه ردة فعل ما فى هذا الوقت أو ذاك، إن القديم لم يكن ليستسلم ويلقى كافة أسلحته فور انتصار الجديد، والتاريخ حافل بالأمثلة التى تؤكد جميعها هذه الحقيقة، وليس ثمة أى حادث من شأنه أن يؤكد العكس إن تمرد بعض المدن على نظام دولة سرجون الجديد لم يكن تمرداً عرقيا، أو حتى قبليا، كما يردد أولئك المؤرخون، إنه لم يعد كونه حلقات فى ذلك الصراع الكبير بين نظامين اجتماعيين سياسيين اقتصاديين متناقضين: نظام الدولة البورجوازية الموحدة الناهضة من جهة، ونظام الدويلات - المدن الإقطاعية الدينية المتخلفة، من جهة أخرى.

ومنذ أن نضع فى اعتبارنا هذا الأساس لفهم أحداث تلك المرحلة من التاريخ تزول كافة الإشكالات، وتنجلى كل تلك البقاع المظلمة التى تعمد المؤرخون أن يبقوا عليها بعيدا عن النور.

لقد رأينا أن عمدة النظام القديم وأنصاره، ممن ضربت مصالحهم فى عهد الدولة الجديدة بكل ما تمثله من بوابات عملاقة للتحرر والتقدم الرائدين فى ذلك الزمان، لم ينتظروا موت سرجون ليتحركوا ضده بعد أن طال زمن انتظارهم (حكم سرجون ٥٥ عاما) ففى آخر أيامه ثارت كل تلك الكيانات الهزيلة داعية إلى الانفصال عن الدولة المركزية الواحدة، لكن، وكما يذكر المؤرخون، "انطلق الأسد الشيخ إلى المعارك جميعا، وقهر كل خصومه موطداً دعائم دولته من جديد".

إن العظماء فى التاريخ يرون أحداث الزمن فى المستقبل أيضا، وعلى أساس ذلك يبذلون كل جهودهم من أجل حل معضلات المستقبل القريب على الأقل إبان حياتهم هم، ونحن، إذ لا نشك فى عبقرية سرجون وذكائه الوقاد الذى كان يسبق الزمن بكل ما يقوم به إبان حياته، إلا أن ظروفا كثيرة كان لا يمكن التغلب عليها بمثل هذه البساطة، لقد صارت "أكاد" عاصمة الدولة العربية السورية التى قامت، لأول مرة، وشملت الهلال الخصيب كله من شواطئ) البحر الأسود إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب، ومن زغروس إلى البحر المتوسط، ومعه قبرص أيضا ولقد كانت إدارة مثل هذه الرقعة الشاسعة والسيطرة عليها فى زمن ليس فيه من واسطة للنقل او الاتصال غير أقدام المشاة أو الجمال أو الحمير أو

الخيول من الأمور الشاقة إن لم نقل المستحيلة.

ثم إن سرجون، أو غيره من قادة ذلك الزمان، مهما بدا فى عين التاريخ عظيما، فإن عظمته هذه كانت سلاحاً ذا حدين، وكثيراً ما تدفع الشعوب ثمنا فادحاً لها، إن قائداً عظيماً مثل سرجون كان لابد وأن يحدث فراغاً عظيماً بعد موته لدى شعبه وفى المنطقة التى كان يملأها بسياسته وممارساته وأفكاره الجديدة، وإذا ما تذكرنا أنه لم يكن ثمة أحزاب أو تنظيمات شعبية تبادر فورا إلى ملء الفراغ والدفاع عن المكتسبات التى حققها المجتمع فإن الحقائق كانت تفرض واقعا آخر مغايراً: وهو أن يبقى أمر استمرار التطور مرتهنا بمن سيخلفون هذا القائد العظيم أو ذاك، إلى درجة كبيرة، وكثيرا ما كنا نرى المجتمعات والدول تتخبط لفترات قد تطول أو تقصر، وأحيانا تنزلق العجلات بها إلى الخلف وكأنما انقطع فجأة الخيط الوحيد الذى كانت معلقة به ويشدها إلى أمام، وهذه المراحل، مع تصور وجود العدو المتربص، تبقى فى حياة الشعوب أخطر المراحل على الإطلاق.

اغتيال ريموش بن سرجون لضعفه :

لما مات سرجون خلفه ابنه "ريموش" (٢٣٠٠ لأ ٢٢٩١ ق.م) وكان عليه أن يوجه الضربات الساحقة لبؤر التمرد المتمثلة فى تحالف رجال الهيكل والأمراء الإقطاعيين، ويثبت فصل سلطة الدين عن الدولة التى بدأها أبوه، لكن ريموش أبدى من الضعف ما شجع تلك الأطراف المتمركزة، خاصة فى مدن سومر وعيلام، على التمرد، وحينما بدأ بإخماد تلك الفتن كانت قد استشرت لتحط من هيبته وهيبة جيش أبيه الذى لم يعرف طعماً للهزيمة ولا للتردد فى سحق أعداء الدولة دونما إبطاء، إن هذا هو ما أفضى ببعض جنوده إلى اغتياله وهو فى إحدى حملاته على مدن عيلام، وخلفه أخوه مانيشتوزو بن سرجون الذى أدرك على ما يبدو - كيف أن الأعداء الخارجيين أخذوا يتحفزون للانقضاض على الدولة مغتنمين فرصة انشغال الجيش بإخماد الفتن والثورات الداخلية لقد كانت قبائل اللولوبى والكاشيين والغوتيين تترصد اللحظة المناسبة لتنقض من خلف مكامنها فى جبال زغروس على أكاد الفتية، فلم يكن لدى مانيشتوزو ثمة وقت

يضيعه، فسرعان ما أنزل جيشه فى الخليج وعبر إلى سواحله الشرقية إلى أرض عيلام، وضرب الجيوش التى كانت قد أعدتها المدن المتمردة لملاقاته، ويذكر المؤرخون أنه دمر جيشاً لـ ٣٢ حاكماً، ثم توغل إلى جبال الفضة فى شرق شمال زغروس متحديا تلك القبائل الهمجية فى معاقلها، ولقد حكم مانيشتوزو ١٥ عاما، ثم خلفه من بعده ابنه "نارام سين" (حبيب سين رب القمر) الذى حكم فى الفترة ما بين ٢٢٧٥ - ٢٢٤٠ ق.م.

الدفاع عن مكتسبات سرجون :

لقد وجد نارام سين نفسه أمام طريق لا خيار فيه : إنه الحرب، لقد كان جده سرجون قد أسس مدرسة عسكرية متفوقة ما تزال قائمة بجيشها وبالروح القتالية المتوفر لديه، فقرر أن يغتنم الفرصة ويقود ذلك الجيش المتفوق ليقضى على كل الأخطار التى تهدد الدولة التى نهض بها جده من قبل، وترك لهم مهمة إكمال المسيرة، فتوجه إلى جزيرة العرب لتأمين أمن القوافل وضرب عشائر الآراميين فى عبلا شرقي بلاد غامد، ثم ضرب عشائر الحوريين هناك، وثارت ماجان فى عيلام، وانقض عليها كما سحق فى طريقه قبائل اللولوبى فى جبال زغروس، وأقام تخليداً لذلك نصباً أقامه فى دار بندي جور فى شرق عيلام مازال موجودا حتى اليوم فى متحف اللوفر، يظهر عليه نارام سين بعمامة ذات قرنين رمزاً للقوة التى كان يحتفظ بها القادة السوريون، يتسلق جبلاً وهو يمشى فوق جثث الأعداء المتناثرة وقد لقب بـ "شار كبرات أربعيم" أى ملك المناطق الأربع وأشار كشاتى أى (رب الطعام) وهذا لقب الرب، "داجان" وصار يسبق اسمه فى الكتابات بصورة النجمة علامة الربوبية التى تقرأ بالسومرية "دنجر" ومعناها الخالد الدائم، لكن المؤرخين الأجانب لم يفهموا معنى الكلمة، وفسروها بلغاتهم هم، ونقلها عنهم بعض الباحثين العرب بخطئها، يقول الدكتور وديع بشور: "وقد أطلقوا اسم جنس على الآلهة هو "دنجر" أي إله".

لقد تمكن نارام سين من تثبيت أركان الدولة طيلة فترة حكمه، لكن استمرار تواطؤ الخصوم فى الداخل والخارج جعل حروب الدفاع عن الدولة لا تنقطع قرابة قرن من الزمان مما أرهق الجماهير الشعبية التى كانت بمثابة العمود



الفقري للجيش الأموري منذ عهد سرجون الذى تخلى عن أسلوب الاعتماد على الأمراء الاقطاعيين فى تشكيل الجيوش، واعتمد على لجان من الشعب تعود فى تنظيمها إلى القصر مباشرة، وصار الوضع مرتبطا أكثر بمدى قدرة حكام النظام الجديد على المثابرة والصمود فى الخط الذى كان قد رسمه واعتمده واختطه سرجون، وقد تبين أن تلك الجماهير المرهقة بسبب ما تكلفته على امتداد مئة عام من البذل والقتال، هى نفسها التى ظلت مثابرة حتى النهاية على التمسك بمبادئ الحياة الجديدة متكاتفة فى ذلك مع الجيش الذى خلفه سرجون جديداً بنظامه، وتربيته، وتدريبه، وتسليحه، واندفاعه، وارتباطه بجماهير الشعب، وحقده على نظام الإمارات الإقطاعية البائد.

وهكذا نرى أنه ما إن مات "نارام سين" الذى سار على منوال جده، حتى خلفه ذاك الذى لقب بـ "شاركل شاري" (أى ملك كل الملوك) على العرش، وكان ضعيفاً، انحطت الدولة فى عهده، وطمع بها كل خصومها من جديد فى الداخل والخارج على السواء، وبدأت حركات العصيان تظهر بقرونها فى مدن سومر وعيلام، كما بدأت قبائل اللولوبى والغوتيين تتحفز للانقضاض على "أكاد".

قتل الملك لضعفه :

إن احتدام تحركات الأعداء من جهة، وضعف الملك من جهة أخرى، أوقع الجماهير وقوات الجيش فى جو من البلبلة، ومرة أخرى يلجأ الجيش إلى قتل الملك، لكن فى قصره هذه المرة، ودون أن يوفق فى قائد حقيقى قادر على أن يسد الفراغ الذى كان يملأه سرجون أو حفيده نارام سين، إن هذا جعله يعمد إلى قتل الملك وتغييره خلال أقل من عام تقريبا، وسادت فترة من الفوضى حكم خلالها

أربعة من الملوك مدة ثلاث سنين فقط، فى جو من نقمة جماهير الجنود والشعب معاً فكان الجنود يعبرون عن تلك النقمة بقتل الملوك، وكانت جماهير الشعب، وحتى موظفى القصر يعبرون عن ذلك بطرقهم الخاصة أيضاً.

لقد جاء فى ثبت الملوك الأموريين عن هذه الفترة تحديداً.

"من كان ملكاً؟".

"ومن لم يكن ملكاً؟".

"هل كان أجيسي ملكاً؟".

"هل كان نانوم لكاً؟".

"هل كان ايمى ملكاً؟".

"هل كان ايلولو ملكا؟".

"الأربعة كانوا ملوكاً وحكموا ثلاث سنين".

وعلى أية حال، فقد لعب فى ذلك الصراع عاملان وكان لهما تأثير بالغ على مجريات الأحداث فى ذلك الزمن، وحالا، بصورة من الصور، دون تمكن القادة من حسم الأمور كلية، لصالح النظام الجديد، أول هذين العاملين، وقد أشرنا إليه، هو اتساع رقعة الدولة، والمساحات الشاسعة التى تفصل منطقة عن أخرى فى وقت تنعدم فيه أية واسطة للنقل والاتصال، والعامل الثاني هو أن العدو الخارجى لم يكن فى شكل دولة ما، أو جيش منظم يمكن قهره وتحسم الأمور، لقد كانت البلاد - كما قال هنري فرنكفورت - "بلادا متحضرة ومزدهرة، إنما كانت تعوزها الحدود الطبيعية، لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بإمكانيات النهب الهين، وهكذا تعهد ملوك أكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد، حتى إنه فى الألف الأول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال أرمينيا، ثم اتجاهه نحو الغرب، محاولة سنوية منظمة مركزة لصد الجبليين عن حدود الدولة، لأن إخضاعهم بصورة دائمة، وعندهم هذه الإمكانية غير المحدودة للانسحاب إلى وديانهم البعيدة، كان مستحيلاً، ومنذ عهد سرجون الأكادي أدرك

الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة مركزية، لقد كان لابد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفى لمجابهة العدوان هناك".

إن فى هذا القول، الذى سبق أن توقفنا عنده من قبل، تأكيداً لعدة حقائق يهمنا أن نثبتها هنا، وهى : أولا: قوة العامل المتمثل بنوعية الخصم الخارجي، الذى هو بمثابة قبائل هائمة لا أرض لها ولا مقرات أو عواصم، وبالتالي فإنه حينما ينسحب من منطقة إلى أخرى لا يفقد شيئا، ويستنفد بذلك جهد الجيش النظامي وطاقته فى تعقبه أو انتظاره.

ثانياً: لقد كان الناس وجماهير الشعب، بالدرجة الأولى، وليس الملوك وحدهم، أشد وعياً لضرورة الاحتفاظ بالدولة المركزية القوية القادرة على درء كل الأخطار عن حدود الوطن ومدنه الداخلية، ثالثاً: إن فى هذا القول لأحد المؤرخين تأكيدا على ما سبق أن أوضحناه وهو أن الآشوريين، مثلهم مثل الأموريين، جعلوا دأبهم الاستمرار فى النهج الذى اختطه سرجون فى إقامة الدولة المركزية وتوجيه ضربات منتظمة للأعداء المتربصين بها من خلف الحدود، إن ذلك يؤكد على استمرار نهج سرجون من بعده لدى كل الحكام الآخرين بغض النظر عن مدى النجاح أو الفشل فى تطبيق نهجه وسياسته.

مرحلة الفوضى فى الدولة :

إن مرحلة الفوضى التى دخلت فيها البلاد والدولة عموما منذ نهاية حكم نارام سين كانت تعكس حدة الصراع، وصعوبة التحديات، وإن المقاومة التى أبدتها تلك الدولة الناهضة الجديدة، رغم كل تلك التحديات الجدية والصعبة، والتى استمرت زهاء قرن من الزمن دون أن تستسلم للضعف أو للانهيار، لدليل كبير على مدى رسوخ تقاليد وأفكار الحياة الجديدة التى غرسها سرجون فى نفوس مواطنيه، إن عنف، وقساوة، وجدية الخصوم الداخليين فى عدائهم للنظام الجديد، لم يكن، مع تألب كل قوى الغزو على الحدود أيضاً، لينهزم على مدى قرن كامل لولا جدية القوى المدافعة عن النظام الجديد أيضاً، إن طول زمن واحتدام ذلك الصراع كان شاهدا حقيقيا على قوة النظام الجديد وليس العكس.

صحيح لقد انفصلت أوروك فى أواخر حكم نارام سين، ثم حذت حذوها عدة مدن سومرية وعيلامية أخرى، لكن ذلك الانفصال لم يمكن الحكام الجدد لتلك المدن من أن يعيدوا الزمن إلى الوراء، ويحكموا بالأسلوب نفسه الذى كانوا يحكمون به من قبل، لقد ثبت أخيراً أن النظام والأفكار التى أقامها سرجون فى أرجاء دولته الجديدة وجدت طريقها إلى قلوب شعبه مباشرة، فتلقفها ، ورعاها، ودافع عنها، ولم يسمح للأمراء الاقطاعيين - الدينيين أن يعودوا إلى ابتزازه بالأساليب القديمة، بل ظل متمسكا بالمكتسبات التى منحه إياها العهد الجديد.

ولقد شعر أولئك الحكام الإنفصاليون الصغار بأن ناقوس الخطر قد دق فعلا ليعلن نهاية نظام المدينة - الدولة، وأن عهد الدول المركزية الكبرى قد بدأ فعلا لا قولاً، وأن دولة سرجون لن تنتهى هكذا بالسهولة التى يتصورون، إذ إن لها جذورا أخذت تعشش وتنتشر فى نفوس الشعب، وكان الطريق الوحيد أمام تلك القوى الرجعية الاستغلالية المتعفنة هو أن تستنجد بقوى الغزو الهمجية من الخارج.

النزاعات الانفصالية:

كان نارام سين قد وضع يده على الجرح، وقضى فورا على كل النزاعات الانفصالية فى إيبلا ومارى، ثم ارتد ليضرب قيادة ذلك التجمع الاقطاعى الديني فى مركزه الرئيسي، فى نيبور، المدينة المقدسة، حيث لم يكن يخطر فى ذهن تلك القوى أن نارام سين أو غيره يمكن أن يجرؤ على القيام بمثل هذه الخطوات، لقد دمر نارام سين المجمع الدينى فى "نيبور المقدسة" وفيها الـ "ايجور" معبد انليل، لذلك اتجه رجال الدين إلى الغوتيين الهمجيين فى الجبال، وتواطؤوا معهم من أجل توجيه الضربة الانتقامية الماحقة إلى "أكاد" تنفيذا - فى زعمهم - لرغبة انليل فى الانتقام، لقد ثبت أن تلك الفئة الرجعية، التى أعمتها مصالحها الأنانية الضيقة عن رؤية أى ما من شأنه أن يجمعها بالوطنية والوطن والمواطنين، كانت لا تتورع عن فعل أى شىء، والتعامل مع أشد خصوم الوطن همجية وحقداً من أجل الانتقام من أولئك الذين كشفوا حقيقة استغلالها وابتزازها للمواطنين تحت ستار الدين، وقطعوا كل دابر لأسباب بقاء تسلطها واستغلالها.

لقد تجلى حقد تلك الفئة على أبناء الوطن الناهضين فى القصيدة التى

نظمها باسمهم شاعر الهيكل وسجل أحداث الفترة بعد أن قرر زعماء المعابد فى مدن سومر وعيلام أن يربطوا مصيرهم بانتصار قبائل الغوتيين المتوحشة فى غزوها لوطنهم، وتدميرها لمدنه، ولمستقبل تطوره، لقد استعانوا علانية بالغوتيين مستنزلين كل صنوف الشر والدمار بأبناء الوطن وعلى "أكاد" خاصة عاصمته، ورمز نهوضه وانطلاقه فى الزمن المشرق الجديد، لقد نظمت تلك القصيدة بعد اجتياح "أجادة" (أكاد) على أيدي الهمجيين الغوتيين، إلى جانب تلك الفئة المتخلفة التى حولت الدين من مؤسسة تعاونية اجتماعية اقتصادية، كانت أول مؤسسة اشتراكية من نوعها فى العالم، إلى بؤرة للبدع الفكرية والروحية، ولاستغلال وابتزاز جهود المواطنين، ضاربة عُرض الحائط بكل القيم الدينية الأولى التى بها انتظم المجتمع، وانتشرت فيه من خلالها مشاعر التعاون والمحبة والفرح، من أجل ضمان مصالح أفراد قلائل صاروا عالة متطفلين على المجتمع وتطوره، لقد أسقطوا تلك المؤسسة الدينية الاجتماعية والوطنية، وصار ألد أعداء الوطن أكثر قربا إليهم حينما يضمن لهم استمرار عملية الاستغلال والكذب والتسلط من أولئك المواطنين، لقد كانت تجربة دولة سرجون القومية بكل تطلعاتها وصراعاتها التجربة الأولى اللازمة، واللازم استيعابها، على طريق تطور البشرية كلها من نظام الإقطاع إلى الثورة الرأسمالية العقلانية.

لقد جاء فى تلك القصيدة :

"أيتها المدينة

يا من تجرأت على مهاجمة الإيجور

وتحديت إنليل عسى أن تتكدس غاباتك

فى أكوام التراب

عسى أن يعود آجرك إلى "الهاوية".

وليكن آجراً ملعونا من "أنكي".

عسى أن تعود أشجارك إلى غاباتها،

ولتكن أشجاراً ملعونة من "نينالدو"

ثيران الذبح – عساك تذبحين زوجاتك بدلاً منها،

أغنام الذبح – عساك تذبحين أبناءك بدلاً منها،

فقراؤك – عسى الجوع يجبرهم على إغراق أطفالهم الأعزاء

يا أجادة ، قصرك المشيد بالفرح عساه
يتحول خراباً محزناً

وحيث كنت تقيمين شعائرك

الثعلب الذى يسكن الخرائب عساه يهز ذيله.

عسى قنوات مراكبك لا يثبت فيها سوى الأعشاب الضارة،

وعسى طرق مركباتك لا ينمو فيها سوى "القصب المُسَيِّل للدمع"

وفوق ذلك ، فى مكان جر القوارب والرسو

عساه لا يقدر إنسان أن يسير بسبب الماعز الوحشى

والديدان والأفاعي وعقارب الجبل.

وسهولك حيث تنمو النباتات المسرة للقلب.

عساه لا ينمو سوى "قصب الدموع"

يا أجادة، بدل مياهك العذبة الجارية عساها تجرى المياه المرة،

ومن يقول "أريد أن أسكن تلك المدينة"
لايجد مكاناً صالحاً للسكن

ومن يقول "سأضطجع فى أجادة" لن
يجد مكاناً صالحاً للنوم"

ثم يختم المؤرخ الشاعر قصيدته بأن يؤكد لنا أن كل ذلك قد حدث لـ "أجادة" فعلا، وأن لعنة الآلهة قد حلت بها، معلنا تشفى ذلك الحلف الإقطاعي الديني وشماتتهم بدمار أول عاصمة للعدالة، وللحكم "الشرعي العادل"، ولأول دولة عربية مركزية ناهضة موحدة:

"لم ينبت فى مكان جر القوارب سوى الأعشاب الضارة

وطرق العربات لم تنبت سوى النبات الباكي

ولا إنسان يستطيع أن يعيش

بسبب الماعز الوحشى والديدان والأفعى وعقارب الجبل

وفى السهول، حيث نما النبات المفرح للقلب

لم يَنْمُ سوى "القصب المسيل للدمع".

وفى أكاد ، بدل المياه العذبة الجارية جرت المياه المرة

ومن قال سأسكن تلك المدينة لم يجد موقعا صالحاً للسكن

ومن قال سأضطجع فيها لم يجد للنوم مكاناً صالحاً"

لقد اجتاح الجوتيون القادمون من الجبال فى الشرق بلاد سومر وأكاد، وارتكبوا فيها كل أنواع الفظائع الوحشية، وصبوا جام غضبهم على "أجادة" خاصة، ودمروها، وقضوا فيها على كل أفراد السلالة الحاكمة التى أسست دولة الوحدة الأولى، كل ذلك بمساهمة ومشاركة الحلف الرجعي الداخلي المتمثل فى زعامات المدن الإقطاعية ورجال الدين.

لقد عم الخراب والفوضى أنحاء سومر وأكاد زهاء قرن من الزمن، انحسرت فيها هيبة القوى الجديدة التى ظلت تفتقر إلى قيادة قوية حازمة تفرض نفسها وتشد أشتات الجماهير المبعثرة إلى تحت جناحها، بينما كانت كل الشروط قد أصبحت مهيأة لقوى الإقطاع الديني شبه البائدة من أجل أن تجمع فلولها تحت مظلة الاحتلال الغوتي المتواطئة معه، وتتبعث على الساحة من جديد لتعمل أسلحة انتقامها فى كل القوى التى ناصبتها العداء فى الزمن الماضى.

فى غمرة تلك الصراعات الدامية كان ممثلو العهد الجديد فى كثير من المدن يتشبثون بمفهوم الدولة القومية السرجونية، ويعضون بالنواجذ على مكتسباتها، متحينين الفرصة للانتفاضة من جديد فى وجه خصومهم الذين لم يكن

ليسترعي انتباههم شيء فى تلك الفترة غير التعجيل فى استرجاع ما فقدوه من الثروات، والانتقام من تلك القوى الظاهرة فى مقاومتها على الساحة.

لقد أبقى الفلاحون فى كثير من المقاطعات على ملكيتهم الصغيرة للأرض وتشبثوا بها يشجعهم فى ذلك نمو الروح الوطنية والقومية التى أشاعها سرجون وحفيده نارام سين، وعدد من حكام المقاطعات.

وفى حوالى ٢١٣٠ ق.م تمكن حاكم أوروك الملقب بـ "أوتوهيجال" "أتو" أو "أوتو" هو أحد الآباء العرب فى مرحلة الخصب وصارت الشمس رمزا له ويعني المُخَصِّب، ومن صفاته الملازمة له أنه "الراعى" فهو رب الشمس الذى ينضج المحاصيل، وهو بالتالى مرادف لـ "رع" (الراعى) أو أصله الأول، وفى صلاة مرفوعة إليه نقرأ:

"إيه أوتو يا راعى البلاد، وأب سكان السواد

عندما تذهب إلى النوم يذهب معك الشعب لينام

يا أوتو القدير، عندما تنهض ينهض الشعب أيضا معك

بدونك يا أوتو الأمير لا يرتحل والعبد لا يسافر

ولن يسافر وحده، أنت الشقيق التوأم

والرجل فى رحلته يا أوتو أنت معه

وللأعمى أنت العين التوأم

الفقير والبائس والعريان

تلفهم إشراقة نورك مثل حلة من الصوف الطويل

والمحتاج تغطيه بحلة من الصوف الأبيض

أيها البطل ابن الربة، السيدة ننجال، إني أنشد مجدك".

(أوتو الجليل او العظيم) من أن يكسر نير الاحتلال الغوتي ويحرر مدينته، ثم تبعه عدة أمراء من حكام مدن الجنوب، وتمكن "أوتوهيجال" من أن يضرب

الغوتيين فى منطقتهم ويأسر ملكهم "تيريغان":

"جلس اوتوهيجال، وتيريغان يتمدد عند قدميه

برجله داس على رقبته واستعاد سيادة سومر بيديه".

ومن الخطأ الاعتقاد بأن حكام المدن إنما كانوا يعملون بمفردهم وفى معزل عن المد الجماهيرى الكبير، الذى بدأ يتخذ فى تصاعده طابعا قوميا تحرريا.

إن التركيز على دراسة تلك الفترة بالذات يعتبر - فى نظرنا - من أهم الواجبات التى يمكن أن يضطلع بها المؤرخون العرب المحدثون، المتحررون من زيف الادعاء الثقافى والعلمى، والمسلحون بالمعرفة الحقة، وبروح البحث العلمى الموضوعي، وبالروح الوطنية والقومية الصادقة، من أجل سبر حقيقة وجوهر ذلك الصراع الذى خاضه الشعب العربي منذ آلاف السنين ليكسب نزعته إلى بناء دولته القومية مضمونا تحريرياً على صعيدين: داخلي ضد النظم القديمة الاستغلالية البالية، وخارجي ضد الغزاة الهمجيين المحتلين لأرض الوطن، مرسياً - ولأول مرة فى تاريخ البشر - دعائم الفهم الصحيح للقومية والوطن، بعيدا عن أية نزعة عصبية استغلالية متطرفة.

فبينما كان المحتلون الغوتيون وحلفاؤهم يعيثون ضروب الفساد فى الداخل كانت جماهير العرب تغلي، وتتحرك، وتتمحور حول قادة حقيقيين سوف تخرجهم إلى ساحة الصراع فى الوقت المناسب، ولم تكن انتفاضات بعض الحكام هنا أو هناك سوي بداية العاصفة القومية التى تهب دائما من الغرب السوري حاملة الخير للأمة كلها، كما تحمل الرياح الغربية السحب المحملة بالخير والمطر لشتى بقاع الوطن.

أما كيف يفهم مؤرخو الاستعمار والتوسع الاستعماري مثل تلك الظاهرة فأمر آخر

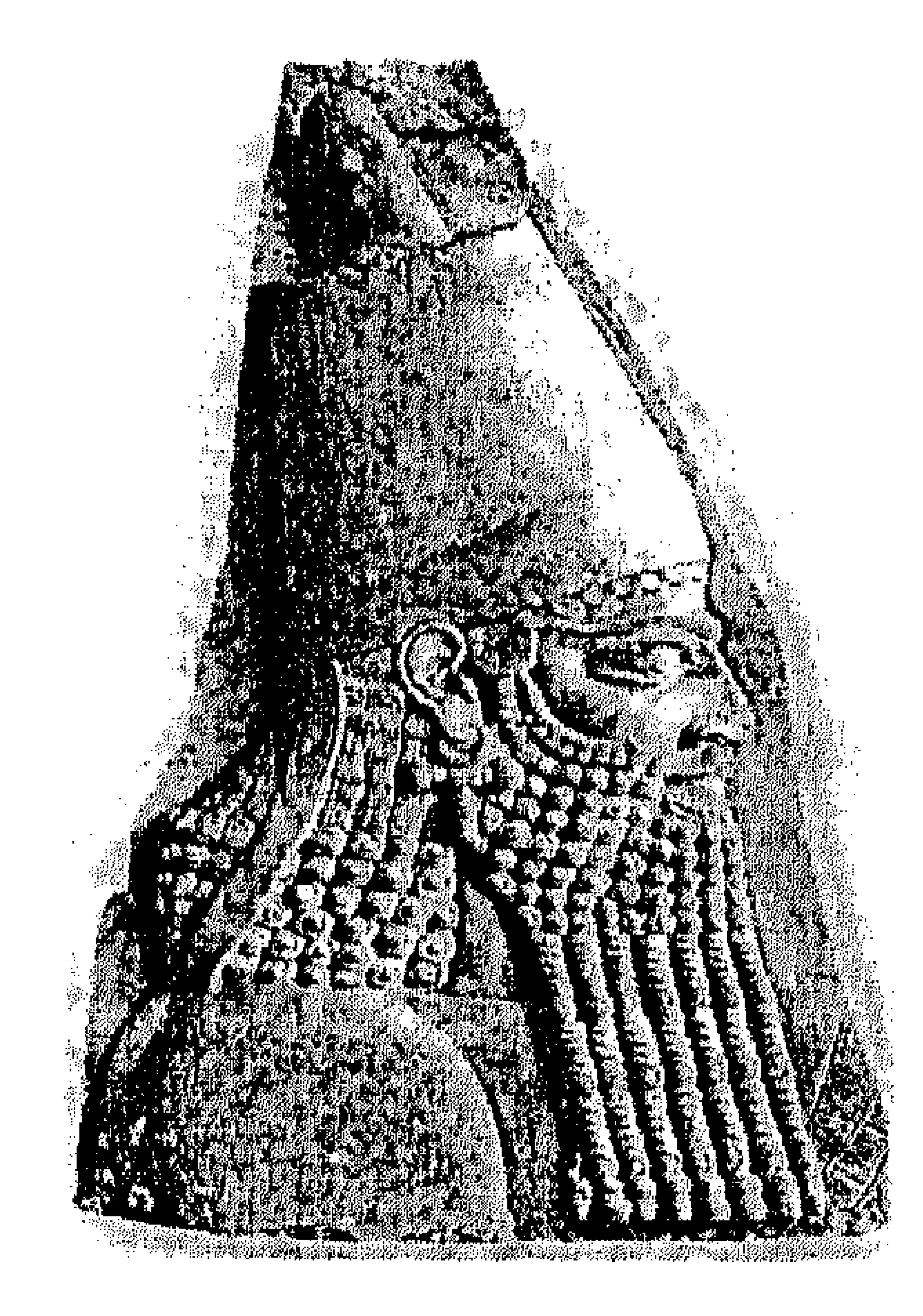
يقول أرنولد تو بينبي: "وأثناء فترة سيطرة الغوتيان تسلل العموريون المتكلمون بالسامية إلى أكاد من الجهة الجنوبية الغربية، وأنشأوا مدينة بابل تبعا لذلك، وقد قضى على الغوتيان أو لعلهم أخرجوا من البلاد فى آخر المطاف، وذلك لأن

الأكاديين والسومريين كانوا يكرهونهم، أما العموريون الذين انتهكوا حرمة الأراضى الأكادية فقد استمروا هناك، وكان أن قاموا بدور رئيسي فى التاريخ السومري الأكادي فيما بعد".

انظر كيف تتم الأمور ببساطة لدى المؤرخين الاستعماريين!.. لقد قضى على الغوتيان أو أُخرجوا ليس لأنهم غزاة محتلون، بل لأن الشعب لم يحبهم، كرههم!.. ولو تمكنوا من أن يجعلوا هذا الشعب يحبهم لتنازل لهم عن أرضه وكل مقدساته وثرواته، ولغفر لهم كل جرائم القتل الوحشي والتدمير الذى فعلوه ببلاده وبأبنائه.

إن الاحتلال لدى أولئك المؤرخين الاستعماريين لا يستحق أن يحمل فى جنبيه حقداً أو تناقضاً قومياً ووطنياً، إنه مجموعة عواطف يمكن تشذيبها من الكراهية الى التحابب، إنه "حاجز نفسي" يمكن كسره وينتهى الأمر!.. أما العرب العموريون سكان المنطقة الأصليون فقد "انتهكوا حرمة الأراضى الأكادية".

وأما أولئك العرب العموريون الذين انتفضوا فى وجه المحتلين وعملائهم من الداخل وحرروا المنطقة كلها، وأعادوا أمجاد الدولة العربية المركزية الموحدة المتحررة فقد "جاؤوا متسللين"، ورغم "انتهاكهم حرمة الأراضى الأكادية فقد استمروا هناك" إن هذا يخالف كل شريعة الاستعمار البريطاني الذى لم يكن توينبى إلا أحد جياده المؤطرة عيونها من الجانبين.



إن توينبي كان يعرف - دون شك - أن الأموريين هم العرب سكان المنطقة الأصليون، وأن ما دعى بالسومريين أو الأكاديين أو البابليين ليس إلا تسميات جغرافية محلية لأولئك السكان الأصليين كما نقول اليوم : بغداديون وحلبيون وبحرانيون وشاميون.... الخ، وهو، على

الأقل، لا يمكن أن يكون بعيدا عن كل ما كتبه غيره من باقى المؤرخين الغربيين وبلغته الانكليزية نفسها عن الأموريين.

لقد وضع المؤرخ الكبير "كيلى" على سبيل المثال، وحده مؤلفين عن الأموريين هما "أمورو" وطن الساميين الشماليين" و"امبراطورية الأموريين" وقال فيهما : "لقد أطلق البابليون تسمية "أمورو" (أو عمورو) على جميع بلاد سوريا، كما أطلقوا على البحر المتوسط اسم "بحر أمورو العظيم"، ويرى "كليى" أن الأموريين "كانوا قد انتشروا فى جميع المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى الفرات ومن ضمنها فلسطين منذ الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد"، ويؤكد كثير غيره من الباحثين والمؤرخين حقائق أخرى أشد عمقا وإبهارا مما يذكره "كليى" عن قدم وجود العرب الأموريين الذى يعود إلى ما قبل الألف السابع قبل الميلاد، مما يجعلهم السكان الأصليين للمنطقة إلى ما يقرب من عشرة آلاف سنة جرى إثباتها بالمكتشفات الآثارية.

لقد ثبت للدارسين أن مدن عبلا (أيبلا) وأريحا، وحماه، وأوغاريت، ودمشق، وماري، وكيش، وأور، وأوروك، وأريدو، وغيرها كثير من المدن التى يصعب حصرها إنما هى مدن عربية أمورية، ومن المعلوم أن بعض تلك المدن يعود تاريخها إلى ما قبل الألف السابع قبل الميلاد كما أكدت فحوصات الكربون المخبرية لآثارها مؤخراً، ومن بينها مدينة أريحا، ويشاهد اليوم مقابل "تل الحريري" على الجانب الأيسر من نهر الفرات فى شمالي سوريا تل أثري يسمى "تل باغوز" يرجع تاريخه الى الألف السادس قبل الميلاد، ويقول الخبراء إنه "من المرجح أنه يمثل بقايا إحدى المستوطنات التى أقامها الأموريون على ضفاف الفرات الشرقية بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب، ويبدو أن هذه المستوطنة السامية كانت تمارس الزراعة التى تعتمد على الرى مستمدة مياه الإرواء من الضفة اليسرى لنهر الخابور"، هذا بالإضافة إلى كل ما قد مر معنا من قبل، وهذا دليل آخر، بصرف النظر عن استخدام كلمة "سامية" بدلاً من "عربية" إذ أنها موجودة قبل أن يوجد سام نفسه بثلاثة آلاف عام على الأقل.

وفى لغش ، وفى حوالى ٢١٥٠ ق.م قام الحاكم الطيب "جودي" بتثبيت معالم

القيم التى يدافع عنها الشعب فى وجه خصومه الداخليين والخارجيين، ولم يسمح بسقوط المكتسبات الجديدة فى أيدى الأمراء الإقطاعيين والدينيين الذين اندفعوا لاقتلاع الجديد من جذوره وإعادة الأمور إلى الوراء، إلى ما كانت عليه إبان تسلطهم قبل سرجون.

لقد حافظ على التراث القومى التحرري الاقتصادي والاجتماعى والحقوقي، والذى تمثل فى محطاته الرائعة فى شريعة لبت عشتار، وأوركاجينا، وسرجون، واعتبر ذلك إنجازات قومية وإنسانية عظيمة ينبغى التمسك بها والدفاع عنها مع جماهير الشعب، مما جعل تلك الجماهير ترى فيه إحدى دعائم مقاومتها، ورمزا من رموز وجودها وتقدمها، فتجمعت من حوله، ورفعت من شأنه، وأبرزته فى كل إنتاجها الأدبى والفنى، وصار أحد السادة المقدسين، أو الآباء المقدسين، الذين فهمهم المؤرخون الغربيون على أنهم آلهة، يقول ول ديورانت : "لقد ازدهرت مدينة لغش.. فى عهد ملك آخر مستنير يدعى "جوديا" تعد تماثيله القصيرة المكتنزة أشهر ما بقى من آثار فن النحت السومري.

وفى متحف اللوفر تمثال له من حجر الديوريت يمثله فى موقف من مواقف التفوق، ورأسه ملفوف بعصابة ثقيلة كالتي نشاهدها فى التماثيل المقامة فى مسرح الكلوسيوم، ويداه مطويتان فى حجره، وكتفاه وقدماه عارية، وتدل ملامحه القوية المتناسقة على أنه رجل مفكر، عادل حازم، دمث الأخلاق، وكان رعاياه يجلونه، لا لأنه جندي محارب، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس أوليوس الرومانى، يختص بعنايته للشئون الدينية والأدبية والأعمال النافعة الإنشائية، شاد المعابد، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التى تدرسها بها البعثات التى كشفت عن تمثاله، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء، ويفصح نقش من نقوشه التى عثر عليها عن سياسته التى من أجلها عبده رعاياه واتخذوه ربّاً لهم بعد موته : "فى خلال سبع سنين كانت الخادمة ندّاً لمخدومتها، وكان العبد يمشي بجواره سيده، واستراح الضعيف فى بلدي بجوار القوي".

تلك هى بذور الأفكار التى لم يعد فى الإمكان اقتلاعها من أعماق تكوين الإنسان العربى (والعموري إن شئت) وتلك هى ملامح دولة الوحدة بمضمونها

القومي التحرري والإنسانى معاً : دراسة للتراث والمحافظة على جوهر كل العناصر الإيجابية فيه كما فعل "جوديا"، وإقامة مجتمع العدل والحرية والمساواة، وتلك هى السمات البارزة التى رسخها سرجون والعرب السوريون عموماً (أو العموريون) قبله وبعده، الذين نعتهم توينبي بقوله : "إنهم دخلاء متطفلون شبه همج"، فهل توصلت حضارة لندن الاستعمارية بعد أربعة آلاف عام من سرجون العربي الأموري إلى القول بأن الخادمة فى بريطانيا اليوم صارت ندا لمخدومتها، وأن العامل الأجير يمشى بجوار سيده، وأن الضعيف يستريح بجوار القوي ولا يخشى غائلته؟..

بعد أن قام اوتوهيجال حاكم أوروك فى الجنوب على رأس جيش يدعمه أمراء سومر الآخرون، وهزم الجوتيين، تزعمت أوروك باقى سومر، ثم جاء "أورنامو" من بعده بعد أن أطاح به، ووحد مدن سومر وأكاد فى مدة وجيزة، ثم كرس بقية حكمه (٢١١٣ - ٢٠٩٦ق.م) للبناء الداخلي، وإعادة النظام والرخاء، والاهتمام بالقيم الدينية الحقيقية، كما حرر البلاد من اللصوص وقطاع الطرق والخارجين على القانون الذين كانوا قد وجدوا فى الفوضى والصراعات التى غرقت فيها البلاد طيلة فترة تسلط الغوتيين والإقطاعيين المتحالفين مع رجال الهيكل فرصة سانحة لأن يسرحوا فى ربوعها كالذياب الهائمة تقنص فى طريقها كل شىء.

لقد أراد "أورنمو" من جهته أيضا أن يثبت ذلك التقليد الذى أصبح قوميّاً، وذلك بأن يربط مفهوم الوطن القومى بالوطن المتحرر الذى تسوده العدالة والقانون والنظام، فنظم وثيقة تشريعية هى الأولى من نوعها فى التاريخ بعد وثيقة أوركاجينا، لقد عثر عليها فى نيبور على لوحة تالفة، ولم يترجم منها إلا حديثا، وما تبقى من التشريع على غاية من الأهمية إذ ألغى القانون البدوي الذى ينص على العين بالعين والسن بالسن، وأجاز التعويض عن الجُرْم بالفضة.

والى جانب ذلك فقد أحيا الزراعة ، وحفر شبكة من الأقنية وحصن المدن، ورمم ما تهدم ومن أعظم أعماله بناء الزيقورات أو أور وأوروك وأريدو، ونيبور، ومدن أخرى، لا تزال أقدم الآثار هناك وأكثرها حفاظا زيقورة أور، وقتل أورنمو فى إحدى المعارك.

ثم خلفه ابنه "شولجى" (٢٠٩٥ لأ ٢٠٤٨ق.م) الذى حكم ٤٨ عاماً، قضى شولجى النصف الأول من حكمه فى البناء السلمي، فأكمل الزيقورات والمعابد التى أسسها والده، وأقام أبنية جديدة، ورفع تماثيل للآباء المقدسين فى مزارتهم وأصلح التقويم ووحد المكاييل على أساس الجور الملكى للحبوب بدل المكاييل المحلية، وأعاد تنظيم البلاد سياسيّاً واقتصاديّاً وإداريّاً، وفى العام الرابع والعشرين من حكمه أخذ يقوم بحملات عسكرية سنوية ضد أعداء البلاد مشياً على التقليد الذى سنه سرجون ثم نارام سين، ومثل نارام سين سمى نفسه "ملك الجهات الأربع"، ثم جرى تعظيمه وتقديسه كواحد من أعظم الآباء فى حياته وبعد موته باسم "شولجي المقدس" وأطلق اسمه على أحد الشهور.

طرد الغزاة وتحرير الأرض :

وهكذا، وبسرعة نموذجية، بالنسبة لذلك الزمن، تمكنت فصائل الاتجاه الجديد، أنصار الدولة المركزية المتحررة الواحدة، من أن يطردوا الغزاة ويحرروا الأرض من المحتلين وعملائهم المتسلطين، ويعيدوا الوحدة بمضمونها السياسي الاجتماعى التحررى إلى أرجاء الوطن كله أما بقية الأرض السورية الممتدة إلى شواطئ المتوسط غرباً وشواطئ البحر الأحمر وبحر العرب جنوباً فلم يحدث فيها ما يخل بتلك الوحدة إطلاقا، بل أخذت تضافر جهودها لتضمها إلى جهود الأموريين والسريان فى مرتفعات شمال الدجلة من أجل تثبيت الأوضاع فى مناطقها وإرسال الدعم إلى مناطق سومر وأكاد من أجل أن تتمكن فى أقصى سرعة من أن تقف على أقدامها وتنتصر لنظام الدولة الجديد.

لقد أدرك شولجي هذه الأوضاع جيدا، فانصرف إلى تثبيت دعائم الدولة فى منطقة سومر وعيلام حيث تتجلى أعظم المخاطر فى الاتصال الجغرافي ما بين رموز النظام القديم والأعداء المتربصين فى معاقلهم فى الجبال، لقد أثبت شولجي بالفعل أنه استمرار حقيقي لأولئك القادة العظام الحضاريين من آبائه، فقد كان قائداً عسكريّاً، ورجل دولة، وراعيا للعلم والأدب، وفى عهده ازدهرت سومر، وصارت أور عاصمة بحق للدولة العربية السورية الجديدة، دولة أمورو المحررة.

ثم خلفه ابنه "أمارسين" (٢٠٤٧ - ٢٠٣٩ ق.م) وحكم لمدة تسعة أعوام قضاها فى البناء والدفاع عن الوطن، مما صار سنة لا يمكن تجاوزها من قبل أى حاكم إلا بالاستسلام لتدمير البلاد وخرابها أمام زحف الأعداء.

لقد تمكن كل من شلوجى وابنه أمارسين من أن يحافظ على حدود الدولة، ويزيد من منجزات البناء فى الداخل، مما جعل استمرار دولة سرجون القومية الواحدة وبمضمونها التحررى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا أمرا واقعا وحقيقيا، بخلاف ما دأب المؤرخون الاستعماريون على تأكيده والقول بأن سرجون لم يكن غير رجل حرب، وأن دولته انتهت بنهايته، لقد صار كل من يحاول أن يستقل بمدينة أو بمنطقة منذ عهد سرجون خارجا على قانون التطور الطبيعى للمنطقة، وعلى حق السكان الذين وعوا جيدا وأدركوا أن لا حياة ولا مستقبل لكل منجزاتهم الحضارية وتاريخهم الحضاري العريق إلا ضمن إطار الدولة القومية التى تضمن لهم الحماية والأمن، كما تضمن كل فرص النمو والإبداع وممارسة الشعب لعبقريته فى الخلق والإنتاج والعطاء.

ولقد لجأ كل من شولجي وابنه أمارسين إلى انتهاج خطة جديدة فى إدارة المقاطعات الكثيرة فى المناطق المترامية والنائية، بأن نصبوا حكاما محليين يتبعون الملك مباشرة، وفى منطقة سومر وأكاد كان الحكام ينتقون من السومريين والأكاديين دون تمييز، مما يؤكد وحدة الأصل السكانى رغم كل مساعى بعض المؤرخين المغرضة، أما الأقاليم النائية والمتطرفة والتى تمتد من أقصى عيلام فى الشرق إلى الأقاليم الغربية على شاطئ المتوسط، فقد عين الحكام فيها من سكان الأقاليم ذاتها، إن تلك السياسة الفيدرالية قد تكون سياسة حضارية متطورة بالنسبة لذلك الزمن، لكنها، وفى ظروف وجود الأعداء الدائمين على الحدود الشرقية والشمالية الذين لا يمكن حسم الأمور معهم والذين يمثلون خطرا يتهدد الدولة فى كل وقت، فإن هذا الظرف بالذات كان يجعل مثل تلك السياسة الحضارية المتطورة ذات حدين، لأنها تتيح لذوي النفوس الضعيفة من حكام الأقاليم المتطرفة والملاصقة لوجود العدو فرص التواطؤ والنزوع إلى الاستقلال بتشجيع من الخارج، وهذا ما كان يحدث على الدوام، لكن ذلك أتاح

فى الوقت نفسه فرص النمو والازدهار الاقتصادي، كما ساد الأمن جميع مواصلات الدولة الممتدة من أقصى الشرق فى عيلام إلى أقصى الغرب على شواطئ المتوسط، ومن طوروس إلى شواطئ البحر الأحمر وبحر العرب، وصار فى الإمكان القول مع جميع المؤرخين بأن ذلك الزمن كان زمن تضامن ورخاء وسلام، وكان القطاع الخاص فى الاقتصاد ينمو على حساب قطاع المعابد، وكان نفوذ العلمانيين يتزايد على حساب نفوذ الكهنة، وظهرت طبقة من ملاك الأراضى والمواشي والبيوت والقصور، واختلفت الأسعار حسب النوع والزمان والمكان، ويعبر عن القيمة بموازين الفضة أو بمكاييل الحبوب، أما التعرفة أو الوحدة القياسية فكانت شاقل الفضة الذى يعادل ١,٦٠ مينا أى حوالى ٩ غرامات فضة ويساوي جوراً من الشعير، والـ "جور" يساوى ٢٢٥ ليتراً، ومساحة سار الأرض نحو ١٠ أمتار مربعة، والمرابع يقدم ثلث المحصول للمالك.

وكان للحكومة أراضيها ومخازنها، وكتابها، وصناعها، وجيشها، وعبيدها، ولم يك التاج والمعبد فى حالة تناقض لأن الملك هو نفسه رئيس الكهنة وهو الذي يبنى المعابد، ويعين كبار الكهنة، ويؤم الاحتفالات الدينية، والمعابد تدفع ضرائب للدولة ، وعند الأزمات تضع ثروتها تحت تصرف الدولة.

وقد بنى شولجي فى بزوريش داجان قرب نيبور أهراء كبرى للحبوب وزرائب للأبقار والأغنام والماعز، ومستودعات للبيرة وغيرها من المتاع المتجمعة فى الإمبراطورية كهبات أو كجزية أو كضرائب من الأنزية (الايشاكو) بنظام دورى دقيق يسمى "بعالة" (أى لقاء الحكم والسيادة، كضريبة الميرة أو الإمارة)، وكان الكتاب المختصون يسجلون الصادر والوارد من الدخول إلى الخزينة.

لقد أصبحت تلك البلاد الشاسعة موحدة إدارياً، وسياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، وثقافياً، مرة أخرى، وصارت جميع المناطق السورية الممتدة من عيلام إلى المتوسط تدار من أور عاصمة الدولة العتيدة.

لكن تطور تلك الدولة واستمرارها كان مرتهنا بمجموعة من العوامل القديمة والجديدة، إنه لمن المعروف أن كل مرحلة من التطور تحمل فى ذاتها تناقضاتها الجديدة، وبالتالي تحدياتها الجديدة، مما يستدعى توليد ردود فعل جديدة.

إن الدولة العربية فى عهدها الجديد الموحد حول عاصمتها "أور" لم تكن قادرة على أن تتخطى نمو طبقات جديدة من الأغنياء والمستغلين سواء عن طريق ملكية الأراضى الزراعية الواسعة، أو العقارات، أو المصالح التجارية الدولية والداخلية الكبيرة، كما لم تقدر على أن تحول دون خلق طبقة واسعة من الفقراء والمستغلين الذين يضطرون، ليس إلى بيع عملهم فسحب، بل إلى بيع أطفالهم ونسائهم وأنفسهم للملاكين الإقطاعيين أو للهياكل أيضا.

وإن فى إمكان أى منا أن يتصور حكاماً كأولئك الذين يتولون أمور المناطق المتطرفة كعيلام، والذين يتمتعون باستقلال ذاتي، وينظرون إلى جموع الشعب الأموري الفقيرة والبدوية المتعاظمة كتلتها يوما بعد يوم فى المدن والأرياف وعلى التخوم مع أطراف البادية، إنما يرون فى ذلك خطرا مهددا لمصالحهم هم بالدرجة الأولى إذا لم يعتمدوا قوى احتياطية معينة تضمن لهم الحفاظ على مكاسبهم الخاصة.

إن ذلك كله من الأمور الطبيعية، كما أن من الأمور الطبيعية ايضا أن يجد كل مجتمع فى مثل هذه الأحوال الحلول التى يعتبرها ناجعة لكن الأمر غير الطبيعى هو بقاء عوامل قديمة متراكمة تضاف إلى عوامل التناقض والتحديات الجديدة التى تخلقها كل مرحلة، ونعنى بها تلك الأخطار الثابتة المحدقة بسلامة الدولة ككل، والمتمثلة بوجود القبائل البدائية المتنقلة والمعتصمة فى مواقعها بين سلاسل الجبال المنيعة.

إن كل الدول والمجتمعات لابد وأن تمر فى فترات متعاقبة من التوتر والاسترخاء، من القوة والضعف، من التحفز والتواكل، وهى فى مسيرتها الطبيعية تتجاوز المرحلة إلى غيرها عادة دونما كوارث قومية حقيقية، أما أن يوجد ذلك العامل الثابت الدائم الذى لا يمكن حسمه، ولا يمكن تفاديه، والذى يترصد دائما الاسترخاء ليدمر كل شىء، فإن ذلك هو ما ابتليت به الدولة العربية منذ بداية عهد نشوئها القومي وحتى اليوم، إن طبيعة التطور الاجتماعى لا تسمح، ولا يمكن أن تسمح، بظهور القادة الأفذاذ متسلسلين واحدا فى إثر آخر، ولذلك فإن عظمة كل منهم كانت تقاس دائما بمقدار إدراكه لهذا القانون الحتمي الطبيعى،

ولمدى تعامله معه، بحيث يتمكن فى مرحلة حكمه ووجوده من أن يغطي كل فترة "الهوة" التى سوف تليه من أجل أن يمضى مطمئنا إلى أن مجتمعه أو شعبه سوف يعبر تلك "الهوة" دونما أى قلق من أن يتهدده السقوط مرة أخرى، قبل أن تتاح له فرصة ولادة قائد عظيم آخر.

سرجون القائد التاريخي والقاءة الآخرون العظام :

إن سرجون، ونارام سين، وشولجي، وأمارسين، لم يكونوا ، مجتمعين أو منفردين، غير أولئك القادة التاريخيين الأفذاذ، الذين صنعوا لأمتهم، وللبشرية من بعدهم، تاريخا حقيقيا امتد لا ليغطى مراحل حكمهم وحسب، بل وليضمن استمرار خطوط التواصل التاريخية الإيجابية فى امتدادها القوى عبر زمنهم إلى المستقبل القادم من بعدهم دون أى خوف من الالتواء أو السقوط لكن ظروف وطنهم كانت تضع كل تلك الإنجازات فى كثير من الأحيان الانتقالية على كف الأقدار القادمة مع رياح الغزو الوحشى التى كانت تهب على المنطقة دائما من الشمال والشرق، لقد كانت تلك العوامل، بالتضافر مع حجم المسافات الشاسعة بين الأقاليم، وانعدام وسائل النقل والاتصال السريع فى ذلك الزمن، من النقاط القاتلة لولا شدة بأس هذا الإنسان، وشدة ثقته بنفسه، التى أنقذت وطنه العربى الكبير، فى أحلك أوقاته عبر تاريخه وعلى مدى خمسة آلاف عام من تأسيس دولته.



لقد خلف "أمارسين" أخوه "شوسين" (رسول رب القمر) وحكم فى الفترة ٢٠٣٨-٢٠٣٠ق.م وقاد حملة ضد تحالف القبائل فى شمال زغروس، ولما مات شوسين خلفه ابن أبى سين ٢٠٢٩ ق.م، الذى كان يفتقر إلى الحس الاستراتيجى والى مواهب القيادة معاً، وسرعان ما بدأت تظهر

نقاط ضعفه لخصومه، كما عمد خصومه الداخليون إلى تطويقه بأدوات حكم نفعية بليدة لا تفقه شيئا من أمور إدارة مثل تلك الدولة الحساسة البالغة الدقة فى موازين قوتها وضعفها، سهرها ونومها، عملها وراحتها، فأحاطوه بأجواء من الأبهة الزائفة، وأخذوا يعملون سرا على تفكيك أوصال الدولة، وتغذية الحركات الاستقلالية، وبدأت تستشري حركة السباق نحو الإثراء الفردي السريع بشتى السبل، مما جعل كل الأبواب مفتحة أمام جيوش الفساد الإداري والاجتماعي والخُلقي.

وأمام ملل القادة العسكريين ويأسهم من الملك فى القيام بالإصلاح الإداري، ومع تزايد نفوذ الحكام فى المقاطعات وزيادة ملاحقتهم للضباط المخلصين الذين بادروا إلى التصدي لعملية التدهور التى أخذت تستسلم لها البلاد بسرعة منقطعة النظير، فقد أخذ كبار قادة الجيش يسقطون أيضا فى دوامة الإثراء، وراحوا، مثل غيرهم، يتنافسون فى امتلاك الدور والقصور والأراضى، متعامين عن كل ما يدور حولهم فى السر والعلن، مما ترك المؤسسة الوحيدة الفعالة القادرة على استلام زمان المبادرة تصاب هى الأخرى بالعجز المطلق وبالشلل، وأخذت صورة الجيش السرغونى تتقزم فى نظر الجماهير، وتتحول إلى مؤسسة عبء على تلك الجماهير، بدلاً من أن تكون ــ كما عرف عنها دائما ــ الأداة الحقيقية الحاسمة فى يد قوى التقدم والتطور وما إن اطمأنت قوى الردة فى المجتمع العربى السوري إلى عجز الجيش تماما عن التحرك، وإلى انغماس شوسين بين زمرة من بطانته فى تحقيق مصالح أنانية ضيقة لا تمت إلى عظمة شعار الدولة القومية التى بدأها سرجون، وحافظ عليها نارام سين، وشولجي، وأمارسين، حتى بادرت إلى إعلان نواياها دونما خوف هذه المرة.

فلم يكد يستقر بأبي سين المقام فى الحكم قليلاً حتى بدأت نتائج أسلوبه فى الإدارة والحكم تظهر على الساحة : لقد أعلنت عدة مدن فى الشرق وفى سومر ذاتها استقلالها مثل أشنونا وسوزان (وهى سوسان أو سوسة عاصمة إقليم عيلام) وظهرت بوادر التواطؤ مرة أخرى بين حكام المقاطعات الشرقية المتطرفة

المعينين من السكان المحليين، والمتمتعين بالاستقلال الذاتي، مع تحالف القبائل فى جبال زغروس.

وبلغ الشعور بالخطر أطراف الدولة السورية فى الغرب، والشمال، مما جعل العرب السوريين يدفعون بحشود بشرية ضخمة ويزجون بها على حدود العاصمة والمدن الشرقية تحفزاً لأى طارئ.

لقد صار من السهل على أى إنسان بسيط من عامة الشعب العربي السوري، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، أن يلاحظ أن البلاد أضحت حُبْلَى بأحداث كبرى، وأن الصراع قد بلغ حدا لا يمكن التوقف عنده أو الرجوع عنه: فإما أن يسقط شعار الدولة المركزية القومية الواحدة، وتعود البلاد القهقرى إلى حالة من الشظايا المتصادمة تحركها مصالح وأنانيات فردية ضيقة، أو أن تعود الجماهير لتؤكد تشبثها بوحدة المصير، وتمسكها بمستقبلها المتمثل بدولتها القومية المتحررة الواحدة.

لقد كان تعاظم التدفق السكاني من الغرب والشمال إلى مركز تكاثف الخطر فى سومر وعيلام يدل دلالة قاطعة على مدى تجذر الدولة السرجونية فى نفوس العرب حتى أقصى الغرب، لقد بذلت مدن الغرب السوري الأمورية: صور، وصيدا، وجبيل، وأوغاريت، ودمشق الأموال والأسلحة بوفرة لا مثيل لها، وزودت زحوف السكان بأحدث أسلحة ذلك الزمن بعد أن شهد لها التاريخ بتفوقها فى استخدام وطرق المعادن على جميع الشعوب.

ما إن أعلنت عدة مدن فى الشرق وفى سومر استقلالها حتى رمى الأموريون الغربيون بثقلهم على حدود المدن الشرقية، وفى السنة الخامسة من حكم أبى سين اخترقوا التحصينات، وتغلغلوا فى قلب سومر، وقطعوا الطرق المؤدية الى أور، واستعدوا لغزو نيبور وايسين.

وفى أعالى الشمال الفراتي كان الأموريون الغربيون يتحفزون للانقضاض على مدينة ماري لينتزعوها من سلطة حكام أبى سين، ثم ليتقدموا من هناك على ضفة الفرات إلى مناطق تمركز الصراع حول العاصمة فى أور.

وفى الشمال فى أعالى الدجلة كان الأموريون والسريان، الذين عايشوا أحداث الدولة القومية بتعاطف كبير منذ بدايتها فى عهد سرجون، يقلقهم تنافس الخصوم فى الداخل وتزاحم الأعداء على الدولة من الخارج، فأسرع شمسي حدد، وبسط سلطانه على المناطق الوسطى من الدجلة والفرات، ثم دخل ماري وانتزعها من الحكام التابعين للملك أبى سين، وأراد أن يتابع زحفه إلى المناطق الغربية لضمها فى قبضته ثم ينطلق بها إلى سومر وعيلام ويعيد للدولة وحدتها، لكن ملك حلب أوقفه عند حدود مملكته، فاضطر إلى الرجوع ثم التريص من جديد بعد أن أوقفه ملك أشنونا فى جنوب مملكته، وتقدم ملك حلب وساعد ماري فى الخروج من تحت سلطة شمسي حدد من جديد لتتحالف معه.

وفى الشرق انقض الأموريون واستلموا زمام الأمور فى ايسين ولارسا، فقد أعلن "ايشبى أرا" نفسه ملكاً فى ايسين، كما أعلن الشيخ الأموري، "نبلان" نفسه ملكاً على لارسا، ثم غزا العيلاميون سومر فى فترة ضعفها، وحاول أبى سين أن يحارب حتى النهاية من أجل الحفاظ على حكمه محاولاً جمع الصفوف مع الأموريين المتقدمين من الغرب، لكن خطته باءت بالفشل، وكان قد خسر ثقة جميع الأطراف بجدارة، وفى عام ٢٠٠٦ ق.م حطم العيلاميون أسوار أور التى بناها أورنامو "عالية كجبل مشع" واحتلوا المدينة، ونهبوها وأحرقوها بالاشتراك مع قوات القبائل المرتزقة المقاتلة فى صفوفهم، وانسحبوا تاركين خلفهم حامية صغيرة، وسيق أبى سين أسيراً إلى عيلام حيث مات هناك قهراً ـــ كما يقال ـــ حينما فوجئ بأن أحدا لم يحاول القتال إلى جانبه والدفاع عنه حتى أقرب المقربين إليه فقد سارعوا إلى الفرار من ساحة الصراع ضمانا لبقائهم وبقاء الثروات التى نهبوها وكدسوها مغتنمين وجودهم فى قمة السلطة حول أبى سين.

فى هذه الأثناء تحرك الأموريون الغربيون من مدينة مارى وأعالى الخابور، وانحدرت زحوفهم على مجرى الفرات إلى الجنوب حتى استقرت فى منطقة بابل، وسرعان ما أعلن سومو أبوم الأموري نفسه ملكاً على بابل، قاطعاً بذلك الطريق على تقدم شمسي جنوباً من أجل تسلم السلطة المركزية كلها.

وهكذا بدأ الصراع على السلطة فى الدولة العربية السورية، وظهرت مراكز

القوى جميعا فى أوضح صورة، وكانت أبرزها قوتان: الأموريون المتقدمون من سوريا الغربية، والأموريون والسريان الزاحفون من الشمال أما العيلاميون فكان الطرفان يعتبرهما قوة انفصالية لا هم لها غير الاحتفاظ بنفوذ حكام المدن فيها وإطلاق العنان لابتزازهم.

ولقد تمكن سومو أبوم من أن يبقى حاكماً فى بابل مدة ١٣ سنة، جاعلاً منها عاصمة له، فكان بذلك أول ملوك السلالة الأمورية التى حكمت الدولة من بابل، وكانت بابل حينذاك بلدة صغيرة لم تشتهر بعد، وكان يقطنها بعض العموريين الغربيين وبقايا الأكاديين الذين فروا من العاصمة "أجادة" بعد تدميرها بالزلازل واجتياحها من قبل الغوتيين، وكانت على مقربة منها.

ولقد حاول ايلوشوما (لاحظ وحدة الأسماء) الزحف جنوباً فاصطدم مع سومو أبوم فى معركة غير فاصلة، لكن هذا الأخير تمكن فى إثرها من أن يضم إلى منطقة نفوذه كلا من مدينتى سيبار وكيش.

وهكذا تمركزت قوتان مؤهلتان لتوحيد جميع المناطق وتسلم قيادة الدولة هما القوتان المتمركزتان فى بابل وآشور، وقد انقسمت باقي المناطق فى تأييدها ما بين هاتين المدينتين.

لقد تميز العرب الأموريون منذ القدم بحسهم الاستراتيجي المتفوق، فهم حينما تقدموا إلى بابل وسبقوا كل القوى المتنافسة الأخرى، كانوا بذلك قد حسموا نصف المعركة لصالحهم وذلك نظرا لموقع بابل الاستراتيجي فى منتصف الدولة وعند نقطة اقتراب نهرى الدجلة والفرات من بعضهما بحيث يسهل قطع خطوط المواصلات ما بين أور وباقى المناطق، وقد تمكنوا من الدفاع عن وجودهم فى بابل ببراعة فائقة لفترة طويلة درسوا خلالها كل أمور المنطقة وتناقضاتها عن كثب، وجعلهم ذلك يتخذون قراراتٍ سريعةً صحيحة وحاسمة إزاء كل مسألة تبرز لهم، وقد بلغ عدد ملوك هذه السلالة أحد عشر ملكاً، حكموا جميعا زهاء ثلاثة قرون، اشتهر من بينهم جميعا بسمعته العالمية المدوية الملك السادس الملقب بـ "حمورابي" والذي حكم لمدة ٤٢ سنة.

المراجع

المراجع

□□

١- د. عبدالعزيز صالح - الشرق الأدنى القديم - جـ-١ مصر والعراق - ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية.

٢ - د. فاضل عبد الواحد علي لأ من سومر إلى التوراة ط٢ لأ دار سينا للنشر- ١٩٩٦.

٣. جيمس فريزر . الفولكور فى العهد القديم . جزء ٢ . ترجمة د. نبيلة إبراهيم . دار المعارف (٤ . د. عزمى شكر . السومريون فى التاريخ

٤. د. عزمى شكر . السومريون فى التاريخ ط ١ . عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان ١٩٩٩.

٥- جاك بيرين - الحضارة السومرية - ترجمة د. عزمي سكر - عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ١٩٩٩.

٦- ل. ديلابورت - بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرم كمال - ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتب - ١٩٩٧.

٧- غولاف - المدن الدولية - ترجمة . طارق معصراني - دار التقدم - موسكو - ١٩٨٩.

٨- جيمس هنري برسند - انتصار الحضارة ، ترجمة د. أحمد فخري - مكتبة الأنجلو المصرية.

٩- و. ج بيري، نمو الحضارة ، ترجمة لويس إسكندر - مؤسسة روز اليوسف للصحافة والطباعة والنشر - الألف كتاب - ١٩٦١.

١٠- أحمد صبري الدبش - سرجون الأكدي وليد غير شرعي - مجلة العصور الجديدة - أبريل ٢٠٠١ .

١١- تمام هاشم فاضل - سرجون الأكادى محقق الوحدة السورية الأولى - مجلة ثقافة وفنون نيسان/٢٠٠٤.

١٢- د. نبيه عقل - تاريخ العرب القديم وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٣- أرنولد توينبى - تاريخ البشرية - جزء ١.

١٤- هنري فرانكفورت - فجر الحضارة فى الشرق الأدني.

١٥- ول. ديورانت - قصة الحضارة - الجزء ٢.

١٦- أسد الأشقر - الخطوط الكبرى فى تاريخ سوريا ونشوء العالم العربى.

١٧- موسكاتي - تاريخ وحضارة الشعوب السامية.

١٨- د. أحمد سوسة - مفصل العرب واليهود فى التاريخ.

١٩- د. أنطون مورتكات - تاريخ الشرق الأدنى - مجلة الحوليات الأثرية - العربية السورية.

٢٠- أحمد داود - تاريخ سوريا القديم - دار الكتاب العربى ط٢ - كانون الثانى ١٩٩٧ - ٢٢ - د. هاري ساكز - عظمة بابل - ترجمة د. عامر سليمان - مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر -١٩٧٩.

فهــــرس الكتـــاب

الفهرس

الفهرس

في تاريخ الشعوب صفحات لا تُنسَى. وفي حياة الأمم قصص تتناقلها الأجيال. فهي قصص في كتب التاريخ حية أبداً لا تموت.

والملك القائد سرجون الأكادي بحق هو واحد من ألمع شخصيات التاريخ القديم. حيث بدأ حياته لا يعرف له أباً وكانت قصة مولده كما سطرها وثيقة هامة. حيث يقول (أنا سرجون الملك العظيم ملك بلاد آكد كانت أمي كاهنة عظمى في الأكدية. وأنا لا أعرف أبي).

أجمعت كل الروايات على أن سرجون ولدته إحدى خادمات المعبد. وعاش دون أن يعرف أباه.

فمن موقع الفقر والعدمية إلى قصر الملك كانت مسيرة سرجون الشاب قبل أن يتسلم زمام الأمور في وطنه. قاد الكثير من المعارك حتى حقق وحدة البلاد وفرض الاستقرار والأمن والعدالة والقوة ومنذ القدم ومن أيام عصر سرجون كان الصراع بين نظام الإقطاع والفلاحين وكان هو المتحكم فكان لابد عليه أن يخوض الصراع بين نظام الإمارات الإقطاعية وفصل الدين عن الدولة وسيادة الأمن والقانون لجميع المواطنين وتحرير جميع فئات الشعب الشغيلة والكادحة من إبتزاز الإقطاع ورجال الدين. وازدهار فكرة المواط والدولة وشعوذات رجال الدين أيامه وقيودهم الروحية الكاذبة.

هذا هو جوهر الصراع الذي خاضه سرجون ضمن حدود وط والذي حققه بعقلية الملك القائد الذي نظر إلى المواطنين والكث من الإنجازات العظيمة التي حققها هذا الملك سرجون الأكادي.

نوجز مسيرته الكبرى في هذا الكتاب الذي نعرف به الجيل الجد هذه القيادات الحاكمة في عالم جديد إنه تاريخ ما أهمله التاريخ.



